

دراسات إسلامية

— ٨ —

شهادة الحشوة لله

رابع العذوة

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوي

أ - مبتكرات

- ١ - الزمان الوجودي .
- ٢ - هموم الشباب .
- ٣ - مرآة نفسى (ديوان شعر) .
- ٤ - الحور والنور .

ب - دراسات أوروبية

- ١ - الموت والعبقريّة .
- ٢ - قلوب الفلاسفة .

خلاصة الفكر الأوروبى

- ١ - نيتشه .
- ٢ - اشبنجلر .
- ٣ - شوپنهاور .
- ٤ - أفلاطون .
- ٥ - أرسطو .
- ٦ - ربيع الفكر اليونانى .
- ٧ - خريف الفكر اليونانى .
- ٨ - برجسون .

ج - دراسات اسلامية

- ١ - التراث اليونانى فى الحضارة الاسلاميّة .
- ٢ - من تاريخ الاحاد فى الاسلام .
- ٣ - شخصيات قلقة فى الاسلام .
- ٤ - الانسانية والوجودية فى الفكر العربى .
- ٥ - أرسطو عند العرب .
- ٦ - المثل العقلية الأفلاطونية .
- ٧ - منطق أرسطو فى ٥ أجزاء .
- ٨ - شهيدة العشق الالهى .
- ٩ - شطحات الصوفية .
- ١٠ - روح الحضارة العربية .
- ١١ - نظرية الانسان الكامل فى الاسلام .
- ١٢ - الاشارات الالهية للتوحيدى .
- ١٣ - الآراء الطبيعية لفلوطرخس .
- ١٤ - أفلوطين عند العرب .

د - ترجمات

الروائع المائة

- ١ - أيشندروف : من حياة حائر باثر .
- ٢ - فوكيه : أندين .
- ٣ - جيته : الديوان الشرقى (فى جزئين)
- ٤ - بيرن : أسفار اتشيلد هارولد .
- ٥ - هيلدرلن : هيپريون .
- ٦ - نيتشه : زرادشت .
- ٧ - ولكه : صحائف مالتى برجه .

دراسات إسلامية

- ٨ -

شَهَادَةُ الْعَشِيقِ لِلْمَرْكُومِ

رابع العُدْوَةِ

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

فهرس الكتاب

- استهلال : بيئة رابعة : مدينة
البصرة (٣ - ٦) .
- ١ - مصاعب البحث في رابعة
(٦ - ٧) .
- ٢ - نشأتها الاولى محاطة بالاساطير
(٧ - ١٠) ؛ رابعة مولاة فارسية أو
مسيحية الأصل (١٠ - ١١) ؛ بدء
شعورها برسالتها (١٢ - ١٣) ؛ أسرها
وتحريرها (١٤ - ١٥) ؛ رابعة تحترف
مهنة العزف على الناي (١٦ - ١٧) ؛
حياتها اللاهية (١٧) ثم توبتها
(١٨ - ١٩) .
- ٣ - توبتها بفضل الله (٢٠ - ٢١) ؛
ملامح هذه التوبة ومعالمها (٢٢ - ٢٦) ؛
رابعة في طريق العشق لله (٢٦ - ٢٩) .
- ٤ - أدوات العبادة عندها (٢٩
وما يليها) : التهجد وقيام الليل
(٢٩ - ٣٣) ؛ استذكار الموت
(٣٣ - ٣٥) .
- ٥ - عهد التنقل في حياة رابعة :
الحج (٣٥ وما يليها) ؛ تطور معنى
الحج لديها : المرحلة الاولى (٣٧) ،
المرحلة الثانية (٣٧ - ٣٨) ، المرحلة
الثالثة (٣٨ - ٣٩) ؛ الحج يتطور
في طريق التنزيه والتجريد (٣٩ - ٤٠) ؛
رفع الظاهر عن معنى الحج وتجريده
(٤٠ - ٤٣) .
- ٦ - الخلط بين رابعة الشامية
ورابعة البصرية (٤٤ وما يليها) ؛
معيار التمييز بين كليهما (٤٦ - ٤٧) ؛
تقد أخبار رابعة وفقاً لهذا المعيار
(٤٨ - ٥٠) ؛ أخبار زواج رابعة
(٥٠ - ٥٣) ؛ نظرية رابعة في الزواج
ونظرية الصوفية عموماً (٥٣ - ٥٩) .
- ٧ - حبيب رابعة الوحيد هو الله
(٥٩ وما يليها) ؛ رابعة أول من تكلم
في الحب الالهى بين الصوفية المسلمين
(٦١) ؛ الحب ومنزلة الخلّة (٦١ - ٦٤) .
- ٨ - الجانب العاطفى في الحب عند
رابعة وتمييزها بين نوعين من الحب :
حب الهوى والحب الذى « هو » (= الله)
أهل له (٦٤ وما يتلوها) ؛ الحب
الخالص وحب الهوى (٦٦ - ٦٨) ؛
التوفيق بين كليهما (٦٨ - ٧٠) ؛
روايات أبيات رابعة في كلا النوعين من
الحب (٧٠ - ٧٥) .
- ٩ - الجانب الايجابى في رسالة رابعة
(٧٥ وما يليها) ؛ المرض حتى الموت
(٧٦ - ٧٨) .
- ١٠ - رابعة والله وجهاً لوجه
(٧٨ وما يليها) ؛ تجريد الكعبة من
معناها الحسى (٨٠ - ٨٢) ؛ تفنيد
رأى ابن تيمية (٨٢ - ٨٤) ؛ تجريد
الجنة والنار من معناها الحسى
(٨٤ - ٨٥) ؛ هل تأثرت رابعة بحركة
الزندقة المعاصرة ؟ (٨٥ - ٨٧) .

— ب —

- | | |
|-------------------------------------|----------------------------------|
| ١١ - الفناء في الله وعبادة الألم | ١٤ - أسطورة رابعة : قبرها |
| (٨٧ - ٩٠) . | (٩٦ - ٩٩) ؛ كراماته الشعبية |
| ١٢ - حملة رابعة على الأخرويات | (٩٩ - ١٠٠) ؛ القبر المنسوب الى |
| وانكارها حقيقة الجنة والنار (٩٠ | رابعة في دمشق (٩٩ - ١٠١) ؛ |
| وما يليها) . | رواية العطار عن قبرها (١٠١) . |
| ١٣ - الكرامات المنسوبة الى رابعة | ١٥ - تاريخ وفاة رابعة والاختلاف |
| وصياغتها وفقاً للنموذج العام للصوفي | حوله (١٠٢ - ١٠٤) . |
| (٩٢ - ٩٦) . | |

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

رقم مسلسل	
١	الجاحظ (١٠٨) .
٢	السراج (١٠٨) .
٣	الكلاباذى (١٠٩) .
٤	الهجویری (١٠٩) .
٥	أبو سعيد بن أبی الخیر (١٠٩) .
	ما أورده ماسینیون (١١٠ - ١١٣) : أبو طالب المکی ،
	أبو نعيم ، خشيش ، عين القضاة ، ابن العماد ، ابن تیمیة ،
٦	الأفلاکی .
٧	أبو القاسم النیسابوری (١١٣ - ١١٧) .
٨	الزیدی (١١٨ - ١٢٣) .
٩	الرسالة القشيرية (١٢٤) .
١٠	ابن الجوزی : رابعة العدویة (١٢٤ - ١٢٨) .
١١	ابن الجوزی : رابعة الشامية (١٢٨ - ١٣١) .
١٢	ابن تیمیة (١٣١ - ١٣٢) .
١٣	ابن شاکر الکتبی (١٣٢ - ١٣٣) .
١٤	السراج (١٣٣ - ١٣٥) .
١٥	المنأوی (١٣٥ - ١٤٢) .
١٦	الطار (١٤٢ - ١٦٠) .
١٧	الشیخ الحریفیش (١٦٠ - ١٦٣) .
١٨	ابن تغری بردی (١٦٤) .
١٩	بهاء الدین العاملی (١٦٤) .
٢٠	الیافعی (١٦٥ - ١٦٧) .
٢١	حکایات عن رابعة فی مخطوطات الفاتیکان (١٦٧ - ١٦٨) .
٢٢	عبد الرحمن الجامی (١٦٨ - ١٦٩) .
٢٣	محرم بن أبی البرکات الزیلي (١٦٩ - ١٧٠) .
٢٤	ابن العماد الحنبلي (١٧٠) .
٢٥	أبو الحسین الملقی (١٧٠ - ١٧٢) .
٢٦	عز الدین بن عبد السلام بن غانم المقدسی (١٧٢ - ١٧٤) .
٢٧	أبو بکر الحصنی (١٧٤ - ١٧٨) .
٢٨	سبط ابن الجوزی (١٧٨ - ١٧٩) .
٢٩	عبد الرحمن الجامی (١٨١ - ١٨٢) .

شهادة العشق الالهى

فينسيا العربية ترفُّ كالآل الزاخر بالتهويل في رؤى الساغبين اللاغبين الضاربين إليها من أعماق الفياق في قلب الجزيرة العربية ؛ حتى إذا بلغوها وأناخوا الإبل عند المربد دخلوا المسجد الجامع من باب البادية ، فبهرتهم دقة الأساطين وبراعة الفن الذي أضفاه زياد بن أبيه على هذا الأثر الرائع للعمار الإسلامي الأول^(١) ، وجَلَّوا بأبصارهم المُغبرة برمال البادية إلى هذه التقوى المترفة ، فاستشعروا مساً مما ينتظرهم على الجانب الشرقي ناحيتي الشمال والجنوب حيث السفن الزاهية تنحدر من الشمال قادمة من بغداد في نهر مَعْقِل ، والجواري المنشئات في الخليج الفارسي تمخر عُباب نهر الأُبلة متصاعدة من الجنوب في وقار لأنها مَوْقرة بأثمن السلع المحمَّلة إليها من الهند والصين .

تلك هي مدينة البصرة^(٢) التي أنشأها عُتْبَةُ بن غَزْوَان سنة ست عشرة هجرية (= ٦٣٧ ميلادية) بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كيما تكون فيها نقلة بين البادية والحضر ، بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان وبين الترف الناعم الهائم في أوداء القداسة الشهوانية . ولذا جاءت مزيجاً من هذين الطرفين المتباعدين في تخطيطها ومساق الحياة فيها ، وكانت روحها مسرحاً لمأساة هذا الازدواج المتوتر العنيف في طبيعتها . وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها : ففي روح كلِّ تسكن طبيعتان متعارضتان : إحداهما تتلّس غذاءها من قوت الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب . ولن تستطيع إحداهما القضاء

(١) راجع ياقوت : « معجم البلدان » ، نشرة قسطنقلد ، ج ١ ص ٦٤١ — ص ٦٤٣ .

(٢) راجع : لوسترايخ : « بلاد الخلافة الشرقية » ص ٤٤ — ص ٤٥ G. Le Strange: The كبردج سنة ١٩٠٥ Lands of the Eastern Caliphate ، و« دائرة المعارف الإسلامية » ، تحت المادة ؛ وياقوت ، الموضع السالف ، وكتاب « صورة الأرض » لابن حوقل نشرة كرامهز J. H. Kramers في ليدن سنة ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٢٣٥ — ص ٢٣٨ .

على الأخرى ، بل سيظل التعارض قوياً عنيفاً ، وفي عنقه يقوم ذلك التوتر الحى الذى يجعل من حيواتهم مصدراً للتشويق لا يقل فى قيمته عن مذهبهم . ماذا أقول ! بل فى حياة أكثرهم ما يفوق مذهبهم بمراحل عدة . ولذا يجب على الباحث أن يتلّس عندهم كلتا الناحيتين المتعارضتين ، وأن يفلسف حيواتهم على أنها لذوات وجودية باطنها زاخر بممكنات التفتح على ضوء الجهول . والذوات الوجودية التى من هذا القبيل تحيا فى الأسطورة كما تحيا فى التاريخ ، لأن التاريخ يستحيل عندها إلى أسطورة والأسطورة تستحيل إلى تاريخ ، فلا تستطيع أن تميز بين الجانبين بوضوح . وحتى لو استطاع ذلك المؤرخ المتزمت لما أجدى هذا فى التفسير ، لأن حياة هؤلاء بعد وفاتهم أقوى بل وأصدق . لذا يجب أن نعدّ فترة عبورهم فى الدنيا بمثابة زناد يقدهم الشرارة المقدسة التى هى ذاتهم . وستستمر تلك الشرارة تضىء للناس قدراً من الزمان يتوقف على قوة الشرارة الأولى . فمن الخطأ أبين الخطأ فى الفهم التاريخى السليم أن نطرح جانب الأسطورة ، لأن هذه الأسطورة هى لحة التاريخ الحقيقى الحى لتلك النفوس الخارقة .

فإلى جانب الحياة اللاهية التى عمّرت بها القنوات والمتاجر مما كان خيراً إطار لقصص « ألف ليلة وليلة » ، هناك الرُّبُط التى تشيع فيها الزهادة والقداسة ؛ وإلى جانب الأسواق الصاخبة بمشاغل المادة وشئون الدنيا ، كانت المساجد والمكتبات العامة بمثابة معابد للفكر الرفيع . ففى ساحة السوق — حيث ضجيج الأعمال وعقد الصفقات ، واختلاط الأجناس الوافدة من شتى الأصقاع ، وأسباب الترف — كان يقوم المسجد الجامع الثانى الذى كان آخر مساجدها حتى لم يكن له فى العراق بأسره نظير . فإذا ما تزود من بالسوق من أفخم السلع المادية أوى إلى المسجد فطاف على حلقاته : هنا حلقة النحويين واللغويين يحتدم فيها الجدل الصارخ حول شاردة من شوارد اللغة قذف بها فى جمعهم كوفى جاء محملاً بأسلحة أهل بلده ؛

وهناك مجلس الحسن البصري تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقي مواعظه الضاربة في فيافي الزهد فيستدرّج الدمع من مآقي الحاضرين ، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية الناضرة ، أو تثار فيه مسائل من التوحيد سرعان ما تُشيع الحرارة في هذا الجو الرقيق . فإذا ما جَنّ الليل وسكن الأحياء وجُستَ خلال المدينة — شأن الغرباء ذوى النفوس الطَّلعة المغامرة — ترامت إلى مسامعك أنغام اللهو العنيف في نفس الوقت الذي يقرع أذنيك فيه تضرعاتُ المهجدين القانتين . هنا اللاهون يمحرون بزوارقهم الزاهية في مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفون ويعربدون ؛ وهناك في زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستلهمون الموت والقبر أفكاراً وموضوعات للتأمل الحزين والعظة البالغة والعزوف عن الدنيا . هنا أمثال ابن أبي عَيَّنة يقضون الليالي البيض بين أحضان الشهوة الآتمة في إقبال لهيف على نَعَم الحياة^(١) ؛ وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسي ممن لا يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله ، تراه دائماً هائماً بين المقابر ، وفي الليل يضع في عنقه غُلاً من حديد ثم يضرع ويبكي حتى الصباح^(٢) : أولهما يرتاد مِنطقة الأُبلة حيث القصور والبساتين والمناظر الأنيقة والبرك الفسيحة المرصوفة وغرائب الملاذ وتُحفِ المتظرفين^(٣) . والآخر لا يرتاح إلا إلى البادية ، أو يتأمل النخيل في الخريف وقد اسودَّ جميعه بما حَطَّ عليه من غريبات قواطع ، فكان منظره داعياً إلى التأمل الساجي للبال الكاسف والقلب اللهيف .

(١) راجع أشعاره في التشوق إلى لياليه اللاهية في البصرة لما أن ارتحل إلى جرجان ، في ياقوت : « معجم البلدان » ، نشرة قسطنطد ج ١ ص ٦٥١ .

(٢) راجع : « طبقات الأولياء » لعبد الرؤوف المناوي ، مخطوطة بالظاهرية برقم ٤١٦٤ عام ص ١٠١ .

(٣) ابن حوقل : « صورة الأرض » ، نشرة كرامرز ، ص ٢٣٦ ، لندن سنة ١٩٣٨ .

فهللوا معي الآن ، أيها السادة ، إلى كوخ وضع ولكنه عاصر بالقداسة ، تسكنه
عجوز سحلت سريرتها وقد ذرقت على الثنائين ، « كأنها الشنُّ تكاد تسقط »^(١) .
كل ما في البيت قطعة من البُورِي الخلق ، « ومَشَجَبُ قَصَبِ فارسي طوله
من الأرض قَدْرُ ذراعين ، وستر البيت جُلَّة » ؛ وليس فيه من الأدوات إلا حَب
وكوز ؛ ثم « لَبْدٌ هو فراشها وهو مُصَلَّاهَا . » أما المشجب فلم يكن يحوى شيئاً
من الملابس لأنها لا تكاد تملك منها شيئاً ، وإنما كان يحمل أ كفانها ، فكانت
تستخدم هذا المشجب بما عليه من أ كفان كما تضع أمام عيونها موضوعاً للتأمل
أثناء الذكر العقلي ، مثلها مثل القديسة تريزا الأيلاوية — والصوفية المسيحية
عامة — في استخدامها نموذج المَصَلَب Calvaire . فصلبها هو مشجبها المجلل
بأ كفانها . وما أقوى الشبه — كما سنرى — بين هذه الصوفية المسلمة وبين تلك
الصوفية المسيحية ! وإن في الدراسة المقارنة لكليهما لما يوضح التصوف الخاص
بهما كما يفسر كثيراً من الظواهر الصوفية عامة .

هذه الصوفية المسلمة هي رابعة العدوية التي قضت عمرها منذ توبتها
وهي تحترق بنار الحب الإلهي حتى آلت في آخر حياتها إلى تلك الحال التي وصفنا ،
فكانت شهيدة العشق الإلهي حقاً .

وليس لنا ، وبالأأسف ! عن حياتها من الوثائق ما يسمح بتاريخ تطورها الروحي
على نحو مفصل أو شبه مفصل ، كما هي الحال بالنسبة إلى القديسة تريزا الأيلاوية
مثلاً . ولئن كان المؤرخون للتصوف المسيحي يشكون من فقر الوثائق عن الفترة

(١) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » ، ج ٤ ص ٥٧ ب ، مخطوط بالظاهرية بدمشق
رقم ٦٧ تاريخ ؛ وابن شاكر الكشي ، « عيون التواريخ » ج ٣ ورقة ٧ ب (عن سنة ١٣٥ هـ)
مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٤٤ تاريخ .

الأولى من حياة القديسة تريزا ، مع أن لها ما لها من الترجمة الذاتية والمؤلفات الخاصة التي تشير فيها إلى شوارد من حياتها ، فإذا يقول مؤرخ التصوف الإسلامى لآعن الفترة الأولى من سيرة رابعة فحسب ، بل عن حياتها كلها وهو لا يكاد يملك وثيقة واحدة يستطيع الاطمئنان إليها ! وحتى هذه الوثائق المتهمة الضاربة فى نطاق الأسطورة ضئيلة تافهة قد اختلط الأمر فيها إلى أبعد حدّ لعدة أسباب أهمها أن لها تسمية أخرى تدعى بنفس الاسم أو على الأقل باسم لا يكاد يفترق عن اسمها إلا بنقطة ، مما كان مثاراً للخلط الفاحش فى إيراد أخبارها . وأشهد عن نفسى أننى كنت كلما توغلت فى دراستها وتكشفت لى المخطوطات عن وثائق جديدة ، شعرت بشخصيتها تتراجع إلى كهف الأساطير أو تتجمل أخبارها بين يديّ حتى كدت أياس نهائياً من الظفر بشيء عن حياتها وأقوالها يمكن المؤرخ المثبت أن يقرره وهو مطمئن الضمير . فكل ما يروى عنها ينساب كالماء بين فروج أنامل الباحث الذى يريد أن يتخذ منهجاً نقدياً سليماً فى البحث العلمى . على أنى قد حاولت جهدى مع ذلك أن أميز فى الوثائق نفسها بين ما ينسب إليها وما ينسب إلى رابعة الأخرى ، معتمداً هنا على تمييز الأسانيد فى سلسلة الرواة من ناحية ، وعلى التخلفات التاريخيّة anachronismes الصارخة من ناحية أخرى .

فلنحاول هنا — معتمدين على هذا المنهج — أن نقدم صورة إجمالية عن تطورها الروحى .

لا نكاد نعلم — وفقاً لما بين أيدينا من وثائق — عن حياة رابعة الأولى ونشأتها إلا ما رواه فريد الدين العطار « فى تذكرة الأولياء »^(١) . والعطار

(١) نشرة نيكولسون ، ج ١ ص ٥٩ — ص ٦١ ، ليدن ولندن سنة ١٩٠٥ — سنة ١٩٠٧ . وراجع ترجمة ياقية دى كورتى عن الترجمة الأوجورية ، ص ٥٤ وما يليها ، باريس سنة ١٨٨٩ A. Pavet de Courteille: Le Mémorial des Saints .

رجلٌ جامع الخيال لا يمكن أن يُطمأن إلى أقواله إلا بعد أن تتأيد عن طريق المصادر الأخرى . ومما يؤسف له أن المصادر التي عثرنا عليها حتى الآن لم تُشر إلى هذه الفترة من حياتها . لكننا لا نستطيع مع ذلك أن نرفض ما قاله العطار في هذا الصدد جملةً ، لأن الوثائق الجديدة التي تتكشف لنا يوماً بعد يومٍ تؤيد كثيراً من الروايات التي أوردها العطار وكنا نظن أنه وحده الذي أتى بها . وهذا يحملنا على الاقتصاد في اتهام أقواله ؛ فلعل وثائق جديدة أن تؤيد رواياته التي لا نجد لها حتى الآن في المصادر الأخرى . فمن الإسراف الظالم في التشكك والنقد أن نفترض أنها من اختراعه . وإنما نقدمها حذرين ونسوقها على أنها لا تزال بمعزل عن التأييد الكافي .

على أن رواية العطار عن طفولتها وتنشئتها والفترة إلى ما قبل توبتها يمكن أن تقبل في عين المؤرخ إذا ما اطرحنا منها جانب الخوارق والكرامات . فهو يقول إنها حين ولدت ، ولدت في بيت فقير كل الفقر ، فلم يكن لدى أبيها قطرة سمن حتى يذهنوا موضع خلاصها ، ولم يكن ثمت مصباح ولا خرق للنفوس الوليد . فدعته زوجته إلى الذهاب إلى الجيران للحصول على زيت لإضاءة القنديل . وإرضاءاً لزوجها — على الرغم من أنه عاهد الله على ألا يطلب من عبد من عباد الله شيئاً — ذهب وطرق باب الجيران فلم يفتح له . فأنبأها بما حدث فبكت . هنالك أطرق على ركبتيه ونام ، فرأى النبي فقال له النبي : لا تحزن ! فهذه البنت الوليدة سيدة جليلة القدر ، وإن سبعين ألفاً من أمتي ليرجون شفاعتها ؛ ثم أمره بالذهاب صبيحة الغد إلى عيسى زاذان أمير البصرة ويكتب له ورقة يقول فيها إن النبي زاره في المنام وقال له أن يتوجه إليه ويقول : إنك تصلي مائة ركعة ، وفي ليلة الجمعة أربعمائة ، لكنك في يوم الجمعة الأخير نسيتني . ألا فلتدفع أربعمائة دينار حلال لهذا الشخص (والد رابعة) كفارة عن هذا النسيان . » فلما أفاق

والد رابعة من نومه كتب الرسالة التي أمرَ بكتابتها ودفعها عن طريق الحاجب إلى الأمير ؛ فلما قرأها الأمير أمر بإعطائه أربع مائة دينار ؛ وقال لهم : انتوني به لأراه ! ثم راجع نفسه وقال في الحال : لا أرى من الموافق أن يأتي إلى ، بل سأذهب أنا بنفسى إليه ، وأتمسح بلحيتى على أعتابه . وأسعى لأحصل على كل ما تشهيه هذه البنت الجليلة .

تلك رواية العطار عن مولدها . والشئ الوحيد الذى يمكن المؤرخ أن يثق به فيها هو أن رابعة نشأت في بيت فقير كل الفقر . ونحن نعلم من المصادر الأخرى أنها مولاة آل عتيك^(١) ، وآل عتيك بطن من بطون قيس ؛ ولهذا أطلق عليها الجاحظ^(٢) ، وهو أقدم مصادرنا عنها ، اسم رابعة القيسية . ومن آل عتيك بنو عدوة ولهذا تسمى أيضاً رابعة العدوية^(٣) . أما كنيثها فهي أم الخير . وهنا تبدى أمامنا

(١) ابن خلكان ، « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨ م ؛ ابن تغرى بردى ، « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٣٣ ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ .

(٢) « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ؛ « الحيوان » ، ج ١ ، ص ٧٨ ، القاهرة سنة ١٩٠٧ .

(٣) عتيك هو بطن من الأزد ، وهو عتيك بن النضر بن الأزد بن الفوث بن بنت صالك ابن كهلان بن عامر بن شالح بن ارغند بن سام بن نوح . والمشهور بالانتساب إليها أبوا أسماء سلمة بن منيب العتكي من أهل مرو ، ويروى عن سيف بن سبيعة عن ابن عمر ، روى عنه الفضل بن موسى الشيباني وأبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي — مولى بني عتيك من أهل واسط ، سكن البصرة ، يروى عن قتادة وأبي إسحق ، روى عنه الثوري وحاد بن سلمة والبصريون . كان مولده سنة ٨٣ بهريان — قرية أسفل من واسط — ومات سنة ستين ومائة في أولها وعباس بن سنان العتكي الصيرفي من أهل البصرة يروى عن أبي نصر وأبي الحلال وأبو الليث عبيد الله بن عبد الله العتكي من أهل مرو والمشهور من المنتسبين إلى هؤلاء يوسف بن عبد العتكي مولى يزيد بن المهلب من أهل البصرة راجع (« الأنساب » للسمعاني ، نسخة مرجوليوث ، لندن سنة ١٩١٢ ورقة ٣٨٣ ب — ١٣٨٤) .

ويمكن أن نفترض من هذا أن آل عتيك كانوا في مرو ، ومن ثم انتقلوا إلى البصرة ، هم ومواليهم . فهل تكون رابعة أصلها من مرو ؟ لا بد حيثئذ أن نفترض أنها من أصل إيراني ، وقد يؤيد هذا اشتغالها بالعزف على الناي ، وهي حرفة كادت تقتصر ممارستها على الفرس .

مشاكل عدة خاصة بهذا الولاء : فهل كان ولاؤها لآل عتيك لما أن أُسِرَتْ في صغرها وهي تهيم على وجهها وبيعت كما يحدثنا العطار ؟ أم كان الولاء من جانب أبيها وأسررتها ؟ نرجح أن يكون الولاء من جانب أسرتها ، لأن نسبتها بالولاء إلى قيس ترد في نسبها ونسب أبيها . ومشكلة أخرى : متى تم تحريرها ؟ أمن ذلك السيد الذي تحدث عنه العطار وسنذكره عما قليل ، أم تم بالنسبة إلى أبيها من قبل وبقيت النسبة في الاسم فحسب ؟ نرجح أيضاً الرأي الثاني لأن العطار نفسه لا يذكر أن أباه كان عبداً . ومشكلة ثالثة هي أصل أسرتها : أكان أبوها فارسياً أم من عنصر آخر ؟ ومتى أسلم ؟ وعلى أية ديانة كان قبل إسلامه ؟ ألا يكون في الأصل مسيحياً وأسلم ، أم الذي أسلم هو رابعة بعد أن عانت الرق ؟ أسئلة يمكن أن تثار وتتوارد على الخاطر دون أن يجد لها حلاً وعنها جواباً ؛ وإنها لعل أخطر درجة من الأهمية بالنسبة إلى الباحث ، لأنها تتصل بمشكلة بالغة الخطورة ، هي مشكلة نشأة التصوف الإسلامي ، لأن رابعة تنتسب إلى الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام . والنعمة الجديدة التي أدخلتها رابعة في التصوف الإسلامي من العسير ألا نفترض فيها أصولاً سابقة صدرت عنها ، أصولاً كانت على شعور بها أو لم تكن ، سواء ؛ فالشعور واللاشعور هاهنا يتساويان في إحداث الأثر . ونعني بهذه النعمة فكرة الحب الإلهي بمعناه الكامل الذي ينطوى على كل معاني الحب الشهواني متسامياً إلى موضوع غير حسّي : فالاختلاف هنا في الموضوع لا في العاطفة والطريقة . ولسنا نعلم في الروحية الفارسية قبيل الإسلام بوجود مثل هذه النعمة ، ولهذا فنحن أميل إلى استبعاد العنصر الفارسي في المذهب الروحي الذي كانت تدين به أسرتها قبل إسلامها . فإذا كان لا بد من تلخيص مصدر للتأثير الواعي أو اللاواعي ، فيجب أن يتجه البحث خصوصاً إلى التأثير

المسيحي لأنه تغلب عليه هذه الفكرة ، فكرة المحبة الإلهية . على أن هذا مجرد افتراض زُجيه دون تأكيد على أى وجه ، أولاً لأننا نجهل كل شيء عن ديانة أسرتها ، وثانياً لأن البحث — حتى فى المدى الذى وصل إليه التصوف المسيحي فى تلك المنطقة — لا يزال بعيداً عن أن يسعدنا فى إيضاح هذه النواحي الموهلة فى الغموض . ولنا عودٌ إلى هذه المسألة بعد حين .

أما أبوها فيذكر ابن خلكان^(١) أن اسمه إسماعيل ، وعليه جرى الزبيدي^(٢) . أما اللُناوى^(٣) فلا يذكره ويكتفى بنعتها بالقيسية ؛ ولكنه يذكر بعدها رابعة بهذا الاسم : « رابعة بنت إسماعيل العدوية » وهى رابعة الأخرى أو رابعة التى اختلطت بها ؛ وكذلك فعل الشعراني^(٤) : ميز بين « رابعة العدوية » و « رابعة بنت إسماعيل » ؛ وبقية المصادر تغفل ذكر اسم أبيها ، مثل العطار وابن الجوزى ؛ أو تنقل ما أورده ابن خلكان^(٥) . فإذا كان لنا أن نستخلص شيئاً من هذا فهو أن كون أبيها اسمه إسماعيل أمر مشكوك فيه كل الشك ؛ ونرجح كل الترجيح أن يكون قد اختلط الأمر على ابن خلكان فى هذا الموضع كما اختلط عليه فى مواضع أخرى سنفصلها بعد حين ، فمزج بين رابعة العدوية أو القيسية وبين رابعة زوج أحمد بن أبى الحواري . وهذا هو السر فى أن المصادر الأقدم مثل ابن الجوزى لم تذكره . ومعنى هذا إذن أن اسم أبيها لا يزال لدينا مجهولاً ، مما له أثره فى الجواب أيضاً عن الأسئلة التى أثرتها منذ حين ، وبخاصة ما يتصل بديانة أسرتها .

(١) الموضع نفسه .
(٢) « اتحاف السادة المتقين » ، ٩ ص ٥٧٦ ، ص ٦٨١ .
(٣) « طبقات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ ص ١٠٤ ، ص ١٠٦ (عن رابعة بنت إسماعيل العدوية) .
(٤) « الطبقات الكبرى » ، ١ ص ٨٦ ، القاهرة .
(٥) مثل ابن شاكر الكتي فى « عيون التواريخ » ص ٥٧ (مخطوط الظاهرية رقم ٤٤ تاريخ) .

ولدت رابعة إذن في أسرة فقيرة كانت تدين بالولاء لآل عتيك من بني قيس فماذا كان أمرُ تنشئتها؟ يقول لنا المطار إنها لما كبرت وتوفى والدها وهي لاتزال في ريعان الصبا حدث في البصرة قحط ، ففترقت وأخواتها الثلاث يهمن على وجوههن . فرآها ظالمٌ أسرها وباعها بستة دراهم لرجل أثقل عليها العمل .

وهنا يذكر لنا المطار كيف هبطت عليها رسالتها الروحية . فيقول إنها كانت تسير ذات يوم فشاهدت رجلاً غريباً ظلَّ يرمُقُها بنظرة مضمرأ لها الشر ، فهربت وسارت في طريق دمشقها هي الأخرى ، ثم ارتمت على التراب وظلت تناجي ربها : « إلهي ! أنا غريبة يتيمة ، أرسف في قيود الرق ، لكن غمّي الكبير هو أن أعرف : أراض أنت عني أم غير راضٍ ؟ » فسمعت صوتاً يقول : « لا تحزني ! ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » . فلما سمعت هذا الصوت عادت إلى بيت سيدها ، وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلّي لربها منهجدة طوال الليل .

تلك هي الفترة الحاسمة في حياة رابعة وفقاً لهذه الرواية . فلو أخذنا بها لقلنا إن الانصراف إلى الزهد وابتداء الرسالة الروحية إنما هيأ له ما كانت تعانيه في رقها وما احتملته إبان ذاك من آلام وذل ومهانة . فلم تجد خلاصاً أو بالأحرى عزاءً لها عن تلك الحال إلا في الإيمان والثقة بالله والتعزّي بالآخرة عما تلقاه في الدنيا . وهي ظاهرة طالما حدثت في النفوس النبيلة التي قضى عليها بالعبودية . نراها في الجيل الأول للمسيحية ونراها كذلك عند الرعيل الأول في الإسلام لدى بلال بن رباح وصهيب الرومي وسلمان الفارسي . فالنفس النبيلة إن أرغمتها الحياة الخارجية بقهرها المادي على العبودية انطوت على نفسها كما تحررها في الباطن ؛ وهذا التحرير الباطن لا بد أن يتم في عالم آخر غير العالم المادي الواقعي الذي لا تجد فيه غير الاستعباد ؛ ومن هنا تنصرف إلى تطلّب الملكوت الأعلى . حتى إذا

استشعرت شيئاً منه انطلقت بحرية تزداد سعة كلما ازدادت النفوس ثقة بذاتها ، ولن تقف حتى تبلغ اللانهاية ، وإن تفاوتت النفوس في درجة الشعور بها وفقاً لمرتبتها في معراج السمو الروحي : فإن كانت ذات مكانٍ عَليّ رآيتها هائمة تحلق في سماء الألوهية إلى درجة الاتحاد بل الهوية فيما بينها وبين الله ؛ وإن كانت من تلك النفوس التي لم تسعدها الثقافة الروحية الرفيعة ، اعتصمت بالتوكل المذعن والرضا الساجي الذي يطوّف أحياناً بمجنبات الملكوت أو يرنو ببصره إلى أعتاب الحضرة عند حفاقي العرش المجيد . فمن النوع الأول سلمان الفارسي ، تلك النفس الهائمة في منطقة الألوهية المستورة ، ومن هنا كان تأويل الشيعة لدور سلمان خير فهمٍ لحقيقته وإن تبدى لنا على أنه من تهاويل الغنوص الشيعي^(١) . ومن النوع الثاني بلال بن رباح مؤذن الرسول ، الذي يجب أن يدرس على ضوء هذه الظاهرة ، ويفسر تعلقه بالأذان على أنه وجد فيه نوعاً من الخطاب المباشر لله ، فكان أذانه بمثابة ذكر للتواجد ، يشيع في نفسه تلك الجذبة الروحية التي تلقى به بين أحضان الألوهية ، وكان ارتقاؤه المثذنة — مهما يبلغ طولها — مشار شعور بالعلاء في معراج السلوك إلى الحضرة .

إن الذات النبيلة الممتازة إذا لم تجد مَصْرِفاً لممكناتها في الخارج ، في العالم ، بين الأشياء الظاهرة ، انفجر باطنها الزاخر بالممكنات فاستحال عالماً آخر سرعان ما يصبح عند صاحبه كأنه العالم الحقيقي الوحيد وكل شيء خلاه باطل ؛ وانتصاره الأكبر إنما يتم نهائياً بالقضاء على الوجود — في — العالم ، على العالم ذي الأدوات ، على الغيرية والسّوى ، على هذه العوائق التي تقف في سبيل النمو الكامل للممكنات غير المتحققة . والطريق إلى هذا يتفاوت بين النفوس النبيلة بعضها بعضاً وفقاً

(١) راجع بحث ماسينيون عن «سلمان الفارسي» في كتابنا «شخصيات قلقة في الإسلام»

لمزاجها الروحي الخاص . فالذين كانوا يريدون أن يظفروا بالدنيا ، بالوجود — في — العالم عن طريق السلطة والقهر يسلكون إلى الألوهية أيضاً « طريق القهر » ، بأنواع التعذيب والزهادة القاسية ؛ والذين كانوا يبتغون الظفر عن طريق الحب ، والتأثير الشخصي بالجاذبية التي للشخصية الممتازة ، يتخذون إلى الرب « طريق الحب » . ورابعة العدوية ، وهي المرأة ، هل لها أن تسلك غير السبيل الثانية ؟ ! لهذا سنراها تتخذ طريق الحب للاستيلاء على الألوهية ، بعد أن لم تفلح في الوصول عن طريق الحب في الدنيا إلى الاستيلاء على الناسوتية .

ففي هذه النادرة التي رواها العطار ما يكشف لنا عن طريق دمشق لدى رابعة . ومعناها أنها أفكرت في طريق الخلاص فوجدته في الانعكاف على باطنها ؛ لكنها كانت في حاجة إلى صوت يقوِّيها ويشد أزرها فيؤكد لها أن تلك الطريق التي تسلكها ستفضي بها إلى غايتها الجديدة المنشودة وهي الخلاص عن طريق الحب للألوهية حتى تظفر بالحضرة فيها . فليس بعجب في واقع الأحوال النفسية لأمثال هؤلاء أن يتخيل إليهم أن طائفاً رحمانياً قد طاف بنفوسهم ، وهي في الصراع مع أحوالها في العالم للظفر بالنجاة ، فشد أزرها ومنّاهم بخير المنقلب وعظم العناية ونبل النهاية . فهذا يحدث لكل منا في أبسط أحوال مهاته ومشاغله ، فما بالك ونحن بإزاء المهم الأكبر في حياة الشخص ؟ ! فتلاميذ عمّواس ، وطريق دمشق عند القديس بولس ، ورؤيا أوستيا عند القديس أوغسطين ، ووحى دلف لدى سقراط ، ووحى حراء عند النبي محمد — كلها أمور لا تتأبى على منهج البحث النفساني العلمي إذا ما فهمت على أنها أحوال من الكلام النفسي الصادر عن ازدواج النفس حينما تُلمُّ بها المهمات .

هذه اللحظة في حياة رابعة يجب أن تعد نقطة التطور الحاسمة في حياتها الروحية ، شأنها شأن تلك الأحوال التي أتينا على ذكرها عند أضرابها من كبار

الشخصيات الروحية في العالم . لكنها لا تزال في الأسر المادي لدى ذلك السيد القاسى الذى أرهاقها وأعنتها فكان لهذا الإرهاق والإعنت فضل انفجار روحها الباطنة النبيلة . فكيف تنجو من هذا الأسر ؟

هنا يلجأ العطار مرة أخرى إلى الخوارق ؛ فيزعم أن سيدها استيقظ ذات ليلة ، ونظر من خَوْخَةٍ أو خَصَاص في الباب ، فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول : « إلهى ! أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك ، ونورَ عيني في خدمة عتبتك ؛ ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبَدَتِكَ » . وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يخلق وهو بسلسلة غير معلق ، وله ضياء يملأ البيت كله . فلما أبصر هذا النور العجيب فزع ونهض من مكانه وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وقال : « أى رابعة ! وهبتك الحرية . فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعاً في خدمتك ؛ وإن شئت رَحَلْتِ أُنَى رَغْبَتِ ! » ما أجملها فرصة إذن بالنسبة إلى رابعة ! فما كان منها إلا أن ودَّعته وارتحلت ، ثم انقطعت للعبادة والتقوى .

تلك أسطورة تحريرها من الرِّق ؛ ولن يستطيع المؤرخ إلا أن ينعتها بنعت الأسطورة ؛ والشئ الوحيد الذى يمكن أن نأخذ به منها هو أن رابعة أعتقت ؛ أما كيف ؟ ولماذا ؟ فهذا ما لا نستطيع الوثائق التى بين أيدينا أن تضيف النور عليه ؛ فلندعه نقطة غامضة إلى جانب النقط الغامضة التى لا حصر لها في حياة رابعة .

ثم مَن كان هذا السيد ؟ أكان من آل عتيك ، ما دامت رابعة تسمى مولاة آل عتيك ؟ هذا أيضاً مما لا نستطيع الإدلاء فيه برأى قاطع بَلَّة راجح . صارت رابعة إذن حرة ؛ فلها أن تسلك سبيلها في الحياة أُنَى شاءت . وهنا نلتقى رواية لم يذكرها غير العطار ، راوينا الوحيد عن تلك الفترة ، وهى تقول

إن رابعة اتخذت مهنة العزف على الناي^(١) زمناً ما ، ثم تابت من بعد ذلك وأصلحت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة .

هذه الرواية التي ذكرها العطار ومصرّبها مصرّباً سريعاً لأنها لا تتفق مع الصورة الخيالية التي يريد أن يرسمها لرابعة وهو الشاعر الجامع الخيال ، نريد نحن أن نقف عندها مَلِيّاً لما لها من أهمية خاصة . ونحن نقطع بصحتها لأنه ما كان للعطار أو غيره أن يذكرها لو لم تكن صحيحة ، لأنها ليست مما يشرف به قدرها ؛ وهو وغيره من رواة أخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يزوّقوا ما استطاعوا في ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين .

فنحن نفترض ما يلي : أن رابعة لما اعتقت اندفعت بفضل الحرية التي وهبتها إلى المشاركة في حياة الدنيا ؛ ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التي أمضتها القديسة تريزا الأبيلاوية منذ أن غادرت دير التجسد في أيبلا إلى سنة ١٥٥٥ حين بدأت حياتها الثانية . فانطلقت رابعة تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والإطراب . وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت على حظ من الجمال ، ولعل هذا أن يفسر لنا ما روى من أخبار — لعلها أسطورية — عن تقدم الكثيرين للاقتراح بها . ودعاها إلى اتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فني ممتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد في غير الفن مجالاً للظهور في الدنيا والمشاركة في الحياة . والمشاهد عامة في حياة النسوة اللاتي وهبن قدراً من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قضى عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة . ويحتمل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابس قد اندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد . فهذه المهنة في ذلك العصر كان من غير الممكن

(١) «وگروهی گویند در مطربی افتاد» (العطار ، «تذكرة الأولياء» ، نفرة نيكولسون ،

أن تستقل بنفسها ، ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحاييل التي تنصب لمثيلاتها في هذا المضمار. ويخيلُ إلينا أنها قطعت شوطاً طويلاً في طريق الإثم وغرقت في بحر الشهوات واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها ثابت من بعد ذلك . فهذه التوبة نفسها هي أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة . فالأطراف في تماسٍ كما يقولون ، والاعتدال لا يمكن مطلقاً أن يؤدي إلى التحول الحاسم conversion . فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة في الطرف الأول المُنْقَلَب عنه . فعنف إيمان القديس پولس كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقية لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسية التي حيّتها قبل تحوله إلى الإيمان . إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة المتأزمين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ . وما كان يمكن رابعة أن تتطرف في إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل في فجورها وحبها للدنيا . من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التي تنشر الإيمان في الدنيا بأسرها . لهذا أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

أوغلت رابعة إذن في طريق الشهوة الجامحة ما وسعها الإيغال . ثم ثابت . فكيف ثابت ، وماذا دعاها إلى تغيير طريقها ؟

قلنا إن رابعة قبيل إعتاقها قد امتشert رسالتها الروحية وهي تحت أعباء الرق المهن . لكنها نسيتهما لما أن انطلقت إلى الدنيا الواسعة . لهذا نستطيع أن نفترض أنها إبان انتهائها للذات كانت بين الحين والحين تخلص إلى نفسها وتتذكر تلك الرسالة التي ألهمتها . فكان يطوف بها إذاً بين الفينة والفينة طائف من التائب والتذكير بالطريق السوي . وهذه الفينات خصوصاً هي تلك التي تشعر م ٢ — شهيدة

فيها إما باليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، وإما بأنها قد اندفعت في طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط . فلا شك في أن هذه التنبيهات المتوالية قد أثرت في منطقة الشعور لديها . لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الانقلاب الروحي . وقصارى أمرها أن تكون حالها تلك التى وصفتها القديسة تريزا الأيلاوية إبان محنة صراع الدنيا والدين فى داخل نفسها ، فقالت : « من ناحية كان الله يدعونى ، ومن أخرى كنت أشارك فى الدنيا . أجل ! لقد كنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً ، بيد أن قيود الدنيا كانت لا تزال تأخذ بمُخَنَّقِي ، حتى ليبدو لى أنى قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية بنِغَماتها ، وحياة الحواس بشهواتها^(١) » .

ونمت عوامل أخرى يمكن إدخالها فى تقديرنا : منها إمكان غشيانها بمجالس الوعاظ فى مساجد البصرة ، وبخاصة مجلس الحسن البصرى ، فضلاً عما عساه أن تكون لقيته ، حتى إبان عملها ، من صوفية وزهاد . وهنا نتجاسر على الإدلاء بفرض لاندري بعد مبلغ الصحة فيه ، وهو أن تكون قد التقت يوماً برياح بن عمرو القيسى الصوفى الكبير ؛ ولعله أن يكون قد توسم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرة ، فحملها على أطراح حياتها اللاهية ؛ ولعل فى هذا ما قد يفسر الصلة القوية التى قامت بين كليهما . فقد يكون العطف قد أخذه عليها ، فتمنى لها — وهو صاحب الطبيعة الممتازة — أن تسلك السبيل الذى سلكه هو . ولئن كانت المصادر لا تحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات ، فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد : كانا يقضيان الليل معاً فى بيتها انقطاعاً للتهجد والعبادة . ومثل هذه الأحداث كثيراً

(١) القديسة تريزا الأيلاوية : « حياة » ص ٦٨ ، ترجمة فرنسية ، باريس ، ليكوفر

سنة ١٩٠٤ Ste Thérèse, Vie (trad. Bouix) .

ما تقع في حياتنا : فذو النفس النبييلة إذا ما توسم في إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعان ما يفكر في إنقاذها مما هي فيه . فمن يدري ؟ ! لعل هذا هو ما وقع بين رياح بن عمرو القيسى وصاحبتنا رابعة .

على أن هذا كذلك ليس كافياً في تفسير الانقلاب الروحي عندها ، على الرغم من قوة هذه العوامل . بل لا بد أن يكون قد واكب هذا كُله تجربة يائسة من دنيا الناس ، ولا بد أن نفترض هنا خصوصاً تجربة حبٍ مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . فذكريات الماضي الداعي إلى التقوى والمواعظ مهما يبلغ تأثيرها عن طريق المثل الحى الصديق لا تكفٍ لتفسير ما حدث لديها . فلا مناص إذن من افتراض هذا العامل الثالث الحاسم . فهذه الأسباب الثلاثة مجتمعةً إذن هي التي أدت إلى الانقلاب الحاسم ، بأن عادت إلى نفسها تستلهمها الطريق الذى بدأته ثم تركته لما أن استشعرت نَسَم الحرية في الدنيا ، وإذا بها عما قليل أسيرة شهوات مدمرة وفريسة خيبات أمل تكسرت على روحها العالية فأشاعت قنوطاً لا يبلغ مداه التعبير . هنالك أحست بأن الحرية التي نشدتها ليست في الانطلاق بين ملاذ الدنيا ، فهذه عبودية لعلها أعنف وأشد إرهاقاً من تلك التي كانت فيها . ولعلها سمعت آنذاك قول معاصرها الأكبر منها — وقد كانت قد استبهت تملأ الدنيا في ذلك الحين — ألا وهو إبراهيم بن أدهم لما أن قال : « الحر من خرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها ^(١) » . فالحرية هي « في اصطلاح أهل الحقيقة ، الخروج عن رق الكائنات ومراداتها وقطع جميع العلائق . . . وعلامة الحر سقوط التمييز عن قلبه بين أمور الدنيا والآخرة ، فلا يستره عاجل دنياه ولا آجل عقباه ^(٢) » . نقول : لعل رابعة بتأثير هذا كله قد

(١) أحمد ضياء الدين الكمشخاني : « جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم » ، ص ٢٢ .

القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = سنة ١٩١٠ م .

أفكرت في الحرية الموهومة التي اندفعت فيها ، وما كانت إلا أسراً جديداً لمن له مثل روحها ، أسراً أشد هولاً وقسوة . فلا بد أنها ضاقت ذرعاً بتلك العبودية الجديدة وراحت تتلمس سبيل الخلاص نحو الحرية المنشودة ، الحرية الحقيقية التي تخرجها نهائياً عن رق الكائنات .

وتلك هي السنة الحاسمة النهائية في حياتها ؛ فعندها يتحول الطريق فيتخذ الاتجاه الكامل المضاد . ومثل هذه اللحظات مليئة بألوان القلق والعذاب ؛ إنها الليالي الظلماء الحقيقية في تلك النفوس الكبيرة . فكأن من عودات وتقلبات وترجحات تتوالى فيها ، أحياناً بسرعة البرق الخاطف ! فكانت تتذبذب بين العود إلى الشرارة المقدسة التي أضاءت فترة قليلة ، وبين الاستمرار في هذه الحياة اللاهية الناعمة . ولا بد أن يكون التوتر قد كان في نفسها شديداً كل الشدة في ذلك الحين : لأن الحياة في مدينة البصرة كما عرضناها في أول هذا الحديث كانت تجمع بين الطرفين المتباعدين إلى حد هائل : النعيم الصارخ البالغ أوج الشهوات ، والزهد القائم القاسي المفترّ خدّه بالتراب ؛ الفرحة الزاهية تملأ جوانب الأحياء اللاهية ، والحزن الباكي الدامي بين أشباح المقابر . فلم يكن الانتقال إذاً يسيراً بين الطرفين ، إذ لا مجال للانزلاق الطبيعي الميسور بين الواحد والآخر ؛ بل كان لا بد من حدوث انقلاب مفاجيء سريع فيه يعود الوجود الذاتي على وجوده الأصيل فينتزع نفسه بكل قسوة من السقوط — في — العالم .

فارتدت رابعة إلى نقطة ابتداء خَلْفَتَهَا ، ولسانُ حالها يقول :

تركتُ هوى لَيْلِي وسُعدِي بمِزَلٍ وعُدْتُ إلى مصحوبٍ أوّلِ منزلٍ
ونادتُ بي الأشواقُ : مهلاً ! فهذه منازلُ مَنْ تهوَى ، رُوَيْدُكَ ! فانزِلِ

هنا حدثت التوبة . والتوبة عند رابعة لا تتم بالمجهود بقدر ما تتم بالفضل

من الله . روى القشيري^(١) : « قال رجل لرابعة : إني قد أكرت من الذنوب والمعاصي ؛ فلو تبتُ ، هل يتوب عليّ ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك لتُبتَ » . فهي كانت لا تثق في قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن ذنوبها ، بل كان لا بد لها من رضا الله : فهو وحده الذي يتوب على الناس الخطئين ؛ فلو لم يتب ، لم تتحقق لديهم التوبة . وهي نظرية نجد لها نظائر عدة في التصوف المسيحي ، خصوصاً في كل ما يتصل بفكرة فضل الله *la grâce divine* . ومن هنا يظهر الجانب السلبي القابل في كل طبيعتها ، مما سنراه ظاهراً لديها بكل وضوح . ومن شأن هذا الطابع السلبي أن يزيد من قلقها على نتائج أعمالها . فهي لا تدري مطلقاً ما إذا كانت توبتها مقبولة عند الله أو غير مقبولة ، لأن التوبة ليست فعلاً أو حالاً تحصله بنفسها ، بل توبه هبةً . وبهذا نفسر أقوالها التي تدور حول هذا المعنى ، مثل قولها : « أستغفر الله من قلة صدقي في قولي : أستغفر الله^(٢) » ، أو قولها مرة أخرى : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه^(٣) » . ففي القول الأول تعبير عن شدة قلقها — وقد أُرْهِفَتْ حَسَّاسُهَا في شعورها بالخطيئة — على ما سيكون مآل استغفارها . وفي القول الثاني تؤكد لهذا المعنى مع ذكر الجانب الإيجابي وهو الاستمرار في الاستغفار دائماً ، لأن التوبة ليست حالة ثابتة يمكن بلوغها مرة واحدة ، بل هي في حركة مستمرة ولن يستطيع المرء أن يبلغها طالما كان حياً . وفي هذا يدخل جانب حركي يجعل أحوالها الصوفية في سورة دائمة ؛

(١) « الرسالة القشيرية » ، باب التوبة ، ص ٤٨ القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ = سنة ١٩١٢ م .

(٢) أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ = سنة ٩٩٠ م) :

« التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٦٤ ، نشرة آربري ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

(٣) عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الصوفية » ، مخطوط رقم ٤١٦٤ بالظاهرية بدمشق

ورقة ١٠٤ ب ، وقد أورده ابن الجوزي من قبل في « صفة الصفوة » ص ٤ ورقة ٥٧ ب

مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ ، كما أورده ابن شاکر الکتبی فی « عیون التواریخ » ج ٣

مخطوطة الظاهرية رقم ٤٤ تاريخ ، ورقة ٧ ب تحت أخبار سنة ١٣٥ هـ .

وطابع النقص هذا هو الذى يشعرها بالزمانية المتجددة مما يضى على أحوالها طابعاً وجودياً بارزاً . إن التوبة ليست حالة سكونية *statique* ، بل هى حركية قُويّة *dynamique* . وهذا يزيدنا وضوحاً فى فهم ذلك الجانب السلبي الذى أبرزنا معناه من قبل . فهو لم يقصد به مجرد السلب والقابلية ، بقدر ما قصد به أن يكون مدعاة لإشاعة الحركة عن طريق الصيرورة والتجدد لفعل الاستغفار ، وإدخال الزمانية بواسطة فكرة النقص الملازم لهذه الأفعال . وبهذا ننقذ أحوال رابعة من طابع القابلية المطلقة *quiétisme* كما نفسرها على نحو ديناميكي يمتاز بالحركة والصيرورة . والصوفي الحق ، الصوفي بالمعنى الوجودي ، هو ذلك الذى يعزف عن الرضا لأنه ينطوى على فكرة سلبية خالصة ، فتراه دائماً فى خوفٍ على أعماله . وهذا ما أكدته رابعة مرة أخرى حين « قيل لها : أعملت عملاً ترين أن يقبل منك ؟ » (ف) قالت : إن كان ، فخوفى أن يُردَّ عليَّ^(١) .

ولهذا فتوبة رابعة لم تتم دفعة واحدة ، بل كانت طوال حياتها فى توبة مستمرة ؛ فمن التقصير فى الفهم إذن أن نعدَّ هذه مرحلة فى تطورها الروحي . وكلُّ ما يحق لنا قوله هو التحدث عن ابتداء فعل التوبة ، وإلا فحياتها كلها كانت توبة متصلة . أما كيف بدأت فعل التوبة وعلى أية صورة ، فهذا ما لا تتكفل النصوص ببيانها تفصيلاً ، لأن من العسير تأريخ أقوالها بحيث ننسبها إلى هذه الفترة أو تلك . بيد أننا نستطيع معالجة هذا النقص باتخاذ المعيار التالى : وهو درجة حرارة النبوة فى شكاتها وتضرعها إلى الله أن يغفر لها . والصورة الأولى — وفقاً لهذا المعيار — نجدها فى تلك الشكاة التى تفوهت بها رابعة لما أن رآها ذلك الغريب وفرت منه ، فيما حكاها العطار^(٢) وأشرنا إليه من قبل .

(١) النناوى : المرجع نفسه ، ورقة ١٠٥

(٢) « تذكرة الأولياء » ص ٦٠ و ٦١ ، نشرة نيكلسون .

ثم تعلو هذه النبذة وتتخذ صورة من بقايا حياتها التي تريد أن تكفر عنها بعد أن بدأت التوبة . فلولم تمرّ رابعة بفترة الضلال ، تلك التي انصرفت فيها إلى الدنيا ، وكانت عازقة على الناي تشارك في شهوات الجسد بكل فورتها وعرامتها ، لما رأينا هذه النبذة الجديدة في شكائنا . قالعبارات التي رواها العطار في تلك الصورة الأولى قد خلت من فكرة الحب ؛ ولكن لما أن بدأت التوبة ، كان عليها ، وهي الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر العاطفة الغرامية الحارة . لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمعناه الحسى مرفوعاً إلى الألوهية قد أدخلته رابعة في حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللهو الآثم التي مرت بها . ومن هنا كان توكيدنا لأهمية تلك الفترة التي مرّ عليها الباحثون مع أنها في نظرنا العامل الأكبر في تكييف النظرة الصوفية عند رابعة ، إن لم تكن بمثابة العامل الأوحد .

فمن هذه اللحظة اصطبغت الشكوى إلى الله بصبغة الحب والرغبة في الاتصال بهذا المحبوب الأعلى . ومن الأقوال التي تخلفت لنا عن تلك اللحظة ما رواه صاحب « الروض الفائق في المواعظ والرقائق »^(١) فقال : « حكى عن رابعة العدوية رحمة الله تعالى أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : « إلهي ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » — ثم تقبل على صلاتها ؛ فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهي ! هذا الليل قد أدبر ؛ وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعري ! أقبليت مني ليلتي فأهناً ، أم رددتها عليّ فأغزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتني وأعنتني .

(١) الشيخ الحريفيش : « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ، ص ١١٧ ، طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة ، سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م .

وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك . «
وهذا نص ثمين يصور لنا دقائق أحوالها في تلك الفترة . ويلاحظ عليه أولاً
أنه قد صيغ في عبارة بديعة يسرى فيها عرق شعري ظاهر ، مما كان نتيجة طبيعية
لاشتغالها بالفن عازقة على الناي . فنحن نظن أن العرق الشعري إنما نبض عندها
لما أن اشتغلت بالعزف ، خصوصاً لما يستلزمه من غناء وإنشاد . فالملكة الشعرية
كانت كامنة فيها ، فلما قضى عليها أن تصبح عازقة انبثقت تلك الملكة ، خصوصاً
إذا لاحظنا أنه من غير الميسور أن تقتصر على العزف دون الغناء ؛ فروحنا الشرقية
لم تكن لتستسيغ الموسيقى المجردة لما فيها من تعبير عن اللانهاي ، فضلاً عما للكلمة
في الحضارة العربية من مكانة مقدسة ، لهذا فنحن حتى اليوم لم نستطع في موسيقانا
أن نجعلها مجردة عن كل صوت إنساني ، وهذه ظاهرة لا تحتاج إلى فضل تأييد .
لهذا نرجح إذن أن ابتداء قولها الشعر إنما وقع نتيجة لاحترافها العزف على الناي ،
فتدقق منها منذ ذلك الحين ينبوع الشعر . ولهذا نرى هذا النص يروى بعد ذلك
مباشرة أنها أنشدت :

يا سروري ومُنيتي وعِمادى	وأنيسى وعُـدَّتِي ومُرادى
أنت روحُ الفؤاد ، أنت رجائي	أنت لى مؤنسٌ ، وشوقك زادى
أنت لولاك ، يا حياى وأُنسى !	ما تشئتُ في فسيح البلاد
كم بدت مِنَّةً ، وكم لك عندى	من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن يَفِيتى ونعيمى	وجلاء لِمَين قاي الصادى
ليس لى عنك — ماحيتُ — بَراحُ	أنت مِنى مُمكنٌ في السواد
إن تكن راضياً عَلَى فائى	يامنى القلب ا قد بدا إسعادى ^(١)

والطابع الحسى ظاهر بكل جلاء في هذه الأبيات ، ويلوح منها أن الأمر

(١) الشيخ الحريش : «الروض الفائق» ص ١١٧ . طبع القاهرة سنة ١٣٠٤هـ = سنة ١٨٨٦م

كان لا يزال مختلطاً عليها لأن الخطاب هنا يصلح أن يتجه إلى شخص حسى كما يصلح — بصعوبة — أن يتجه إلى الله . ماذا أقول ! بل هى فى هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لها يلوح أنه كان متنقلاً فاضطرت هى — تحت ستار الترحل لكسب العيش بالعرف ، كما هى الحال بالنسبة إلى الموسيقيين عامة فى تجوالهم لإحياء حفلات فى مختلف البلدان — أن تلاحقه فى الأماكن التى كان ينتقل بينها ، لهذا اضطرت للتشتت فى فسيح البلاد . فعمل ذكرى هذا الحبيب — الذى يمكن افتراض أنه كان العلة فى إحداث خيبة الأمل عندها فى الحب والناس — قد اختلطت فى ذهنها آنذاك ، فعبّرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجّهاً إلى الله . ذلك أنها إن تستطيع أن تتحدث عن حبها لله إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عانتها . وتلك كانت تجربتها العنيفة الحية . فحدثت هنا ظاهرة القلب للموضوع ، مما يحدث دائماً فى أمثال هذه الأحوال ، إذا كانت العبارة مغلصة وليس مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة . ولهذا فإذا صادف المؤرخ إخلاصاً فى التعبير عند الصوفى ، فيجب عليه دائماً أن يفترض وجوب تجارب حية صدر عنها ، فقلّب موضوعها من المحسوس الإنسانى إلى الكائن الأعلى الإلهى . ويمكن تأريخ ما يدخل فى هذا الباب وفقاً لتضالّل التعبير الحسى الظاهر وتزايد التعبير المجرد الباطن ، ولهذا فنحن لأنرى مانعاً أولاً من أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى رابعة — فليس ثمت استحالة مادية تقف دون هذا ؛ ونرى ثانياً أنه لا بد أن ينتسب إلى فترة الانتقال المباشرة بين عهد الضلال وعهد الإنابة والتوبة .

كل هذا من حيث الصورة . والأمر من حيث المادة يؤكد تلك النتائج . ففى تذكر الإطار الغرامى الملائم : هدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، لأنها طاماً ألقت هذا الإطار الشعرى الرائع فى أيام غرامها الآثم ؛ وهذا يدلنا على أنها

حديثه عهد به ، وأنها لا تزال تحنُّ إليه في أعماق نفسها ، واعلمها تذكرت لياليها
الحُرَّ بين مخارف النخيل على ضفاف الأُبُلَّة ، وقد غَفَلَتْ عيونُ الرقباء من الناس
ومن الشرطه خاصة كما يتبين في عبارتها ذات الدلالة الكبيرة هذه : « وغَلَقَتْ
الملوكُ أبوابَها » ، أى اختفى سلطان الحاكم ، ففي وسعها أن تختلئ بحبيبها تساقيه
ما تود من اللذات المحرَّمة . وتأمل خصوصا الشوق المتحسّر في قولها : « وخلا
كلُّ حبيبٍ بحبيبه ! » ففيه قُشْعْريرة قلبٍ طالما نَعِمَ بهذه اللحظات العالية ! أتراها
نادمة في قولها هذا ؟ كلا ، بل هي قلقة لا تزال موزعة الأهواء بين الدنيا والآخرة ،
وحبيبها الجديد لا يزال بمنأى عنها لأن الطريق إليه شاقة طويلة ؛ وها هي ذى
تنضرع إليه فتقول : « وهذا مقامى بين يديك ! » أية لوعة في هذه العبارة النارية !
وأية صورة فائنة تستثيرها في الخيال !

لقد بدأت رابعة تستشعر الحب لله ؛ وإنه لينمو وتواكبه مشاعر مختلطة ، لعل
من بينها ومن أقواها الشعور بأنها نذرت نفسها لهذا الحب الأسمى ، وعمّا قليل ستُعْلَن
خِطْبَتُها إليه ، ولعل ذلك أن يفضى في النهاية إلى الزواج الروحى بينها وبين الله .
إنها لم تبلغ بعدُ تلك المرحلة من التفكير في الاقتران بالله ؛ ولا بد أن تأتى
حَيَّوْنَة — صديققتها الهائمة في أودية العشق الأتَمَّ *consommé* ، فتنبهها إلى هذا
المعنى . ذكر أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابورى^(١) أن رابعة زارت حَيَّوْنَة ؛
« فلما كان جوفُ الليل حَمَلُ النوم على رابعة ؛ فقامت إليها حَيَّوْنَة فركلتها برجلها
وهي تقول : قومى ! قد جاء عُرْسُ المهتدين . يامن زَيْنَ عرائس الليل بنور التهجُّد ! »
وهذا نص على أكبر درجة من الخطورة لأنه يتحدث عن وجود فكرة
الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى : « عقلاء المجانين » ، نشرة وجيه
الكيلاوى ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ م .

أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ابتداءً من القديسة تريزا الأيبلاوية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون . وإذا كنا لانستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيات المسلمات فى القديسة تريزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وندع هذا النص جانبا الآن ، ونعود إلى النص السالف ، فراها بعد أن تقبل على صلاتها حتى مطلع الفجر تسأل الله هل قبل منها ليلتها قتها ، أم ردها عليها فتأبى . وإنها لتعاهد الله على أن تكون راضية بكلتا الخصلتين : فسواء لديها أقبل الله أعمالها أم لم يقبلها ، فستلح وتناضل ، لأنها تجد فى هذا الجهاد النفسى وحده معنى حياتها ، ولا عليها إن كُلل بالقبول أو لم يكُلل . ولذا تقول بعبارة ثم عن إخلاص لا حدة له فى العبادة : « وعزتك ! لو طردتنى عن بابك ، ما برحتُ عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك » . وهنا يتجلى التواضع عندها بأجلى صورته . وما أبعد الفارق بينها وبين الحلاج مثلاً لما أن قال : « يا أهل الإسلام ! أغيثونى ! فليس (أى الله) يتركنى ونفسى فأنسَ بها ، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيعه^(١) » . ففى هذه النبذة من الادعاء والكبرياء ما لا يتفق وروح رابعة ، على الأقل فى الفترة التى لا تزال بصدددها . فالدلال فى هذه العبارة الخلاجية هو بالأحرى من جانب الحلاج على الله ، أما رابعة فالله هو الذى يتدلل عليها ، لذا تدعوه وترجوه بكل خشوع وذل وضراعة . وتلك هى الدرجة العليا فى الصلة بين العبد والرب ، فى صلة الحب الحقيقية التى لا تستلزم تبادلاً وإلا صارت إلى حال من السكون هو والموت سواء . إنما الحب الحق هو ذلك الذى يتألم فيه أحد الطرفين دون أن ينال شيئاً ، لأنه إذا تم التبادل فسد معنى الحب . وهذا

(١) ماسينيون وكراوس : « أخبار الحلاج » ، تحت رقم ٣٨ . باريس سنة ١٩٣٦ .

أمر قد فصلنا القول فيه في موضع^(١) آخر فلا مجال بعدُ لفضل بيان . ورابعة هنا تريد أن تؤكد هذا المعنى بكل قوة ، وفي توكيدها له تريد أن تدلّ على معنيين : الأول النزاهة المطلقة في صلة الحب بحيث لا يُقصد من ورائه جزاء ، ولا حتى مجرد التبادل فيه ؛ الثاني أن الحب الصحيح هو ذلك الذي يستبعد كل تبادل . وكأنها كانت تريد من الله أن يقول لها ما قالته فيلين في « قلهم ميستر » لجيته : « إذا كنتُ أحبك فهل هذا يعنيك ؟ »

ولكى نزيد هذا المعنى في نص رابعة إيضاحاً وبروزاً نود أن نضع إلى جواره نصاً آخر لصوفي كبير هو أبو سليمان الداراني (المتوفى سنة ٢١٥ هـ = سنة ٨٣٠ م) يكاد أن يتشابه مع نص رابعة في بعض حروفه ، لكن اشتان ما بين المقصود في كل منها ! قال القشيري : « حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَارِيزْمِيِّ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ وَهُوَ يَبْكِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا يَبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَحْمَدُ ! وَلِمَ لَا أَبْكِي ، وَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ وَنَامَتِ الْعَيُونُ وَخَلَا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ وَافْتَرَشَ أَهْلُ الْحُبِّ أَقْدَامَهُمْ وَجَرَّتْ دُمُوعُهُمْ وَتَقَطَّرَتْ فِي مَحَارِبِهِمْ ، أَشْرَفَ الْجَلِيلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — فَنَادَى : يَا جَبْرِيلُ ! بَعْنِي مِنْ تَلَذُّذِ بَكْلَامِي وَاسْتِرَاحِ إِلَى ذِكْرِي ، وَإِنِّي لُمُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ فِي خُلُوتِهِمْ أَسْمَعُ أُنِينَهُمْ وَأَرَى بَكَاءَهُمْ ؛ فَلِمَ لَا تَنَادِي فِيهِمْ يَا جَبْرِيلُ : مَا هَذَا الْبَكَاءُ ؟ هَلْ رَأَيْتُمْ حَبِيباً يَعَذِّبُ أَحْبَاءَهُ ؟ أَمْ كَيْفَ يَجْمَلُ بِي أَنْ أَخَذَ قَوْمًا إِذَا جَنَّتْ لَيْلُهُمْ تَمْلُقُوا لِي ؟ فَبِي حَلَفْتُ أَنَّهُمْ إِذَا وَرَدُوا عَلَى الْقِيَامَةِ لَا كَشْفَنَ لَمْ عَنْ وَجْهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيَّ وَأَنْظُرَ إِلَيْهِمْ »^(٢) . فهنا نرى الداراني يلجأ إلى أمثال هذه الأحاديث القدسية التي بدأ الصوفية في إذاعتها على أنها من وحى الله لهم^(٣) كما يجد عزاءً في تبادل الحب بين الله وبينه هو ومن

(١). راجع كتابنا : «الزمان الوجودي» ، ص ١٤٦ . القاهرة سنة ١٩٤٥ .

(٢). «الرسالة القشيرية» ص ١٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٠ .

(٣). راجع : ماسينيون : «بحث في نشأة المصطلح الفني للصوفية في الإسلام» ، باريس سنة ١٩٢٢ .

على شاكلته من أهل المحبة . وفي هذا نجد تراجعاً عن ذلك المعنى الجليل الصافي الذي أعطته رابعة للحب الإلهي .

وهذا كله فضلاً عن معاني القلق والاضطراب واللهفة التي تشيع في عبارات رابعة في ذلك النص ، مما يصف حال العاشق القلق أدق وصف . على أن فكرة الحب لم تكن بعد قد اتضحت في نفس رابعة ، إنما هي معانٍ امتلأت بها نفسها ولما تَسْتَحِلُّ إلى صورة عقلية بادية الأسارير .

— ٤ —

بدأت رابعة إذن في التوبة ، وفتحت صفحة جديدة من حياتها الروحية هي مزيج من القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الجديد الذي اتخذته لنفسها .

فإذا حاولنا تعرّف العناصر الجديدة في حياتها وما اتخذته من وسائل للسير في الطريق إلى الله لم نعتز إلا على أخبار متناثرة ، سنحاول مع ذلك ، جهدنا ، أن نستخلص منها ما قد يجلو هذا الجانب .

أما الأدوات التي اصطنعتها فهي التهجد وقيام الليل : تصلي وتدعو وتقرأ ما تيسر من آي القرآن . ثم استذكار الموت .

فكل المصادر تجمع على أنها كانت تقوم الليل كله . قال ابن الجوزي في « صفة الصفوة » بعد سلسلة من الأسانيد تنتهي عند عبدة بنت أبي شوال ، وكانت من خير إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : « كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر ، هجعت في مُصَلَّاهَا هجمة خفيفة حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدتها ذلك وهي فرزة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

قالت: فكان هذا دأبها، دهرها، حتى ماتت»^(١). ويلوح أنها كانت حريصة كل الحرص على هذا التهجد. ويدل على هذا أنها ما كانت تنقطع لحظة عنه حتى تشعر بالزواج تترى عليها لتردها إلى سالف سُنَّتْها. ولعل أبلغ دلالة على هذا ما رواه صاحب «مصارع العشاق»^(٢) من أنها كانت قد انقطعت عن قيام الليل إثر علة، فرأت في منامها حُلماً مغزاه أنها بانقطاعها عن الليل قد جرّت عليها غضب السماء وكادت تفقد بهذا ما حصلت من قبل بتهجدها. ولهذا أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة إبان هذه الرؤيا وقد رأت انصراف الوُصفاء عنها تؤنبها بهذه الآيات:

صلاتك نورٌ والعباد رقودٌ ونومك ضد للصلاة عنيد
وعمرُك غمٌّ إن عقلتِ ومَهْلَةٌ يسيرٌ ويفنى دائماً ويبيد

ثم غابت عن بين عيني؛ واستيقظت حين تبدى الفجر. فوالله ما ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرت نفسي. قال: ثم سقطت رابعةً مغشياً عليها». ورابعة في هذا لم تكن تفعل غير ما سنه القرآن وأتت به السُنَّة وسار عليه الصحابة والتابعون. فالآيات التي تحت على قيام الليل عديدة منها: «والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً» (الفرقان: ٦٥)؛ «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» (السجدة: ١٦)؛ والأحاديث لاتكاد تحصى مثل: «عليكم بقيام الليل فإنه من رضاء لربكم، وهو دأب الصالحين قبلكم؛ ومنهاة عن الإثم؛ وملغاة للوزر؛ ومُذهِبُ كيد الشيطان؛ ومَطْرَدَةٌ للداء عن الجسد». وبالغ التابعون في هذا حتى ليزكر

(١) ابن الجوزي: «صفة الصفوة» ج ٤ ص ٥٨ ب، مخطوط الظاهرية برقم ٦٧ تاريخ. وأورده ابن خلكان: «وفيات الأعيان» ج ١ ص ٢٥٦، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م، وابن تقي بردي: «النجوم الزاهرة»، ج ١ ص ٣٣٠، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩.

(٢) أبو محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج القارى: «مصارع العشاق»، ص ١٣٦، طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م.

عن أربعين منهم أنهم كانوا يُصَلُّونَ الغداة بوضوء العشاء ، منهم سعيد بن المسيَّب والفضَّيل بن عياض وهيب بن الورد وأبو سليمان الداراني وأبو حنيفة ، وهم جميعاً ينتسبون إلى عصر رابعة ؛ فعادة قيام الليل إذن كانت منتشرة عند كل الصالحين سواء أكانوا من أهل الطريق فعلاً أم لم يكونوا . وإنا لنجد كثيراً من المؤلفين في التصوف يكرسون فصولاً طويلاً لمسألة قيام الليل ، ولندكر على سبيل المثال صاحب « عوارف المعارف » الذي عقد أربعة أبواب لقيام الليل^(١) .

وكان قيامها الليل إما مفردة وحيدة أو مع أصحابها وصواحبها . أما أصحابها فمن بينهم سفيان الثوري فيما رواه العطار فقال : « قال سفيان الثوري : كنت عند رابعة ذات ليلة . فصلت حتى مطلع الفجر ؛ وصليت أنا كذلك . وفي الصباح قالت : علينا أن نصوم اليوم شكراً على هذه الصلوات التي أقمناها الليلة^(٢) » . وهو يروى كذلك حدثاً مشابهاً مع الحسن البصري يقول فيه : « يروى أن الحسن البصري قال : بقيت يوماً وليلة عند رابعة نتحدث عن الطريق وأسرار الحق بحرارة بلغت حداً نسينا معه أنني رجل وأنا امرأة . فلما فرغنا من الحديث شعرت بأنني لم أكن إلا فقيراً ، بينما هي كانت غنية بالإخلاص^(٣) » . وهذه الرواية لا يمكن أن تكون صادقة من الناحية التاريخية في نظرنا لأنها تجمع بين الحسن البصري ورابعة ، ونحن ممن يرجحون أن تكون وفاتها سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ لسنة ١٣٥ هـ كما يود أولئك الذين يريدون أن يجمعوا بينهما حتى يفسروا ورود أخبارها مع الحسن البصري — وسنرى أدلة ترجيح رأينا بعد حين . ولذا سنرفض كل ما يروى من أخبار لرابعة مع الحسن البصري . وإنما صيغت هذه الرواية ، كما صيغ أمثالها ، من أجل التمجيد لكتاهاتين الشخصيتين الكبيرتين .

(١) من ٤٥ إلى ٤٨ ، ص ٢٥٠ إلى ص ٢٦٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

(٢) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، (راجع بعد) نشرة نيكولسون .

(٣) المرجع السالف .

على أننا نستطيع مع ذلك أن نستخلص من هذا الخبر أنها كانت تَمْضَى الليل أحياناً بصحبة بعض الصالحين . أما الصواب فقد روت لنا المصادر من بينهم حيونة^(٣) — كما أشرنا إلى هذا من قبل — وهي التي يذكر عنها في هذا الخبر أنها كانت أقدر على قيام الليل من رابعة .

على أنه يلوح أن رابعة لم تكن تقوى على الاستمرار في هذا التهجد ، خصوصاً لما بالغت في الزهادة فهزل بدنّها وضعفت مُنْتَهَا فلم تعد تقوى على السهر الدائم . وآية ذلك ما روى عن أخبار بعض اللصوص معها ؛ هذا إن صحت هذه الأخبار ، وإن كان الأرجح أنها من نسج خيال القصاص استنباطاً للبرة في هذه الأحداث التي جرت لها معهم أو بياناً لكرامات لها أرادوا نسبة وقوعها إليها .

ذلك فيما يتصل بالتهجد الذي كان يُقضى في قراءة القرآن وذكر الله . لكننا لانستطيع أن نعرف بالتفصيل من أى شيء كان يتكون هذا الذكر . فالسمع بالمعنى المعروف بعد ذلك عند الصوفية لم يكن قد نظم على هيئة حلقات ، إذ أن أول حلقة للسمع أنشاها صديق للسريّ السّفطيّ (المتوفى سنة ٢٥٣ هـ) في بغداد ، وهو على التنوخي . أما مجالس الذكر فكانت قد أنشئت ، منها مجلس الحسن في مسجد البصرة الجامع ، ومنها مجلس الذكر الذي أقامه عيسى بن زاذان في الأبلّة حوالي سنة ١٢٠ هـ . ولا بد أن يكون الذكر قد تطور في هذه المجالس فلم يعد يقتصر على مجرد تكرار اسم الله وما يشابهه من الصيغ البسيطة ، خصوصاً ونحن نعلم أنه قد بدىء بإقامة رُبُطٍ ، فكان أول رباط أنشئ حوالي سنة ١٥٠ هـ في عبّادان على يد تلامذة عبد الواحد بن زيد ، صديق رابعة ، وهو الرباط الذي ظفر بشهرة واسعة حتى كانت للصلاة فيه فضيلة وميزة ، ويلوح أن الزنج في ثورتهم هم الذين

(١) : أبو القاسم النيسابوري : « عقلاء المجانين » ، ص ١٢٨ ، دمشق سنة ١٩٢٤ .

هدموه سنة ٢٦٠هـ^(١) فلا بد أن تكون قواعد الذكر ، ولو في صورة أولية ، قد صيغت وتطورت في هذا الرباط ، ولا بد أن تكون رابعة على صلة بما يجري فيه : أولاً لصلتها بعبد الواحد بن زيد شيخ الذين أنشأوه ، وثانياً لكونه في عبّادان أى في ضواحي البصرة ، فمن الطبيعي أن تكون على صلة به ، وإن كانت لم تدخله مرابطة ، لأن الأخبار لا تحدثنا عن نزولها به ، ولعل وصفها امرأة لم يكن يجوز لها الاتصال به ، كما أن الأخبار لم تحدثنا عن نزولها بغير بيتها الذي أتينا على وصفه في مستهل هذا الحديث ، اللهم إلا أن نفترض في هذا « الكوخ » نوعاً من الصومعة أو الدويرة ، وهو افتراض لا ينهض لأن صلاتها العديدة برجال عصرها تنفي عنه هذه الصفة ، فضلاً عن أن أخبارها تتحدث عن جيرة لها ؛ فمن المستبعد أن يكون « كوخها » هذا صومعة أو دويرة بالمعنى الحقيقي . إنما عكفت على نسكها وانقطعت للعبادة في بيتها بالبصرة ؛ ونميل إلى تحديد مكانه في القسم الغربي من المدينة ، بعيداً عن الحى اللاهى الذى هجرته مادامت هجرت نوع الحياة فيه .

أما الأداة الأخرى التى كانت تستخدمها للتواجد فهي كما قلنا استذكار الموت . ولهذا اتخذت مشجب قصبٍ طوله من الأرض قدر ذراعين عليه أكفانها كما تتأمله على الدوام فتتعظ بكل المعانى التى تتضمنها فكرته ، وتجتنب أحوال الخوف والفرع والإغماء والبكاء التى كانت تستدعيها إمعاناً في الضراعة . ويلوح أنه كان له أثر شديد في نفسها : فيه كانت تستدعى البكاء مبتهلة ومصلية . قال المناوى : « وكان كفنها لم يزل عندها ، ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء^(٢) » . ولقد كان عصرها عصر بكائين ، خصوصاً أصدقائها مثل

(١) راجع في هذا كله : ماسينيون ، « بحث في نشأة المصطلح الفنى للتصوف في الإسلام ،

من ١٣١ و ١٣٦ ، باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الصوفية » ورقة ١٠٥ ا — ب ، مخطوط بالظاهرية

برقم ٤١٦٤ عام .

رياح بن عمرو القيسي الذي « كان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرُك في ماتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا^(١) » . ولعل الحسن البصري قد كان من أول الذين بدأوا هذه السلسلة الحافلة من البكائين الذين زخر بهم القرن الثاني للهجرة في مدينة البصرة . ويلوح أن انتشار هذا البدع إلى أبعد حد هو الذي حال بين رابعة وبين التجديد في هذا المضمار . فلقد كان ينتظر منها — وقد كانت عازفة — أن تستعين في التواجد بأدوات السماع ، لكن يظهر أن طبيعة العصر — بما طبع عليه من قسوة وميل إلى الحزن والبكاء والصراخ والإغماء وبالجملة كل ما يتصل بالأحزان والغم — قد فرض عليها فرضاً أن تتابع الشئنة الجارية والعادة المتبعة ، وإلا كانت في خطر ألا ينظر إلى أعمالها على أنها تندرج في باب التقوى . ويبدو كذلك أنها لم تكتفِ باتخاذ ما كان جارياً ، بل بالغت فيه كما تفيض بهذا أخبارها وأحكامها على زهاد عصرها . فهي كانت تسمى عبد العزيز بن سليمان الراسبي ، من الطبقة السادسة من تابعي أهل البصرة ، باسم سيد العابدين ، وهو قد « كان إذا ذَكَرَ القيامة والموت صَرَخَ كما تصرخ الثكلى ويصرخُ الحاضرون آمن جوانب للمسجد ، وربما وقع الميت والميتان من جوانب المسجد^(٢) » . فيشبه أن يكون تقديرها له كل هذا التقدير إنما كان لإفراطه في البكاء والصراخ والفرع من الموت .

على أننا لا ندري إلى أي مدى أثر تأمل الموت هذا في تكييف حياتها وتصوير نظرتها في الوجود . إذ يلوح أن الأمر لم يكن يتجاوز الجانب العاطفي دون أن

(١) النواوي : المرجع السابق ، ورقة ١٠١ ب .

(٢) راجع : ابن تغري بردي : « النجوم الزاهرة » ، ج ٢ ص ١٥ س ١٤ س ١٥ ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ ، تحت سنة ١٥٠٠ هـ التي توفي فيها عبد العزيز الراسبي . هذا . وهو ينقل هذا الخبر عن أبي الظفر عبد الرحمن ابن الجوزي في « مرآة الزمان » .

يتحول إلى تفكير نظري فيما ينطوى عليه معنى الموت ، أو على الأقل ليس لدينا من الأقوال ما يبين لنا عن نتائج تأملها في الموت والفناء . فكانت تستعينه لمجرد استدعاء الأحوال الوجدانية ، مما كان يولد في نفسها خوفاً هائلاً . وإلى هذه الفترة يجب أن نعزو ما ينسب إليها من أوصاف وأقوال تتصل بالخوف وخشية النار والشعور بالعدم . قال النابوي : « وكانت شديدة الخوف جداً . فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها ^(١) » . وهي أقوال لا تتفق مع الأقوال الأخرى التي تنسب إليها عن نظريتها في النار . ومعنى هذا أننا الآن بإزاء مرحلة التكوين في نظرتها الجديدة في الحياة الصوفية .

ومرحلة التكوين هذه ، في هذه النقطة كما في السابقة (أى في التهجيد وقيام الليل وفي تأمل الموت) ، إنما كانت لا تزال فيها تسير على سُنَّة العصر ، بل والجيل الذي قبله ، فعند الخوارج كما عند بقية الصالحين نجد هذه الأحوال كلها . إن رابعة لم تكتشف بعدُ طريقها الحقيقي . ذلك عهد الطلب عندها .

أما عهد التنقل فقد بدأ لما أن ذهبت إلى الحج . متى تم هذا وكم كان عمرها ؟ هذا ما لا تكشف الوثائق عنه . على أنه لا يمكن أن يتعدى هذه المرحلة المباشرة لوقت التوبة ، لأن فريضة الحج بالنسبة إلى الصوفي من الفرائض الضرورية في مستهل الحياة الروحية . على أن حجها كان في البدء لمجرد إتمام الواجبات الدينية ؛ ولا يمكن أن نفترض في حجاتها الأولى أنه وقع لها تلك الكرامات المزعومة التي تنسب إليها في عدة روايات .

إنما يلوح أن معنى الحج قد تطور في نفسها شيئاً فشيئاً ستة بعد ستة ،

(١) النابوي : « طبقات الصوفية » ، ورقة ١٠٤ ب .

فتضاء الجانب المادى وازداد الجانب الروحى المجرد . ولن نستطيع أن نتابع مراحل هذا التطور ونرسم له المنحنى بالدقة ، خصوصاً لأن الروايات الخاصة بحجها توغل فى أعماق الأساطير ، لأنها تتعلق بكرامات وقعت على يديها ، مثل ما رواه العطار^(١) من أنها ارتحلت ذات يوم إلى الكعبة ومعها حمار يحمل متاعها . فنفق الحمار فى الطريق ، فقال أصحاب القافلة : منحمل متاعك على دوابنا . فقالت رابعة : ما كان اتكالى عليكم لما أن رحلت ؛ بل ثقى بالله تعالى . فارحلوا إذن وخدمكم . فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله وهى تقول : « إلهى ! أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، وها أنت ذاتدع حمارى ينفق فى الطريق وتدعنى فى الفياق وحيدة ! » . فما أتمت هذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة .

تلك وأمثالها من الروايات القائمة على الكرامات لا يمكن أن نقيم لها وزناً . لكن يمكن أن نأخذ منها أن رابعة كانت لا تزال تغدو إلى الحج على دابة . وثمت روايات أخرى تقول إنها ذهبت وهى تتقلب على أضالعها . قال العطار^(٢) أيضاً : « روى الشيخ أبو على الفارمذى^(٣) أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء ، وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة فى سبعة أعوام » . ولهذا يجب أن نفترض — على صحة هذه الرواية — أنها قد انصرفت عن اتخاذ المطايا وهى غادية إلى الحج . لكن هذا يجب أن ينسب إلى دور متأخر لما أن دخلت فى دور الزهادة الكاملة .

ونتابع فى هذا الموضع تطور معنى الحج عندها حتى آخر حياتها على افتراض

(١) فريد الدين العطار . « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٦١ نسخة نيكولسون .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٢

(٣) هو أبو على الفضل بن محمد الفارمذى تلميذ أبى القاسم القشبرى وأستاذ الغزالى . راجع عنه ماورد فى كتابنا : « شخصيات قلقة فى الإسلام » ، ص ١٤٠ تعليق .

أن ذلك كان في توازٍ مع تطور حياتها الروحية نحو زيادة التجريد والتنزيه والعزوف عن الدنيا والتجرد عن كل ما فيها. ونستطيع أن نقسم هذا التطور إلى ثلاث مراحل: فالرحلة الأولى كانت فيها تؤدي تلك الفريضة كما يؤديها بقية الناس ، ولا تكاد ترى في الحج إلا ما يراه المسلم العادي من التبرك بزيارة البيت العتيق وقبر الرسول واستعادة آثار الإسلام الأول وإحياء معاني الإيمان الوليد ليزيد المرء إيمانا وتقى ، فضلاً عن فوائد الاجتماع بالناس وما إلى هذا مما يعرفه الناس العاديون للحج من فوائد . وهي إذن لم تكن تفعل إلا ما يفعله بقية الناس ولم تهَبْ الحجَّ بعدُ معنى روحياً خاصاً . ولهذا تقع هذه المرحلة في العهد التالي لتوبتها مباشرة ؛ ويجوز أن تكون هذه المرحلة قد امتدت سنوات يقدر عددها بمقدار تعلقها بعدُ بالأوضاع الحسية في الدنيا ، أي أنها تقع في عهد الطلب والتنقل الأول . وهي كانت لا تزال ترى أن للقيام بالحج ثواباً شرعياً كبقية أركان الدين . ولعل مما يمكن نسبته إلى هذا الدور قولها : « إلهي ! وعدت بجزاءين لأمرين : القيام بالحج والصبر على الشدائد . فإن لم يكن حجّي صحيحاً مقبولاً عندك ، فياويلتاه وما أشد هذه المصيبة عندي ! لكن ماجزاء هذه المصيبة ؟ » ^(١) . فهذه صرخة من أعماقها تدل على أنها لا تزال تحرص على المعنى الحسي المادي في الحج .

ثم كانت المرحلة الثانية لما أن بدأت تؤدي الحج على قدميها أو متقلبة على أضلاعها وما إلى هذا من أنواع التعذيب التي يرى الصوفي أنها ضرورية لمضاعفة ثواب الحج . فإبراهيم بن أدهم يحكي عنه أنه أمضى أربعين سنة في حجة واحدة لأنه كان في كل خطوة يصلي ركعتين . وكان يقول : « غيري يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسي » ^(٢) . ومع إسقاط عنصر المبالغة الضرورية

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٦٢ .

(٢) العطار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

في مثل هذه الأحوال — طبعاً في هذه الرواية ! — فإنها يمكن أن تشير مع ذلك إلى أن الصوفية كانوا يَفْتَتِنُون في التعذيب لأنفسهم وهم بسبيل الحج حتى يزداد الأجر ويضاعف الثواب . والطار يروى هذا الخبر ليربطه بكرامة أخرى لرابعة وهي أن الكعبة قد ذهبت بنفسها للقاء رابعة واستقبالها ، ولهذا لم يجدها إبراهيم ابن آدم في مكانها بعد هذا الجهد الشاق كله !

أما وقد ارتفعت حرارة إيمانها وازدادت شعوراً بنفسها بفضل هذه المجاهدات التي فرضتها على نفسها وهي بسبيل الحج ، فقد كان من الطبيعي أن يعلو معنى الحج في نفسها . فبعد أن كانت في المرحلة الأولى تطلب الكعبة لرؤية الكعبة ، صارت تداعبها الآن فكرة طلب الكعبة لرؤية رب الكعبة . روى الطار^(١) فقال : كانت رابعة في طريقها إلى الكعبة ذات يومٍ ، فبقيت وحدها في الصحراء ، وشعرت الوحشة فصاحت : « إلهي ! إن قلبي ليضطرب في هذه الوحشة . أنا لَبِنةٌ والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ! » فنادها صوت من عند الله تعالى يقول : « يارابعة ! أتطلبين وحدك ما يقتضي دم الدنيا بأسرها ؟ إن موسى حين رام أن يشاهد وجهنا ، لم نُلَقْ إلا ذرة من نورنا على جبلٍ فَخَرَّ صَعِقاً » . في هذه الرواية نرى رابعة تتحدث عن الكعبة على أنها حجر فحسب ، أي أنها بدأت تتخلص من التلبس بالمعنى الحسّي في الحج . والرواية الأخرى التي يرويها الطار نقلاً عن الشيخ أبي علي الفارمذي فيما يتصل بتقلبها على أضلاعها سبعة أعوام يمكن أن تندرج تحت هذا المعنى عينه . فهي في هذه المرحلة الثانية إذاً قد جردت الكعبة عن مادتها وأبقت لها معناها . وهي لا تزال تؤمن بفائدة الحج إليها . أما في المرحلة الثالثة والأخيرة فقد زال كل معناها وعادت لا ترى للكعبة معنى . ذكر الطار قال : « يروى أن رابعة كانت بسبيل الحج فرأت الكعبة قادمة

(١) « تذكرة الأولياء » : ج ١ ص ٦٢ — ص ٦٣ .

نحوها عبر الصحراء ، فقالت : « لأريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ ! » ولم تشأ أن تنظر إليها ^(١) . هذه فكرة على أكبر درجة من الخطورة ، إن صحت الرواية التي أوردتها العطار ، وليس بمستبعد أن تكون صحيحة ، فهي نفس الفكرة التي لعبت دوراً خطيراً في مذهب الحلاج وكانت من بين أسباب تكفيره ثم صلبه . ذلك أن الحلاج بعد أن حج للمرة الثالثة والأخيرة اعتقد « أن شوقنا إلى الله يجب أن يحو عقلياً في نفوسنا صورة الكعبة كما نجد « مَنْ » أقامها ، وأن نحطم معبد بدننا كما نبغ « مَنْ » جاء إليه ليتحدث إلى بنى الإنسان » ^(٢) .

فما هي ذى رابعة قد اتَّحَتْ في نفسها صورة الكعبة لأنها تريد أن تجد من أقامها . وبهذا تطور المعنى الحسى للحج فأصبح مجرد مناسبة لرؤية الله ، بل صار في وسعها أن تستغنى نهائياً عن هذه القريضة لأنها ستجد الله في نفسها ، فما حاجتها بعدُ إلى مشاهدته عند الكعبة ! وهذا كله كانت توأكبه عملية التنزية المستمر والتجريد المتصل في فهمها لسائر معاني الحياة الروحية .

ولعل هذا التطور في التنزية والتجريد قد بلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية قال : « قال على الحريري : قيل عن رابعة إنها حُجَّت فقالت : هذا (أى البيت الحرام) الصنمُ المعبود في الأرض ، وإنه ما وَجَّهَهُ اللهُ ولا خلا منه » ^(٣) . وهذا يؤيد الرواية التي ذكرها العطار ، وفيه من الجرأة في التعبير قدر هائل يدل على مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لانجدها نظيراً في هذا القرن ولا في الذي يليه عند الصوفية ؛ ولعله لم يظهر بوضوح لأول مرة إلا ابتداءً من الحلاج . كيف لا ، وهي ترى في

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) ماسينيون : « المنحى الشخصى لحياة الحلاج » في كتابنا « شخصيات قلقة في الإسلام » ص ٦٨ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٣) ابن تيمية : « الرد على الحريرية » ، ورقة ٩١٠٦٥ (أوردته ماسينيون في : « مجموع

نصوص غير منشورة خاصة بالتصوف الإسلامى » ، ص ٨ برقم ٨) .

الكعبة صنماً وفي التبرك بها وثنية؟! إن بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية في الحياة الدينية خطوة واحدة سنراها عما قليل تخطوها بثبات جنان لتوافر ثقتها بنفسها كلما أوغلت في الطريق إلى الله .

منذ ذلك الحين ورابعة لا تنشد من الحج سوى وجه الله ، وترى نفسها جديرة بهذه الشهادة ، لأنها أسرفت في قيام الليل وتعذيب الجسد وإماتة كل إحساس بالدنيا في قلبها ، — فهذه مرتبة تستوى فيها مع المتصوفين عامة — ، إنما لأنها قد آلت إلى حالٍ من التجرد الكامل والتنزيه الخالص بحيث صارت روحاً نورانياً أقرب ما يكون إلى جوهر الألوهية ، والشبيه يدرك الشبيه ، فلم لا تطمح عن جدارة إلى معاينة سُبحات وجه ربها؟! وعلى ضوء هذا نفس تلك الأسطورة التي رواها المطار وأشرنا إليها منذ قليل ، والتي تقول إن إبراهيم بن آدم أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، ولما بلغها لم يجدها في مكانها فقال نائماً شاكياً : « وأسفاه ! أأظلم بصرى حتى لم أعد أرى الكعبة ؟ » فسمع صوتاً يقول : « يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة ذهبت للقاء رابعة » . فتأثر إبراهيم ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها ، وشاهد رابعة تتقدم مستندة إلى عصا ، فقال لها : « أى رابعة ! يا لجلال أعمالك ! ثم وماتلك الضجة التي تحدثنيها في الدنيا ! فالكُل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة » . فأجابته رابعة قائلة : « يا إبراهيم ! وماتلك الضجة التي تثيرها أنت في الدنيا بقضائك أربعين عاماً حتى تبلغ هذا المكان؟! فالكُل يقولون : إبراهيم يتوقف في كل خطوة ليصلي ركعتين . » فقال إبراهيم : « نعم أمضيت أربعين ربيعاً أجتاز هذه الصحراء » . هنالك قالت رابعة : « يا إبراهيم ! لقد جئت أنت بالصلاة ، أما أنا فقد جئت بالفقر » ؛ ثم ذرقت مِرَّ العَبَرَات^(١) . فقولها هنا : « لقد جئت أنت بالصلاة ، أما أنا فقد جئت بالفقر »

(١) فريد الدين المطار : « تذكرة الأولياء » ، نشرة نيكولسون ، ج ١ ص ٦١ — ٦٢ .

فيه أبلغ دلالة على مرتبة التجريد والتزيه التي بلغتها ، إن صحت هذه الرواية ؛
أو التي ظن الكتاب المؤرخون للصوفية أنها بلغتها بالنسبة إلى إبراهيم بن أدهم وهو
من هو زهداً وعلو كعب في الطريق — إن لم تصدق هذه الرواية . ذلك أنها تقصد
من قولها إنه جاء الكعبة ومؤهلاته الصلاة أنه لا يملك إلا هذه الشعائر الدينية
والمراسم والطقوس يؤديها بمعناها الظاهر دون أن يجردها ويرفعها إلى المعنى الباطن ؛
أما رابعة فقد ارتفعت فوق هذه الدرجة التي تقوم على الظاهر المحسوس ، إلى
درجة عليا استحال فيها المزمع الديني إلى رمز ، وأضت فيها الشعيرة من شعائر
الإيمان إلى معنى مجرد . « فالفقر » هنا هو « الفقر من المادة » أي التجرد عنها
نتيجة للتجرد عن الدنيا ، هو التروخن المستمر ، هو الشفوف الذي يطلع على النور
الأعلى . ورد في « جامع الأصول » أن الفقر أصله رجوع العبد « إلى عدمه الأصلي
بحكم سبق الأزل ، حتى يرى وجوده وعمله وماله ومقامه كلها فضلاً من الله وامتناناً
محضاً ^(١) » ، فيشعر بارتداده إلى حال العدم الأصيل لما أن كان إمكاناً محضاً ، ويفنى
في صفات الألوهية ، ويطمس في عين الجمع الأحدية ، فيكون على أتم إعداد
لقبول الاتحاد بالألوهية — وهذا هو معنى مشاهدة الله وجهاً لوجه : فهو امتزاج
الواحد بالآخر إبان لحظات تطول وتقص وتقل وتكثر وفقاً لما يهبه الله من لطف
من لدنه بالعبد المتجرد في حضرته . إن إبراهيم كان لا يزال يرسف في قيود
الشعائر لأنه يرى الغاية في أداء التكليف ، أما هي فقد تجاوزت نطاق المراسم إلى
المعاني الثابتة في ملكوت الأزل قبل الخلق الزماني ، وتجردت عن الأعيان
الزائلة كما تحيا في الأعيان الثابتة وهي حقائق الممكنات في علم الحق تعالى ، هي
الوجود الماهوي (Existenz) الذي يسوده الطهارة والبكارة .

(١) الشيخ أحمد ضياء الدين الكشغاني : « جامع الأصول في الأولياء » ، ص ٣٥١ .

القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م .

لتستغن عن الكعبة إذا : فالحضرة تنشد في أى مكان . لقد كان هذا البيت العتيق ، « هذا الصنم المعبود على الأرض » ، بمثابة أداة تعينها على السباحة فى بحر الألوهية الزاخر ، وجناح صناعى تذرعت به ريثما ينبت فى جناحيها الطبيعيين الريش . أما الآن وقد بلغت ما بلغت ، فلتطرحه . وهذا معنى إقبال الكعبة إليها ، أى أنها لم تعد فى حاجة إلى الانتقال كما تنعم بالحضرة ، بل ستفقدوها أيتاً كانت هى .

لقد بلغت مرحلة التبادل بين الحضرة وبينها . كانت تقبل على الكعبة ، وإذا بالكعبة هى التى صارت تقبل عليها . أقبلت عليها فى ذلك العام ، فعليها أن ترد لها الزيارة . قال العطار بعد ذلك مباشرة : « وفى السنة التالية قالت : لما كانت الكعبة قد أقبلت إلى فى العام المنقضى ، فسأقبل أنا عليها هذا العام » . إنها صلة متبادلة ، لأنها صلة صداقة ومحبة بين رابعة وبين الحضرة الإلهية التى ترمز إليها الكعبة . ومن شأن هذه الصلة أن يكون ثمت تراور دون ما تكلف . لهذا قالت تلك العبارة وفيها من البساطة وعدم الكلفة ما يكشف عن الصلة الجديدة التى عقدتها مع الله .

ومن الواضح طبعاً فى هذا كله أن انتقال الكعبة هنا وانتقالها هى يجب ألا يفهما بمعنى حسى ، بل بمعنى مجرد هو سعى رابعة إلى بلوغ الحضرة الإلهية للفناء فيها والامتزاج بها ، وسعى الحضرة نفسها لمبادلتها هذا السعى وذلك بتلطفها ورضاها وقبولها فى داخل الحضرة .

لهذا نحسب أن معنى الحج قد رق ولطف وتروحن فى نفس رابعة إلى حد أنها لم تعد تشعر بالحاجة إلى أداء فريضة الحج بالمعنى المادى ، فانقطعت عنه فى سنواتها الأخيرة بعد أن امتلأت بهذا المعنى الجديد للحج ، وهذا هو ما يفسر قولها لما رأت الكعبة — بمعناها الحسى — قادمة نحوها : « لأريد الكعبة ، بل رب

الكعبة ، أما الكعبة فإذا أفعل بها ! » ولم تشأ أن تنظر إليها^(١) فعنى هذا أنها لم تعد ترغب في النظر إلى الكعبة ، الكعبة المحسوسة ، البيت الذي ببكة ، أى أنها ، بصريح العبارة ، لن تحج بعد ذلك اليوم ، وستأوى إلى بيتها وتنقطع فيه ، فنه هو الآخر أيضاً تستطيع أن ترى وجه الله وأن تنعم بالحضرة ، فالإقتصار على البيت العتيق الذى بمكة وثنية ، شأنها شأن وثنية أولئك الذين اقتصروا على أصنامهم فرأوا فيها وحدها آلهة . لقد قال تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » . إذاً فإمعنى الإقتصار على البيت الحرام !

وتلك أعلى مراتب التنزيه ، بلغت رابعة فودعت التنقل وأوت إلى بيتها هى الحرام .

— ٦ —

أوت رابعة إذن إلى بيتها واستغرقت فى انقطاعها لله . فماذا كان من أمر حياتها الدنيوية ؟

هنا يجب أن نبدد أولاً خلطاً وقع فيه المؤرخون القدماء وجاراهم عليه المحدثون الذين كتبوا عن رابعة ، وبخاصة مارجرت اسمث فى كتابها عن « رابعة وزميلاتها للتصوفات فى الإسلام »^(٢) ، مع أن كثيراً من أولئك الأقدمين أنفسهم قد نهبوا عليه ، وبخاصة عبد الرؤوف المناوى فى كتابه الجيد « طبقات الأولياء »^(٣) ، كما سنرى عما قليل ، ومن قبله ابن الجوزى فى « صفة الصفوة »^(٤) ؛ وقد رأينا من قبل آثاراً لهذا الخلط نبهنا عليها .

(١) العطار : المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) Margaret Smith; Rabi'a the Mystic and her Fellow-saints in Islam. Cambridge, 1928

(٣) مخطوطة الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ ورقة ١٠٦ أ — ١٠٦ ب .

(٤) ج ٤ ص ٢٠٢ برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية بدمشق .

ذلك هو الخلط بين رابعة الشامية وبين رابعة البصرية صاحبتنا . أما رابعة الشامية فهي التي قال عنها المناوي إنها « رابعة بنت اسماعيل العدوية : ورابعة هذه بمثناة تحتية ، وهي شامية ، والتي قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية ، وهي بصرية فافترقا » ، والغريب في هذا أن المناوي يقول عنها إنها تسمى « العدوية » أيضاً وهو مالا نجد في المصادر الأخرى . فهل اختلط عليه الأمر هاهنا في هذه الدقيقة ؟ لانستطيع الجواب حتى نظفر بمصدر آخر مستقل ، لأن حجة الصمت لاتصلح كثيراً في البحث التاريخي . والغريب أن ابن الجوزي في « صفة الصفوة » لم يشر إلى نسبها هذا . لذا لو كان لنا أن نرجح لقنا إتنا نجنح إلى أن يكون هنا عدم تنبه من جانب المناوي أو غفلة من جانب الناسخ . والمناوي على كل حال إنما يردد هنا ما قاله ابن الجوزي من قبل في « صفة الصفوة » في تفرقه بين كليهما . قال ابن الجوزي : « رابعة زوجة أحمد بن أبي الخوارى ، كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا . وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلَمي أن رابعة العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها . وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ، والعدوية بصرية ، وهذه شامية » . وليس من شك في أن هذا يدلنا على أن الخلط قد حدث منذ عهد مبكر جداً مادام السُّلَمي (ولد سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م وتوفي سنة ٤١٢ هـ — سنة ١٠٢١ م) قد نبه إليه . وقد يكون في قول ابن الجوزي هنا « والعدوية بصرية ، وهذه شامية » ما قد يزيد في تأييد مارجحناه من غفلة المناوي (أو الناسخ) بذكره رابعة الشامية على أنها « عدوية » أيضاً ، مادام ابن الجوزي في معرض التفرقة يكتفى بقوله « العدوية » ، فلو كانت رابعة الشامية عدوية هي الأخرى لما لجأ إلى هذا التمييز فاقصر على هذه النسبة . خصوصاً أنه من المحتمل جداً أن يكون ابن الجوزي هو مصدر المناوي في هذه التفرقة ، كما هو مصدره في غالب ما يورد من أخبار في هذا الكتاب .

ثم يؤكد ابن الجوزي هذه التفرقة بعد ذلك مباشرة عن راوٍ آخر فيقول :
« وقد أخبرنا أبو ناصر قال : أنبأنا أبو الغنائم بن النرسي قال : رابعة بالبلاء بنقطة
في تحتها بصرية ، ورابعة باثنتين من تحتها شامية^(١) » .

هناك إذن رابعتان ، إحداهما رابعة العدوية البصرية ، والأخرى رابعة أو
رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري . وهذا الأخير هو
أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري . « واسم أبي الحواري ميمون . من أهل دمشق .
صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية الفزاري وبشر بن
السري وأبا عبد الله النباجي وغيرهم من المشايخ — رضى الله عنهم أجمع — وله
أخ يقال له المولى بن أبي الحواري يجرى مجراه في الزهد والورع ؛ وابنه عبد الله من
الزهاد ؛ وأبوه أبي الحواري ... كان من العارفين والورعين . فبیتهم بيت الورع
والزهد . مات سنة ثلاثين ومائتين^(٢) » . أما زوجه ، رابعة الشامية ، فإنها ماتت
سنة خمس وثلاثين ومائتين ، « ودفنت برأس زيتايبيت المقدس » ، كما يقول
المنأوى^(٣) . إلا أنه ورد في مخطوطة المناوى هذه أنها توفيت سنة « خمس وثلاثين
ومائة » . وليس من شك في أن هاهنا تحريفاً ، والأصل « ومائتين » ، لأنها
وهي زوجة أحمد بن أبي الحواري المتوفى سنة ثلاثين ومائتين لا يمكن أن تكون قد
توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة . فهل يكون المناوى قد وقع في هذا الخطأ الفاحش
وهو الذي حرص على التنبيه على هذه التفرقة وقال بصراحة إن رابعة بنت إسماعيل
الشامية هذه هي زوجة أحمد بن أبي الحواري — من أجل أن ينقذ التاريخ

(١) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » ، مخطوط الظاهرية بدمشق برقم ٦٧ تاريخ ج٤
ص ١٢٠٢ .

(٢) أبو عبد الله الحسين بن نصر الجهني : « مناقب الأبرار وشعار الأخيار » ، مخطوط
في مجموع بالظاهرية برقم ٤١ تصوف ، ورقة ١٧٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ورقة ١٠٦ ب .

الآخر — وهو سنة ١٣٥ هـ — الذى ينسب فى بعض المصادر — كما سنرى — أن رابعة توفيت فيه ؟ لو كان هذا هو ما قصد ، فيالسوء ما قصد ! فقد أفسد كل ما فعله فى مستهل حديثه حينما ميز بين كلتا الرابعتين . وليس يبعد أن يكون قد وقع فعلا فيه — ولم يكن عن تحريف النسخ — إذا ما تذكرنا أنه اكتفى فى بيان وفاته رابعة العدوية البصرية بذكر سنة ثمانين ومائة ؛ وإذا ما تذكرنا كذلك أنه كان متردداً فى إيراد أخباره ، فتردد كذلك فى الحديث عن القبر القائم بقرب بيت المقدس ، فقال : « ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل [١٠٧] المدفونة هناك إنما هى الأولى » أى البصرية . ومع هذا فقد افترضنا أن تكون هنا سقطه قلم والأصل هو : « سنة خمس وثلاثين ومائتين » أى بعد وفاة زوجها أحمد بخمس سنين . فهى لاشك توفيت فى ذلك العهد أو قريباً منه زيادة أو نقصاً بقليل .

ونحن نفترض أن ابن الجوزى كان المصدر لمن جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن رابعة . وإنا لنراه فى كل ما أورده من أخبار عن رابعة الشامية يذكر سلسلة من الرواة تنتهى كلها دائماً باسم أحمد بن أبى الحوارى ، فهو إذن الراوى المباشر . وهذا يعطينا مفتاح المشكلة فى كل الأخبار التى وردت باسم رابعة — بدون تمييز — مشفوعة بأسماء الرواة . فكل سند يرد فيه ذكر أحمد بن أبى الحوارى يجب أن نقدر أنه يتحدث عن رابعة الشامية ، لا عن رابعة العدوية البصرية صاحبتنا فى هذا البحث .

لهذا يجب علينا اتخاذ هاتين القاعدتين :

(الأولى) أن نستبعد كل رواية وردت سند روايتها ومن بينهم أحمد بن أبى الحوارى ، لأن هذا ما كان له أن يحدث إلا عن رابعة الشامية ، زوجه ؛ وهو شامى ولا نعلم أنه أتى البصرة ؛ وفضلاً عن هذا فإن موته سنة ٢٣٠ يجعل من المستبعد جداً أن يكون قد عرف رابعة البصرية حتى لو كان قد ارتحل إلى البصرة

لأنه لابد أن يكون ذلك في سن مبكرة كثيراً ، اللهم إلا إذا افترضنا أنه عُمر طويلاً جداً وبدأ التصوف مبكراً . كل هذا على افتراض أن رابعة البصرية توفيت حتى في أبعد سنة تفترض لها وهي سنة خمس وثمانين ومائة . وإذن فكل ما يروى عن ابن أبي الحواري يختص برابعة أو رابعة الشامية وحدها ، وزوجه .

(الثانية) أن كل الأخبار التي ثبتت سند روايتها وفيهم أحمد بن أبي الحواري يجب أن نسقطها من حساب رابعة البصرية إذا نسبت إليها غُفلاً من كل سند . ذلك أن بعضاً من الرواة والمؤرخين لا يأتون بالسند ، أو لا يأتون به كاملاً بحيث يصل إلى الراوى الأخير ، ويذكرون عن رابعة البصرية أخباراً وردت عن مؤرخين آخرين مشفوعة بسند فيه أحمد بن أبي الحواري أى — تبعاً للقاعدة الأولى — مما يجب أن ينسب إلى رابعة الشامية . فهؤلاء إذن تسقط رواياتهم لمجرد ورودها منسوبة في روايتها إلى أحمد بن أبي الحواري في المصادر الأخرى المعنية بسلسلة الرواة .

فبتطبيق هاتين القاعدتين نستطيع أن نميز بين ما يصح لرابعة البصرية صاحبتنا ، وما يصح لرابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري . على أن التمييز — مع ذلك — لن يكون هاهنا كاملاً كما نود ، وذلك لسببين :

(الأول) أن القليلين من المؤرخين هم الذين حرصوا على الإتيان بسلسلة الرواة كاملة ، لأنهم مُحَدِّثُونَ فيحرصون على ذكر السند تاماً ؛ وخيرهم في هذا من غير شك هو ابن الجوزى في « صفة الصفوة » .

و (الثانى) أن ثمت أخباراً عديدة لم ترد عند الأولين — أى المعنيين بذكر السند التام — ، فلا ندري ، وهي مُعْغَلَةٌ من كل سند ، أهى حقاً لرابعة البصرية ، أو لعلها لرابعة الشامية ؟ إن منهم من يقدمونها على أنها لرابعة البصرية — لكن من يدرينا لعلها في الأصل لرابعة الشامية وخلطوا فيها كما فعلوا في الروايات الأخرى

التي استطعنا تمييزها وفقاً للقاعدتين السابقتين . وإن منهم كذلك لمن يكتفون بنسبتها إلى مجرد « رابعة » ؛ فليت شعري أية رابعة يعنون ! أما وصاحبتنا رابعة البصرية هي الأشهر التي ينصرف إليها خصوصاً ذهن القارئ ، فقد افترضنا — لأننا لانملك أن نفعل غير ذلك — أن المقصود هو رابعة العدوية البصرية . صاحبتنا ، وإلا كان على الراوى أن ينبه إلى ذلك . فأغفاله التنبيه على غيرها يُفسر بقصده إياها وحدها .

ذلك التقدير المنهجي الذي قمنا به على أكبر درجة من الخطورة لأنه سيوضح شخصية رابعة العدوية البصرية أتم إيضاح مستطاع بوسائلنا . فكأين من آراء تنسب إليها كان مصدر التناقض الفاحش فيها هو ذلك الخلط بين كلتا الراجعتين ! وكم من مسألة استعجبت مذاهبها وعميت مسالكها في البحث في رابعة : حياتها وأفكارها ، لا شيء إلا لوقوع هذا الالتباس بين رابعة البصرية ورابعة الشامية ! أجل إن كثيراً من الأخبار والأقوال ستبتر بحد هذا المنهج ، ونحن أحوج ما نكون إلى تلمس أخبار رابعة لندرتها ، لكن ما قيمة هذه الأخبار مادامت لا تنسب إليها ، بل ولا إلى أسطورتها هي الخاصة ؟ !

وأول ضحية لهذا المنهج كل ما ورد من أخبار تفترض أنها تزوجت . وهي :
١ — ما رواه صاحب « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ^(١) من أنه :
« لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصري في الدخول عليها هو وأصحابه ؛ فأذنت لهم وأرخت ستراً ، وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه : إنه قد مات بعلك ولا بد لك من زوج وقد انقضت عدتك ، فاخترى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم . . . » إلى آخر ما ذكره هنا من أنها طلبت من الحسن

(١) الشيخ الحريريش : « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » ، ص ١١٧ — ص ١١٨ .
طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة ، ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م .

البصرى الذى كان أعلم هؤلاء أن يجيبها عن أربع مسائل ، فإن فعل فهمى له أهل .
والخبر كله غير صحيح أولاً لأنه يتحدث عن الحسن البصرى ، والحسن
البصرى ولد سنة ٢١ هـ (= ٦٤٢ م) وتوفى سنة ١١٠ هـ (= ٧٢٨ م) ، بينما
التاريخ الذى سنفتهى إليه فى بيان وفاتها هو سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ ، فلا يمكن
وقوع هذا الحادث بينهما . وإنما هو من الأخبار العديدة التى شاء أصحابها
أن يربطوها فيها بالحسن البصرى . وسنرى تفصيل هذا التفضيل لوفاتها المتأخرة
حين الحديث عن تاريخ وفاتها .

وغير صحيح ثانياً لأنها لم تتزوج كما سيتأيد فيما يلى :

٢ — ما ذكره الياقنى^(١) فى « روض الرياحين فى مناقب الصالحين » فى قوله :
« وحكى عن أحمد بن (أبى) الحوارى عفا الله عنه أنه قال : كانت لرابعة العدوية
أحوال (فى المطبوع : أهوالاً) شتى : فكانت مرة يغلب عليها الحب . . . »
إلى آخر الآيات التى أوردها من أقوالها فى حال الحب ثم فى حال الأنس ،
ثم فى حال الخوف . والغريب أنه يستمر فى الخبر فيقول بعد هذه الآيات مباشرة :
« قال زوجها : فقلتُ لها ليلة من الليالى . . . » فكيف يكون الحديث عن رابعة
البصرية إذا كان زوجها أحمد بن أبى الحوارى ؟ ! كذلك الحال فى كل ما ورد
الياقنى بعد ذلك « عن زوجها » ، وكذلك ما قاله من أنه « كانت تأتيا الجن
بكل ما نطلب » ، فهذا أيضاً من شأن رابعة بنت إسماعيل الشامية ، كما يتأيد ذلك
بما رواه المناوى حين قال عن رابعة ابنت إسماعيل الشامية : « وكانت ترى الجن
عياناً » ، فهمى إذن الشامية التى كانت على صلة بالجن ، لا رابعة البصرية .

على أن ابن الجوزى فى « صفة الصفوة »^(٢) قد ذكر هذه الأخبار تحت

(١) الياقنى : « مختصر من كتاب روض الرياحين فى مناقب الصالحين » ، ص ١١١ —

ص ١١٢ ، طبع المطبعة الكستلية ، القاهرة سنة ١٢٧٩ هـ = سنة ١٨٦٢ م .

(٢) ورقة ١٢٠٢ — ١٢٠٣ .

اسم رابعة الشامية ، ورواها نقلا عن أحمد بن أبي الحواري . فهذا يقطع أيضاً بأن اليافعي هنا قد أخطأ خطأ ظاهراً ، اللهم إلا إذا فهمنا من قوله : « رابعة العدوية » أن المقصود هو رابعة الشامية على أساس أنها عدوية أيضاً .

٣ — ما رواه جامي في « نفحات الأنس »^(١) من أنها كانت إذا طبخت قدراً قالت لزوجها : « كُله يا سيدي فما نضج إلا بالتسييح » . وهو خبر ورد عند اليافعي في الموضع السابق ؛ ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » على أنه خاص برابعة الشامية .

٤ — ما أورده العطار من حكاية الحسن معها في سؤالها إياه عن عدة مسائل — وهو ما ذكر من قبل تحت رقم ١ — والعطار يذكر الخبر دون ذكر الحسن ؛ وبدلاً من أربعة مسائل يذكر ثلاثة . ونحن نرى أنه مادام العطار لم يفعل إلا أنه اختصر في الخبر الوارد في رقم ١ ، فهو إذن لم يأت إلا بالخبر عينه ؛ فحكم هذا الخبر حكم رقم ١ ، أي أنه غير صحيح .

من هذا يتبين إذاً أن الأخبار التي تفترض زواج رابعة البصرية إنما هي في الواقع أخبار خاصة برابعة الشامية ، كما يؤيد ذلك ابن الجوزي بما لا حاجة بعده إلى فضل بيان . وعلى هذا فليس لدينا مصدر واحد يصرح بأن رابعة البصرية تزوجت .

ذلك هو الجانب السلبي من حجاجنا للبرهنة على أن رابعة البصرية لم تزوج . والجانب الإيجابي هو أخبار طلب الزواج منها :

- (١) أما ما يتصل منها بالحسن البصري فمرفوض جملة لما ذكرناه في رقم ١ .
- (ب) أما الأخبار التي لا يقف حائل دون صحتها فهي خطبة عبد الواحد ابن زيد لها ثم خطبة أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي كذلك .

(١) جامي : « نفحات الأنس » ، ص ٧١٩ ، نشرة ليس ونساو ، كلكتا سنة ١٨٥٩ م .

والخطبة الأولى روى نبأها كل من عين القضاة الهمداني في « شكواه »^(١)
ثم الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين »^(٢) . قال عين القضاة في الحديث عن
رابعة : « وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علوشانه ، فهجرتة أياماً حتى شفع له
إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك ! » .
ورواه الزبيدي بصورة أكمل فقال : « وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً
حتى سئلت أن يدخل عليها ، فقالت له : يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك !
أي شيء رأيت في من آلة الشهوة ؟ ! »

كذلك روى المرتضى الزبيدي الخطبة الثانية فقال : « وخطبها محمد بن سليمان
الهاشمي أمير البصرة على مائة ألف وقال : لي غلة عشرة آلاف في كل شهر
أجعلها لك . فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لي عبد وأن كل مالك لي ؛ وأنتك
شغلتنى عن الله طرفة عين » .

وروى ذلك الخبر أيضاً عبد الرؤوف المناوي^(٣) فقال : « كتب محمد بن سليمان
الهاشمي — وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانية آلاف درهم — إلى كبراء
أهل البصرة في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة . فكتبت^(٤) إليه : « أما بعد !
فإن الزهد في الدنيا راحة البدن ؛ والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛ فهي مزادك
وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ؛
وصم الدهر ، واجعل فطرَكَ الموت . وأما أنا فلو خَوَّلني الله [١٠٤ ب]

(١) عين القضاة الهمداني : « شكوى » مخطوط برلين ، ورقة ٥٧٣ (أورده ماسينيون
في : « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بالتصوف الإسلامي » ، ص ٧ تحت رقم ٦ ، باريس
سنة ١٩٢٩)

(٢) المرتضى الزبيدي : « إتحاف السادة المتقين » ، ٩ ، ص ٧٥٦ .

(٣) « طبقات الأولياء » ورقة ١٠٤ ، ب ، مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤ .

(٤) في المخطوط : فكتب إليها — والسياق يقتضي ما أثبتناه لأن المخاطب مذكر
في الأفعال الواردة في هذه الرسالة .

أمثال ما حزت وأضعافه [ف] لم يسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين
والسلام .

فهاتان الخطبتان ورفض رابعة لكليهما تدلان تمام الدلالة على فكرتها
عن الزواج بالنسبة إلى نفسها وهي أنها لا تراه يصلح لها . والذين وضعوا قصة
الحسن المذكورة في رقم (١٠) إنما قصدوا إلى إبراز هذا المعنى ، خصوصاً حينما
ختموها بأن جعلوا رابعة تقول لما أن أعيت الحسن الإجابة عن أسئلتها الأربعة :
« إذا كان الأمر كذلك وأنا في قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج
إلى الزوج وأتفرغ له ! ثم أنشدت :

راحتي ، يا إخوتي ، في خلوتي	وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجِدْ لي عن هواه عِوَضاً	وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنتُ أشاهدُ حُسْنَه	فهو محرابي ، إليه قبلتي
إن أُمْتُ وَجَدًا وما ثمَّ رضا	واعنائي في الوري ! واشقوتي !
يا طيبَ القلب يا كُلَّ المني !	جُدْ بوصلٍ منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً	نشأت منكَ وأيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرنجبي	منكَ وصلّاً، فهو أقصى مُنيّتي» ^(١)

فهذه أسطورة ، ولعل الأبيات نفسها منحولة عليها ، لكنها مع ذلك تعبّر
عن الصورة التي تصورها واضعوها عن رابعة ؛ وهي تؤذن بأن رابعة كانت ترى
استحالة الزواج بالنسبة إليها ، لأنها في شغل بالمهم من أمور الآخرة والحياة الروحية
ومسائلها ، فأتى لها أن تفرغ للزوج والحياة الدنيا !

لهذا كله نرى أن حكاية زواج رابعة إن هي إلا أسطورة نشأت عن الخلط

(١) الشيخ الحريفيش : « الروض الفائق في المواعظ والرفائق » ، ص ١١٨ ، القاهرة سنة
١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م .

بين رابعة الشامية زوج أحمد بن أبي الحواري وبين رابعة البصرية العدوية القيسية صاحبتنا هنا .

فإذا نظرنا الآن في نظرية رابعة في الزواج تأيد لنا الأمر وازداد وضوحاً .
وهنا يحسن بنا أن نتحدث عن نظريات رجال عصرها وأصدقائها لنعلم في أية بيئة نشأت نظريتها هي ، ولماذا اتخذت ذلك الطابع الذي اتخذته . وإنا لنجد على رأس هؤلاء الحسن البصري ، رائد حركة الزهادة في ذلك العهد كله ، الذي لا يرى الزواج بالنسبة إلى الزاهد ، بله إلى العبد الصالح . قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » .^(١) كذلك نرى أبا نعيم يقول في « الحلية »^(٢) :
« قال (رباح) سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوى إلى مزابل الكلاب » . وفي هذا ما يدل على نزعة إلى تقرير العزوبة بمشابة فرض على من يريد أن ينقطع لله ويبلغ منزلة الصديقين . وذلك لأن في الزواج صرفاً له عن الانقطاع لله وعدم الاشتغال بشيء غير ذكر الله ؛ كما أن ما يلاقيه من رفاهة ودعة يمنع من « كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ؛ ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار — وكل هذا بعيد عن المتجرد » كما قال السهروردي^(٣) في « عوارف المعارف » وفي هذا يقول إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٠ هـ أو سنة ١٦٦ هـ) : « من تعود أخذ النساء لا يفلح »^(٤) .

فإذا صحّت هذه الأخبار وغيرها بما ينسب خصوصاً إلى الحسن البصري —

(١) الشعراني : « الطبقات » ، ١ ، ص ٢٥ .

(٢) وقد أورده الشعراني (« الطبقات » ، ١ ، ص ٤٠) على أنه قول رباح بن عمرو القيسي ، ولكن هذا غير صحيح لأنه ينقل عن صاحب « الحلية » أولاً ، وثانياً لأن هذا القول يفترض إمكان الزواج بالنسبة إلى الصوفي ، وهو ما لا يقول به رباح .

(٣) ص ١١٩ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٣٩ .

وليس مانع يمنع من أن تكون صحيحة لأن أصحابها لم يتزوجوا ، فإن كان عدم تأهلهم عن مبدأ ، فلا شك في أن هذه الأخبار تعبر عن آرائهم إن لم يكونوا قد نطقوا بها فعلاً — نقول إذا صحّت هذه الأخبار فإن هذا يدل على أن الدعوة إلى التجرد ، أى عدم الزواج ، قد وجدت في عصر مبكر ، أى في أواخر القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى . وليس من شك كذلك في أن هذا الرأى الذى دَعَوْا إليه إنما اعتقدوه لما رأوه من عدم توافق في الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهادة ، ولم يكن ذلك نتيجة تأثر بنظام رهبنة .

أجل إن الأحاديث العديدة التى اخترعها الصوفية وفيها تمجيد للعزوبة إنما هى وليدة القرون المتأخرة ابتداء من القرن الثالث للهجرة ، لأنها لا تتفق مطلقاً مع ما كانت عليه حياة الرسول وهو القدوة الكبرى ، فما كان ينتظر منه إذن أن يدعو إلى حياة التجرد والعزوبة على أنها الحياة المثلى ، بينما هو — وهو الرسول — لا يسلكها ، بل ولا يقترب منها . ومن هنا كان على الصوفية الواضعين لتلك الأحاديث أن يبرروا ذلك بتفرقتهم بين عهدين : عهد إلى سنة مائتين من الهجرة ، وعهد إلى ما بعد المائتين . وإنا لنعلم تلك الأحاديث الكثيرة التى تذكر فيها سنوات وتواريخ للهجرة ، وكأن واضعها لم يكونوا من الفطنة بحيث لم يتنبهوا إلى أن التاريخ بالهجرة إنما يتم في عهد عمر ، فكيف يؤرخ النبیّ السنين ابتداء من الهجرة !! وعلى كل حال فقد ذكروا تلك الأحاديث ذوات التواريخ فيما يتصل بمسألة العزوبة . قال أبو طالب المكي في « قوت القلوب » ^(١) :

« وفي خبر : إذا كان بعد المائتين أبيضت العزوبة لأمتي ؛ ولأن يربى أحدكم جَرَوْ كلبٍ خيرٌ من أن يربى ولداً » . وقال السهروردي في « عوارف

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، طبع القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ،

المعارف»^(١) : «قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ . قيل : يا رسول الله ! وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذي لأهل له ولا ولد»^(٢) . وواضح ما في هذه التفرقة بين عهدين في التشريع بعد وفاة الرسول من مجافاة لكل ألوان الاحتمال والقبول .

إنما رأى الصوفية أنفسهم بإزاء وضع جديد ابتدعوه ودعوا إليه فكان عليهم أن يبرروه بواسطة الأحاديث الموضوعة ، شأن كل مذهب أو رأى ابتدع في الإسلام بعد وفاة الرسول .

ولا نرانا نتجاوز المعقول كثيراً إذا افترضنا أن الحسن البصري كان أول من دعا إلى العزوبة صراحة ، ووضعها شرطاً من شروط التقوى والزهادة الحقة . ومنذ عهده وطوال القرن الثاني للهجرة تضافرت الآراء عند بقية الصوفية حول هذه الفكرة ، لأنهم وجدوا فيها ما يتفق مع مقتضيات الأسلوب الذي اتخذوه لأنفسهم في الحياة . لقد كانوا منصرفين عن الدنيا ، فكيف يمدون بجذورهم فيها عن طريق الأهل والولد ؟! وهنا لم يعدموا في القرآن آيات يمكن أن تؤول على أن فيها تأييداً لاتجاههم هذا . ورد في القرآن : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم »^(٣) ؛ وورد كذلك : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً » (سورة الكهف ، آية ٤٦) ؛ ففي الآية الأولى تحذير من الأهل والولد ، إن لم يدع إلى تركهم فهو يحذر منهم . وهذا التحذير يمكن أن يفسره من يأخذ بالأحوط على أنه نوع من النهي ، وفي الآية الثانية تفضيل بين حالتى التأهل والتجرد ، مع القول بأن التجرد

(١) أبو حفص عمر السهروردي : «عوارف المعارف» ص ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ — سنة ١٩٣٩ م .

(٢) وفي «قوت القلوب» ، الموضع السابق ورد هكذا : « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد »

(٣) سورة التغابن : ١٤ .

أو ما في معناه وإن لم ينطق به بصراحة هنا « خير عند ربك ثوابا وخيراً أملاً » فضلاً عما في كلمة « زينة » الحياة الدنيا هنا من معنى لا يخلو من التهمم والقدح ، وإن فيها للباقة في التعبير كانت مميزة واضحة لما في جوهر الإسلام من ثنائية ومحاولة للجمع بين الطرفين المتعارضين في كل المذاهب والمسالك .

في القرآن إذاً ما يستطيع الصوفية الاستناد إليه في دعواهم إلى العزوبة حتى لو أعوزتهم سنة الرسول قولاً وفعلًا وتقريراً . على أن المشاهد في هذه الحالة — وفي كل الأحوال المشابهة لها — أن المسلم لا يصدر هنا في رأيه أو فعله عن القرآن مباشرة أو عن السنة ؛ إنما يصدر أولاً عن مقتضيات حياته الباطنة أو الخارجة ، ثم يندو من بعد ذلك إلى الكتاب وأحاديث النبي عساه أن يجد فيها السند الديني لما يذهب إليه . فأولئك الصوفية — ابتداءً من الحسن البصري — ممن رأوا عدم إمكان الجمع بين التأهل وسلوك الطريق قد ابتدأوا أولاً بأن اقتنعوا بعدم إمكان الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين تعارضاً عبر عنه بعض الفقهاء أجمل تعبير لما أن قيل له : تزوج ! فقال : « أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى التزوج ^(١) » . ثم راحوا من بعد ذلك يجدون لهذا أصلاً من الكتاب والسنة عليهم أن يجدوه . ووجوده في الكتاب فعلاً في أمثال تلك الآيات التي أوردناها منذ قليل . لكن كان عليهم بعد ذلك أن يوفقوا بين مقتضى الآيات والأحاديث والسنن المضادة لهذا الاتجاه ، وبين مقتضى حياتهم الداعية إلى التصوف الزاهد في الزواج . فلجأوا أولاً إلى أحاديث إباحة العزوبة بعد المائتين ، لكن يلوح أن هذا لا بد أن يكون متأخراً عن المائتين ، ومن وضع من أتوا بعد ذلك ، خصوصاً في القرنين الرابع والخامس . فبقى إذاً أن نجد تبريراً لمسالك من كانوا قبل سنة مائتين :

(١) أبو حفص السهروردي : « عوارف المعارف » ، ص ١١٨ ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ —
سنة ١٩٣٩ م .

أنعذهم خارجين على الكتاب والسنة ؟ لعل الذين وضعوا تلك الأحاديث الخاصة بالعهدين (ما قبل المائتين ، وما بعدها) لم يحرصوا كثيراً على مصير من كانوا قبل المائتين ، وكانو من الأثرة بحيث قصروا الإباحة على أنفسهم ! لهذا كان على الذين يريدون تبرير أحوال التجرد وعدم الزواج عند من كانوا قبل المائتين أن يلجأوا إلى ذريعة أخرى هي التفرقة بين مرتبتين إحداها أعلى من الأخرى : مرتبة المتجرد ، ومرتبة المتأهل . فقالوا إن التأهل رخصة وسنة ؛ أما التجرد — بالنسبة إلى الصديق الورع — فهو عزيمة وفرض . وفي هذا ^(١) يقول بشر بن الحارث الحافي (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ = سنة ٨٤١ م) لما قيل له : « إن الناس يتكلمون فيك . فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسنة — يعني النكاح . فقال : قولوا لهم : أنا مشغول بالفرض عن السنة » . كذلك ما حكاه صاحب « عوارف المعارف » أيضاً فقال : « سمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ما تزوجت حتى قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ! فقال له : ذلك [١٢٠] الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخص ، وطريق القوم : التزم بالعزيمة ! — فلا أعلم — كذا يقول أبو حفص السهروردي — ما قال الشيخ في جوابه » ، ويأخذ السهروردي في الجواب عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ويبرر فعلته . والمهم في هذا عندنا أن نبين الوسيلة التي اتخذها الصوفية في بيان أسباب اتخاذهم التجرد بدل التأهل ، ثم مفاضلتهم بين الحالين بما يجعل التجرد فرضاً على الصوفي .

ونحسب هذا القدر كافياً لبيان الجو الذي عاشت فيه رابعة من حيث مسألة التأهل أو الزواج . فهو بالجملة جو يدعو عند الصوفية إلى عدم الزواج ، لأن الزواج يتنافى مع الوفاء بالحياة الروحية العالية وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله

(١) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وانصراف عن الدنيا وإماتة للشهوات وارتفاع بالمضمون الروحي الباطن بارتفاع الجانب المادى الظاهر . بيد أنه يلاحظ مع ذلك أن هذا كله لم يكن قد استقام على قاعدة ثابتة .

لكن رابعة جاءت فضربت بسهم وافر في سبيل تقنين عدم الزواج عند أصحاب الطريق . ونظن أنه كان لها أثرها الحاسم في هذا التوجيه ، بعد أن كان الأمر في الغالب أمر مزاج شخصى عند الحسن ورياح وإبراهيم بن أدهم والداراني ومن إليهم ؛ إذ صار بمثابة قاعدة كان من الصعب على الصوفية من بعد ذلك الخروج عنها ، وحتى انقطع الشيخ عبد القادر الجيلاني في الجواب فلم يُحرِّق قولاً لما أن أغمه السائل إياه عن سبب تزوجه . ذلك لأن رابعة امرأة . والغاية العظمى عند المرأة في الحياة هي الزواج ، ولذا كان له عند المرأة أهمية كبرى أشد بمراحل عدة من أهميته عند الرجل . فإذا وجدناها ، وهي المرأة ، تمحّص على عدم الزواج ، فما أبلغها من قدوة عند أهل الطريق ! ومن هنا كانت مسألة خطبتها مرتين : لعبد الواحد بن زيد ، الصوفي الكبير ، ولمحمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة ، غنية بالدلالة على قوة نفسها في هذا الباب . فاجابتها عن خطبة الأول بقولها بعد أن حجبتة أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر الأكبر في نظرها ونظر كل صوفي حقيقى وهو طلبها للزواج منه : « يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت في من آلة الشهوة ؟ ! » ^(١) — هذه الإجابة هي أبلغ ما يمكن أن يقال في هذا الباب . ففيها تقرير مُرّ لهذا الصوفي الذي يريد الإقبال على الدنيا ، وفيها لوم قارس له لأنه لم يفهمها ولم يفهم رسالتها وهي أنها انقطعت لله ، حبيها الأوحى ، فلا تريد أن تشغل بغيره ؛ وفي هذه الإجابة كذلك وصف للحال التي صارت إليها وهي أنها صارت من القداسة والطهارة والروحانية بحيث لا يجوز

(١) راجع قبل ص ٥١ ؛ وقد أورده أيضاً « لسان العرب » تحت مادة : شهوا .

لأحد أن يخطر بباله أن فيها أثارةً بعدُ للدنيا والشهوة . وهي معانٍ قد أكدتها مرة أخرى في جوابها عن اختيار كبراء أهل البصرة لها زوجةً لحمد بن سليمان ، أمير البصرة (كان والياً على البصرة سنة ١٤٥هـ ؛ وتوفي سنة ١٧٢هـ) ، كما ذكرنا ذلك الجواب من قبل^(١) ، وفيه تنصحه بأن ينصرف عن الدنيا ويتهيأ لأُمور الآخرة ويصوم الدهر حتى يكون الموتُ فطرته ؛ وهي ليست ممن يطلب المال والجاه ، وكل ما يملك منهما لا يمكن أن يغريها على الاشتغال عن الله طرفة عين .

— ٧ —

إنما نذرت رابعة نفسها لله ؛ وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله ، فإذا كان لها أن تقتن بأحد أفبغير الله تستطيع الاقتران ؟ !

هنا تأتي نظريتها في الحب فتؤيد نظريتها في الزواج . وهذا هو الجديد حقاً في مذهب رابعة في التجرد والعزوبة .

ونقدم بين يدي هذه النظرية بمقدمات في المصطلح الفني وفي تطور معنى الحب عند الصوفية ، فنقول إنه يلوح أن كلمة « محبة » بدت غريبة لما استعملت لأول مرة . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ ماسينيون : « كان عبد الواحد بن زيد يرى أن كلمة « عشق » هي الوحيدة المعترف بها في التحدث عن الله ، وكان يرفض كلمة « محبة » على أساس أنها أثر لا يليق من آثار اليهودية والمسيحية ، مؤمناً كل الإيمان بالعشق الإلهي (سورة المائدة : ٢٠) . أما مالك بن دينار ومضر القارى و (ذوالنون) المصري فيقترحون اللفظ « شوق » ، بيد أن كلمة « حب » (تَحَبُّبٌ ، محبة) التي اختارها أبان بن أبي عيَّاش ويزيد الرقاشي وجعفر الصادق (فيما يزعمون) ورابعة — هي التي انتهت بالظفر والسيادة بفضل

معروف (الكرخى) والمحاسبي»^(١). وهو يشير في موضع آخر^(٢) إلى أن كلمتي عشق وشوق تشيران إلى الرغبة، أما كلمة محبة فتعبر عن الاتصال الجنسي.

فإذا كان تقرير ماسينيون هذا لمذهب عبد الواحد بن زيد صحيحاً — ولسنا ندرى من أين استقاه لأنه لا يشير إلى مصدر — فإنه سيكون مذهباً غريباً حقاً:

أولاً لأن كلمة «حب» (ومحبة، وتحبب) قد وردت في القرآن بياناً لإمكان قيام صلة بين العبد والله في آيتين على الأقل هما «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّكُمْ الله» (آل عمران: ٣١)، «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه — أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» (المائدة: ٥٤)، فكيف يجفل عبد الواحد بن زيد إذن — وهو من رجال القرن الثاني، أى من المتقدمين — من مثل هذا الاستعمال أو يفضل عليه استعمالاً آخر وهو «العشق» لانجده أثراً في القرآن، فضلاً عن السنة: فالأحاديث التي ورد فيها لفظ «الحب» عديدة^(٣)، بينما لانكاد نعثّر على حديث واحد ورد فيه لفظ العشق؟ وفضلاً عن هذا فإن المعنى اللغوي أدعى إلى اتخاذ كلمة محبة (أو حب) بدلاً من عشق، لأن العشق اسم لما جاوز الحد في المحبة، فإذا كان لا يجوز كلمة محبة (أو حب) فكيف يجوز ما فضل عنها وزاد؟! لهذا نرى صاحب «جامع الأصول» يقول: «ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى، لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة، ولا يجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه، بل لا يبلغ إلى ذلك القدر ولو اجتمعت محبة الخلق كلهم». لهذا كله نرى أن ما نسب إلى عبد الواحد ابن زيد لا يمكن أن يكون صحيحاً، ولذا نرفضه جملة.

(١) ماسينيون: «بحث في أصول المصطلح الفني للتصوف الإسلامى»، ص ١٧٤ باريس سنة ١٩٢٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢.

(٣) ذكر الشيخ ضياء الدين الكمشخاني خمسة منها في كتابه «جامع الأصول»، ص ٢٨٣.

وهذا يفيدنا في مسألة هامة تعيننا هنا وهي أننا نذهب إلى أن أحداً لم يتكلم في الحب (أو المحبة) الإلهي قبل رابعة، وأنها هي أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي، بالمعنى الحقيقي الكامل للحب، لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيراً ظاهرياً.

على أن تمت لفظاً ثالثاً يعبر عن تلك الصلة — إلى جانب « الحب » (أو المحبة) والعشق — وهو « الخلّة ». ويظهر أن هذا اللفظ قد استخدم على عهد رابعة، وصار نظرية عند صديقها رياح بن عمرو القيسي. ويفسره صاحب « جامع الأصول »^(١) هكذا: « أما الخلّة فهي مشتقة من تخلل الشيء في الشيء. وسمى الخليل خليلاً لتخلل خليله في قلبه، فوجوده مُستَهْلَكٌ في وجوده. فإذا تكلم تكلم فيه، وإذا سكت فهو نُصَبُ عينيه في كل حال. وأنشدوا في ذلك:

قد تخللت مَسْلَكَ الروح مني ولذا سمي الخليل خليلاً
أنت هي وهمتي وحديثي ورقادى إذا أردت مقيلاً
والصوفي إذا بلغ منزلة « الخلّة » هذه بينه وبين الله سقطت عنه التكاليف وإستباح لنفسه ما لا يستبيحه الله لغيره من الناس، لأن كل ما في الدنيا ملك لله، وبالنسبة إلى الله ينتفى معنى الحرام والحلال، فكل حلٌّ له، وفي حال الخلّة يكون العبد الخليل بمثابة الله نفسه أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره ما لا يمكن غيره أن يستحله. فإذا كان كل ما في الدنيا ملكاً لله، فخليقه الصوفي. هذا أن يستحل ما يشاء من هذا الملك.

ويلوح أن هذا قد صار مذهباً منذ أن وضع أسسه رياح بن عمرو القيسي وكُتِّب. إذ نرى أبا الحسين الملقب في كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء

(١) « جامع الأصول »، ص ٢٨٦.

والبدع» ^(١) يجعله مذهباً يندرج تحت أحد مذاهب الزنادقة ، وهو المذهب الذى يسميه باسم مذهب «الروحانية» . والروحانية أصناف ذكر منها خمسة . ولا شك فى أنه يقصد «بالروحانية» هنا الصوفية ، لأن المذاهب التى يسردها ومن ذكر لها من أشخاص هى مذاهب صوفية . ويعتينا هنا الصنف الثانى من الروحانية ؛ قال اللطى :

« ومنهم صنفٌ من الروحانية زعموا أن حبَّ الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبُّه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان ذلك عندهم ، وكانوا عنده بهذه المنزلة ، وقعت عليهم «الخلَّة» من الله ، فُجِعِلَ لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والقواش كلها على وجه «الخلَّة» التى بينهم وبين الله ؛ لاعلى وجه الحلال ، ولكن على وجه «الخلَّة» كما يَحِلُّ للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه [٩١] — منهم : رياح وكُتَيْب ، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها . كذبوا ! أعداء الله ! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يُسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول : لست هناك ؛ ويذكر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قاله . وأهمية هذا النص لاتصاف لها قيمة لأن المؤلف من القرن الرابع ؛ ولأن نسبة هذا المذهب إلى رياح بن عمرو القيسى (المتوفى سنة ٥١٨٠ = ٧٩٦م) يجعل المذهب قديماً قد عُمر طويلاً إلى حين عهد المؤلف ، إن لم يكن فى أتباع يؤمنون به فعلى الأقل كان لا يزال مذهباً يشغل الناس . ثم يهتمنا خاصة لأنه مذهب رياح القيسى صديق رابعة . فإذا لاحظنا من ناحية أخرى أن الآيات التى ذكرها صاحب «جامع الأصول» وجعلها تعبيراً عن فكرة «الخلَّة» ، هى من الآيات المنسوبة

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد اللطى : «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» ص ٩٠ —

ص ٩١ من مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٥٩ .

إلى رابعة ، بدت لنا أهمية هذا المذهب في بحثنا عن نظرية الحب عند رابعة .
 فقد ذكر صاحب « القوت » أن هذه الأبيات لها فقال : « ومن قولها النادر في مقام
 الخلة . . . » ، ثم يأتي بذينك البيتين ، كما أنه يقول قبل هذا مباشرة :
 « وقد كانت (أى رابعة) تذكر الأُنس في وجدها وترتفع إلى وصف معنى
 الخلة في قولها السائر :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحثُ جسمي من أراد جلومي

فالجسم مِنِّي للجليل مؤانس . وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي »^(١)

وبغض النظر عما لنا على صحة نسبة هذه الأبيات إلى رابعة من اعتراض ،
 فإننا نكتفي هنا بإبراز ما قصدنا إليه وهو أن أبا طالب المكي كان يرى أن رابعة
 قد « ارتفعت إلى وصف معنى الخلة » ، وأن لها أقوالاً « نادرة » في مقام الخلة ؛
 وقوله « نادر » معناه هنا « بديع » ، « جيد كل الجودة » إلخ .

وإذن شاركت رابعة صديقتها رياحاً القيسي في القول بمقام الخلة ،
 فيجب أن ندخل ذلك في نظريتها في الحب . ولعل هذا أن يفسر لنا تطور نظرية
 الحب لديها إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يفسر ذلك على أنه كان على وجه
 « الخلة » بينها وبين الله . أجل ، ليس عندنا من الوثائق ما يكفي البيان للمدى
 الذي بلغته في القول بالخلة ؛ بيد أن اعتبار هذا المعنى قد يفيد في إيضاح بعض
 الجوانب الغامضة من مذهبها . ومن هنا نرجح أنها لا بد أن تكون قد شاركت
 صديقتها رياحاً في إيجاد هذا الرأي ، أعني القول بالخلة مع ما تقتضيه من إباحة
 أو سقوط للتكاليف ، أو في القليل آمنت به وسلكت وفقاً لما يقتضيه .

على أن مقام الخلة هذا يمكن أن يفسر على أساس أنه شعور يتجاوز الخير

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ؛ وأورده الزبيدي في « إتحاف السادة »

والشر . ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا .
أما وهما — رابعة ورياح — قد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية ،
واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت وتخلت روحيهما نفحات الربوبية ،
ثم هما من جانب آخر قد خرجا عن الدنيا وأصبحا يطوفان بالملأ الأعلى ،
فإنهما قد صارا بمعزلٍ عن تلك القيم الأخلاقية ، أعنى فوق مستواها .
وهذا رأى خطير ، خصوصاً في مثل هذا العصر المبكر للفكر الإسلامى .
فهو يدل على نضوج سريع لهذا الفكر من ناحيتى الدين والروحية العليا ، وبخاصة
إذا لاحظنا أن من المسير أن نجد لمثل هذه الأفكار سوابق في الأفكار الشائعة
في تلك البيئة ، حتى يكون تأثير عنها . ويلوح كذلك أن هذا المذهب لم يجد
صداه السريع ؛ بل لا بد أن نتظر الحلاج في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع
كياً نجد صورة واضحة قوية له .

— ٨ —

نظرية رابعة إذن في الحب يدخل فيها معنى الخلّة ؛ لكن هذا هو الجانب
العملى أو الأخلاقى . أما الجانب العاطفى الخالص فيتمثل في بعض الأبيات
المنسوبة إليها ، وفي الأقوال التى يروى أنها تفوهت بها .
وأشهر هذه الأبيات تلك الرباعية المشهورة :

أحبك حين : حبّ الهوى ،	وحبّاً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حبّ الهوى	فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا (١)

(١) «إنحاف السادة» ، ج ٩ ص ٥٧٦ .

وأول ما تثيره هو ضجة نسبتها إليها . فكما يقول المرتضى الزبيدي : « حملها عنها (أى نسبها إلى نفسه) أهل البصرة وغيرهم : منهم سفيان الثوري وجعفر ابن سليمان الضُّبَّي وعبد الواحد بن زيد وحماة بن زيد » . على أن هذا ليس بدافعٍ للشك الجدِّي في إمكان صحة نسبتها إليها ؛ فإلى أن يقوم دليل عكسي ثابت بالوثائق الجازمة ، نستطيع أن نَعُدَّها لرابعةً حقاً .

في هذه الأبيات تميز رابعةٌ بين نوعين في الحب : حب الوداد أو الهوى ، والحب الخالص . والأول حب ناقص ، والثاني حب كامل . بيد أنها لا تختار هنا بين الواحد والآخر ، إنما تأخذ بهما معاً . ومن هنا فنحن نفترض لهذه الأبيات عهداً مبكراً شيئاً ، لم تكن قد بلغت فيه بعدُ المقام الأعلى للحب .

ولنبداً بحثنا هنا ببيان التفسيرات التي أدلى بها الصوفية لهذه الأبيات ؛ فنجد أول ما نجد أبا طالب المكي في « قوت القلوب »^(١) يفسرها هكذا : « فأما قولها : حب الهوى ، وقولها : حب أنت أهلٌ له ، وتفرقتها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويُخْبِرُهُ من لم يشهده . وفي تسميته ونعت وصفه إنكارٌ من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ، ولا قدر له به ؛ ولكننا نُجَمِّلُ ذلك ونُدل عليه مَنْ عرفه : معنى حب الهوى : أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق ، من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك هَلَى ؛ ولكن محبتي من طريق العيان ، فقرُبْتُ منك ، وهربتُ إليك ، فاشتغلتُ بك لما تفرغتُ لك ، كما قال الحب :
فَرَّغْتَ قَلْبَهَا اشْتِغَالاً بِذِكْرِي وكذا كلٌّ فارغٍ مشغولٌ

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ، أى ملآن

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ، ج ٢ ص ٦٦ وما يليها . وأورده المرتضى الزبيدي في : « تخاف السادة » ، ج ٩ ص ٥٧٧ .

بذكره حتى فاص فكادت أن تظهره فتقول : هو ابني . فعبّر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل .

وأما الحب الثاني الذي هو أهل له : تعني حبّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال . تقول : ثم إنني مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك في الآخرة على الكشف والعيان في محلّ الرضوان ، لأن حُبِّي لك لا يوجب لك جزاءً عليه ، بل يوجب عليّ كلّ شيء مما لا أطيعه ولا أقوم بمحقك فيه أبداً ؛ إذ كنت قد أحبيتك فلزمني خوفُ التقصير ، ووجب عليّ الحياء من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضتُ به من حُبِّك ، إذ ليس كمثلك شيء ، كما قال المحب :

أصبحتُ صَبّاً ، ولا أقول بمنّ خوفاً لمن لا يخاف من أحد
إذا تفكرتُ في هـواي له لمستُ رأسي : هل طار عن جسدي ؟
لولا أن الحب يُنطق ، والشوق يُغلق ، والوجد يُحرق . فالحبُّ لا يلام
لغيبه النفس عنه ، وإلا نام . تقول (أي رابعة) : فتفضلتُ عليّ بفضل كرمك ،
وما أنت له أهلٌ من تفضلك ، فأريتني وجهك عندك آخرّاً ، كما أريتني اليومَ
عندك أولاً ؛ فلكَ عليّ ما تفضلتُ به في ذاك عندى في الآخرة ، ولا حمد لي
في ذا هاهنا ، ولا أحمدي في ذاك هناك ، إذ كنتُ أنا وصلتُ إليهما بك ؛ فأنت
المحمود فيهما لأنك وصلتني بهما . فهذا الذي فسرناه هو وجد المحبين المحققين .

وخلاصة تفسير أبي طالب الملوكي هذا هو أن حب الهوى هو الصادر عن طريق النعم والإحسان ، أعني الحب الناشئ عن المنح والهبات والأفضال ، فهو حبّ التنعم بأنعم الله ، هو حب حسيّ ، لأن المقصود بالنعم هنا النعم المادية ، لا الهبات القدسية . بيد أن هذا الحب ليس متغيراً بتغير أحوال النعم : فإذا كثرت

زاد وإذا قلت نقص؛ إنما هو حب ثابت، لأن صاحبه نظر إلى المعنى السكامن وراء النعمة أيتاً كان مقدارها، وهو معنى لا يتغير، لأنه مجرد الفضل، ودليل الرضا؛ فهو إذاً لا يتجزأ ولا يختلف باختلاف المنعم به، وبهذا يلحق بالمعنى الروحي اللامادى. وإذن فالاختلاف بينه وبين الحب الآخر، الخالص «لوجه العظيم»، ليس في ماهيته بقدر ما هو في دواعي إثارته ومصادر إيجاده. ولهذا كان عن طريق العيان المباشر.

أما الحب الذى هو أهل له فهو — فى تفسير صاحب «القوت» — «حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال» — أعنى أنه الحب الذى لم يكن باعته نعمة، ولا مدخل فيه للتمتع الحسية، بل باعته المحبوب نفسه لذاته وبذاته. وهذا الحب لا يستوجب جزاء عليه، بل كل الواجبات تقع على الحب وحده، وهى واجبات إنما يفرضها مجرد الحب، ويستلزمها مجرد وجود المحبوب؛ فلما كان وجوده لا متناهياً، فإن الحب لا متناهٍ، والواجبات هى بالتالى لا متناهية، ولذا يوجب هذا الحب على المحبوب كل شئ مما لا يطيقه ولا يقوم بحقه فيه أبداً. ومن هنا مازجه الخوف: الخوف من عدم الوفاء بالواجب، وهو خوف دائم لأن الواجب فى هذه الحال هو كما قلنا لا يفتى أبداً، ولا يقوم المرء بحق المحبوب فيه أبداً. ومن هنا أثرت هذه المسألة التى ذكرها المحاسبي فقال: «قيل لمضر القارىء: الخوف أولى بالحب أم الشوق؟ فقال: هذه مسألة لا أجيب فيها: ما اطلعت النفس على شئ قط إلا أفسدته»^(١) على أن هذا الخوف هو الذى يثير القلق فى الحب، والقلق هو الذى يهب هذا الحب — بالرغم من طابعه السكونى الاستاتيكي — جانباً حركياً ديناميكياً ظاهراً؛ وهو جانب لا ينتهى إلا فى مقام الوصول الكامل، وأنى للصوفى الحقيقى أن يبلغه أهيات أهيات!

(١) أورده أبو نعيم فى «حلية الأولياء»، ج ١٠، ص ٧٨. القاهرة سنة ١٩٣٨.

وهذا المعنى أفاض فيه المحاسبي في الموضع نفسه فقال : « الحب لله في نفسه استنارة القلب بالفرح لقربه من حبيبه . فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوة بذكر حبيبه . فالحب هائج غالب ، والخوف في قلبه لازم لا هائج ؛ إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية ، وهُدِيَ لأركان شدة الخوف ، وحل الأنس بقلبه لله — ف علامة الأنس استئصال كلٍّ أحدٍ سوى الله . فإذا أليف الخلوة بمناجاة حبيبه ، استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها . ومن ذلك قول ضيغم العابد : عجباً للخلقة كيف استنارت قلوبهم بذكر غيرك ! ! » . وفي هذا وصف جيد دقيق لهذا « الحب لله في نفسه » ، وهو ما تمنيه رابعة بالحب الثاني الذي « هو » (أى الله) أهل له .

ثم يتابع صاحب « القوت » تفسيره فيقول إن الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخرًا ، كما أراها وجهه عنده ذلك اليوم أولاً ؛ ومعنى ذلك أن الله قد تفضل عليها في هذه الحياة الدنيا بمعاينة سُبُحات وجهه ، وكذلك سيتفضل عليها برؤيتها إياه في الآخرة . فكأن قولها : « ذا » ، يشير إلى المعاينة في الدنيا ، وقولها : « ذاك » يشير إلى المعاينة في الآخرة . ثم إنها لا ترى لنفسها فضلاً في هذين الأمرين ، بل لله وحده الفضل في كليهما ، وله وحده الحمد على كليهما ، لأن الظفر بهما كان عن طريقه .

وهذا التفسير كله لا نكير عليه ، إلا شيء من عدم التوفيق ، خصوصاً في جانب حب الهوى . على أنه حاول أن يربط بينهما عن طريق فكرة المعنى الباطن في النعمة ، لا كمها أو كيفها ، مما أضفى على حب الهوى طابعاً روحياً ظاهراً . ووفق خصوصاً في إبراز فكرة العيان المباشر في الحب الأول لأنها معقد الصلة بين كلا الحبين ، إذ أن في هذه المعاينة المباشرة ما يضمن الجانب الروحي في حب

الهوى . إنما الذى يؤخذ عليه هنا هو أنه بالغ فى إيضاح فكرة العيان بالنسبة إلى حب الهوى ، حتى جعله يتجاوز عن مقصودها الحرفى . فهى تقول إن حب الهوى هو شغلها بذكر الله عن سواه . فهى إذاً فى مقام الذكر ؛ وحقيقة الذكر هى ، كما يقول الكلاباذى ، « أن تنسى ماسوى المذكور فى الذكر ^(١) » ؛ فهو نسيان كل شىء ، و ذكر شىء واحد هو الله . ولذا يتم على مرحلتين : نسيان ماسوى الله ، والتخلص من هذا النسيان . وفى هذا يقول صاحب « جامع الأصول ^(٢) » : « الذكر : وأصله هاهنا الخلاص من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق . وصورته فى البدايات : الذكر الظاهر ؛ وفى الأبواب : الذكر الخفى ؛ وفى المعاملات : ذكر الفعل لما يريد — برؤية الأفعال كلها منه والأمور كلها بيده ؛ وفى الأخلاق ذكر الأخلاق الإلهية والتشوق إلى التخلق بها . ودرجته فى الأدوية : تلقى المعارف والحقائق منه ، وإلقاء السمع فى إسرارٍ إليه . وفى الأحوال : لزوم المسامرة والمناجاة . وفى الولايات : دوام المصافاة والمناغاة . وفى الحقائق : دوام المشاهدة والمعينة . وفى النهايات : شهود ذكر الحق إياك ، والتخلص من شهود ذكرك إياه ، ومعرفة افتراء الذاكر فى بقائه مع ذكره » . فمن هذا يتبين أن فى الذكر مشاهدة ومعينة ، ولكنها ليست معينة الوجه للوجه بعد كشف الحجاب ؛ وإلا اختلط حب الهوى وحب الله فى نفسه ، أو الحب الذى هو أهل له . ورابعة حريصة على توكيد التفرقة فى هذه الرباعية . أجل ، قد تنتهى إلى المزج بينهما لما أن يبلغ الذكر مرتبة الحقائق ثم يصاعد منها إلى مرتبة النهايات ؛ بل هذا هو ما حدث لها فعلاً ؛ بيد أنها فى هذه المرحلة التى تعبر عنها هذه الأبيات لما تفعل بعد .

(١) أبو بكر الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) : « التعرف لمذهب أهل

التصوف » ، ص ٧٤ القاهرة ١٩٣٣ م

(٢) ص ٣٥١ .

إنها لا تزال تقول بثنائية في الحب : حب المذكور ، وحب الذكر ؛ ولم تفعل بعدُ ما سيفعله الحلاج من تفضيل حب المذكور (= حب الله في نفسه ، الحب الذى هو أهل له) على حب الذكر (= حب الله لنعمه ، وهو حب فيه متعة حسية شخصية)^(١). ففتى رَفَعَت رابعةُ هذه الثنائية ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نعود فنتم ما يتصل بتلك الآيات . فنقول إنه عن تفسير أبي طالب المكي هذا أخذ الغزالي في « الإحياء »^(٢) ، فقال : « ولعلها أرادت بـ « حب الهوى » حبَّ الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بمحظوظ العاجلة — ؛ وبـ « حبه لما هو أهل له » الحبَّ لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبَّين » . والغزالي بهذا لم يفعل إلا أن نقل ملخصاً كلامَ صاحب « القوت » بحروفه ، شأنه في أغلب فصول كتابه « الإحياء » في الموضوعات المشتركة بينه وبين « قوت القلوب » ، مما يعطينا شاهداً آخر على مقدار ما لدى الغزالي من أصالة !! والزبيدي^(٣) في شرحه « للإحياء » قد أشار إلى هذا في هذا الموضع نفسه فقال بعد إيراد تلك الآيات التى وردت في نص « الإحياء » : « وقد تكلم صاحبُ « القوت » على هذه الآيات بكلام ساطع الأنوار ، يعرفه من رُزِقَه (= الحب) وينكره من حُرِمَه . والمصنف (= أبو حامد الغزالي) رحمه الله أشار إلى زُبْدَة كلامه (= أى كلام صاحب « القوت » ، أبي طالب المكي) » .

فلنمض عن الغزالي إذن إلى الشيخ الحريفيش الذى ذكر هذه الآيات في إطار آخر وإن كان بصدد الحديث عن رابعة ، فقال : « قال سعد بن عثمان :

(١) راجع : ماسينيون : « عذاب الحلاج » ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٤ ، وراجع خصوصاً : ماسينيون : « بحث في أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ١٩٣ ، باريس سنة ١٩٢٢ .

(٢) المرتضى الزبيدي : « تحاف السادة » ، ج ٩ ، ص ٥٧٧ .

كنتُ مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخصٍ قد أقبل ، فقلتُ : يا أستاذ ! شخصٌ قد أتى . فقال لى : انظرُ من هو ، فإنه لا يضعُ أحدٌ قدمه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرتُ فإذا هى امرأة . فقلتُ : إنها امرأة . فقال : صديقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ، ولستُ من أهل التَّهم . فقالت : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول فى هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل — قوله تعالى « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟! » . — فقال لها : صدي الحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارفٌ بها ، وتتكلم بلسان المعرفة وتسالنى عنها ؟! فقال لها : للسائل حقُّ الجواب . فأنشدت تقول : أحبك حين ... »^(١) ثم يأتى بالأبيات الأربعة .

وواضح أن هذه القصة أسطورية إن قصد بهذه المرأة رابعة كما يريد المؤلف أن يرمى إليه . وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ (= سنة ٧٩٦ م) أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ؛ فهنا استحالة تاريخية إذن . وإنما هى من تلك الأقاصيص الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى لو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ؛ ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيفون فى التواريخ نفسها حتى ييسروا هذا التلاقى . والعلة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء هى تواتر السند بحيث يتصل الإسناد الحى ، لأن فى اتصاله ضماناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه ؛ كما هو شأن الروح العربية فى كل تصوراتها : ففى النبوة^(٢) نحرص على التسلسل

(١) الشيخ الحريفيش : «الروض الفائق فى المواعظ والرقائق» ، المطبعة الجينية ، القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ — سنة ١٨٨٦ م ، ص ١١٧ — والآية من سورة النساء رقم ٩٩ .

(٢) راجع كتابنا : «الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى» ، ص ١٤٣ — ص ١٤٤ ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين ؛ وفي الرواة ، المحدثين ؛ وفي الإجازات في مختلف مرافق الحياة الدينية . فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الغذة في عالم الروح العربية — ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخى الحى المتصل — : أعنى أن العلة هى القضاء على الذاتية ، وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ؛ ولذا نرى الإجازة الحقيقية ، أو الإسناد الحق ، لا بد أن ينتهى بالنبي أو الملك الصادر مباشرة عن الله فى خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها فى هذا الباب فكرة المصاحفة وتسلسلها التاريخى حتى تنتهى بالنبي ، والرسائل عديدة فى موضوع المصاحفة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها ^(١) .

إنما تفيد فى بيان الفكرة التى كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة . فإذن كان فى تقدير الصوفية أن رابعة هى التى لقنت الناس مذهب المحبة ؛ فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة . لهذا نرى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى ، رابعة .

على أننا نرى هذه القصة ترد بصورة أخرى فى كتاب « مصارع العشاق » لأبى محمد السراج القارى ^(٢) ، صورة قد ازداد زخرفها وارتفعت نبرتها ، ومن هنا

(١) راجع مثلاً « مصاحفة الرسول صلى الله عليه وسلم » لملا قاسم التويمجرى النفشبندى القادري ، وفيها يبين تسلسل المصاحفة منه إلى شيخه ثم من شيخ إلى شيخ حتى يرتفع إلى النبي ، فى مخطوطة الفاتيكان برقم ١٢٤٢ ورقة ٣٢ ب إلى ٣٣ ، وراجع فهرست مخطوطات برلين ١٦٠٦ — ١٦٠٨ وفهرست مخطوطات الفاتيكان للبقى لاقيدا ص ١٩٢ .

(٢) ص ١٨٠ — ١٨١ ، طبع الجوائب باستانبول سنة ١٣٠١ — ١٨٨٣ م وقد نقلها ، هن السراج ، الزيدى فى « تحاف السادة » ص ٩٠٨ .

انتهت على هيئة مأساة . ذكر السراج القارى فقال : « قال ذو النون : بينا أنا أسير على ساحل البحر ، إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شَعَر ؛ وإذا هي ناحلة ذابلة . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول . فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان . وعصفت الرياح واضطربت الأمواج وظَهَرَت الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض . فلما أفاقت بُحَّت (١) ثم قالت : سيدى ! بك تقرب المتقربون فى الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . أنت الذى سجد لك سوادُ الليل وضوء النهار ، والفلك الدَّوَّار ، والبحر الزَّخَّار ، والقمر النُّوَّار والنجم الزَّهَّار ؛ وكلُّ شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلىُّ القَهَّار :

يا مؤنسَ الأبرارِ فى خلواتهم	يا خيرَ من حَلَّتْ به النُّزَال
مَنْ ذاق حُبَّكَ لا يزال متبياً	فَرَحُ الفؤادِ — متبياً — بلبال
مَنْ ذاق حُبَّكَ لا يرى متبسماً	من طول حزن فى الحشا إشعال

فقلتُ لها : زينا من هذا ! فقالت : إليك عنى . ثم رَفَعَتْ طرفها

إلى السماء ، وقالت :

أحبُّك حبين : حبُّ الوداد	وحبُّاً لأنك أهلٌ لذاك
فأما الذى هو حبُّ الوداد	فحبُّ شَغِلْتُ به عن سواك
وأما الذى أنت أهلٌ له	فكشَفَكَ لِلْحُبِّ حتى أراك
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

ثم شَهَقَتْ شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا . فبقيتُ أنعجب مما رأيتُ منها ؛ فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشَّعر ؛ فاحتملنها ، فغيبنها عن عيني ، فغسلنها ثم أقبلن بها فى أكفانها ؛ فقلن لى : تقدَّم فصلٌ عليها . فتقدمتُ وصليتُ عليها وهنَّ خلفى . ثم احتملنها ومضين . « والقصة لا شك رائعة ، لكنها تنسب كلها إلى

أسطورة رابعة ، وما ذكرناها هنا إلا لأنه وردت فيها أبياتنا هاتيك . وكما هو الشأن دائماً في القصص حينما يتقدم بها العهد ، ضاع اسم رابعة ، ونسبت الأسطورة إلى جارية مجهولة ؛ ثم رقت حواشيها فأمعن فيها إزميل الخيال المثال ، وتداعت أطرافها فصال فيها الفن المسرحى وجمال : فكان افتتاح prologue في هذه النجوى التي وجهتها إلى الله ، وكان وصف لتجربة العشق الإلهي العنيفة القاسية ترددت فيها الأحداث الباطنة على مسرح القلب ، فلما بلغت العقدة ، بأن ارتفعت بالحب إلى حب الجلال والجمال ، حب الله في ذاته ولذاته ، كانت الخاتمة فأسدلت ستور مأساة غرامها الإلهي على مشهد أولئك الملائكة — النسوة اللاتي رفعنها إلى حيث ترقد رقدتها الأخيرة في السماء ، وكأنها جرتشن في «فاوست الثاني» ؛ لكن الذي رفعها إلى عليين لم يكن الأنوثة الخالدة Das Ewig=weibliche ، بل العشق الإلهي الشهيد . لكن من يدري ! فلعل الأنوثة الخالدة والعشق الإلهي سيان :

وعدم ذكر اسم رابعة في كلتا الروايتين المتقدمتين لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن الأبيات ليست لرابعة ، خصوصاً إذا لاحظنا تأخر زمن صاحبها ، وما اعتورها من ألوان التزيق المشكك في صحة الروايتين إجمالاً . بل يجب أن نضع اسم رابعة مكان الجارية « في الرواية الثانية » ، « والمرأة الصديقة » في رواية صاحب « الروض الفائق » ؛ ثم نضيفهما معاً إلى أسطورة رابعة دون أن يقدر ذلك في صحة بعض قسيمات هذه الأسطورة تاريخياً ، ومن بينها صحة نسبة الأبيات الأربعة إليها . على أن مجرد صياغة أمثال هذه الأساطير أنصع دليل على قيمة هذه الأبيات ، مما حمل الرواة على أن يبتدعوا لها إطاراً رائعاً يتفق وجلالها وعمق معناها ؛ ولعل هذا أن يفسر لنا السر في ألوان التزيق والاستعراض المسرحي الذي عمل من أجلها .

وفي وسعنا الآن بعد هذا العرض التاريخي لتفسير هذه الرباعية أن نجمل المقصود منها فنقول إن رابعة كانت لا تزال في ذلك الحين تترجح بين حبين : حب الهوى ، أو حب الوداد ، وهو حب مبعثه نعم الله على العبد ، وهو لهذا ليس خالصاً لوجه المحبوب ؛ والذكر فيه — وإن اقتصر على المحبوب — فإنه لا يزال يحول في ليل الحواس ، لأنه تجريد مستمر للمحسوس ، وبالتالي ذكر للمحسوس ، وفي الذكر بقية من التعلق . ثم حب الله في نفسه كما يقول المحاسبي ، أو « الحب الذي هو (= الله) أهل له » كما تقول هي ، وهو حب لا باعث له إلا المحبوب نفسه ، وليس فيه حب للذكر ، أي النعمة والمحسوس ، بل هو حب للمذكور وحده ، ولوجه ذي الجلال والإكرام . وفيه تنكشف الحجب حتى تيسر المعاينة . وليس في قولها هنا ما يؤذن صراحة بأنها ظفرت بهذه المعاينة فعلا لوجه الله ؛ بل هي في معرض الوصف لما عسى أن يؤدي إليه هذا الحب . وهي لا تزال تشعر بأن ظفرها بالغاية في كلا النوعين من الحب لا يمكن أن يأتي إلا عن طريق الهبة من الله ، شأن ذلك شأن التوبة كما رأينا آنفاً ؛ مما يؤكد مرة أخرى أنها لا تزال في الدور السلبي الذي تتلقى فيه كل شيء عن الله ، فلا تزال إذن في حال انفعال مطلق بالنسبة إليه .

لهذا كان عليها أن تناضل في طريق الحب حتى تمحيل الجانب السلبي إلى جانب إيجابي ، شأن كل صوفي حق . لأن السلب هو دور تمهيدى فحسب ، فلو اقتصر عليه الصوفي لما وصل . ويمكن أن يشبه الأمر هنا بأمر العقل الفعّال وأمر العقل المنفعل : فهذا الأخير مرحلة تمهيدية ، فيها تقبل خالص للصور منطبقة على المحسوسات ، ولا يزال المرء فيه عالة على الخارج ؛ وإنما يبلغ العقل مرتبة

الكمال إذا استحال إلى عقل فعال ، يبدع المدركات ويفيض بالمعقولات . فمثل العقل الفعال والعقل المنفعل هو مثل الدور الإيجابي والدور السلبي في طريق التصوف ، ومنه طريق المحبة .

لكن الانتقال والتصاعد من دور السلب إلى دور الإيجاب مليء بالمتاعب والمجاهدات وألوان الألم وخيبة الأمل . وكلنا يذكر تلك الصفحات الرائعة التي كرسها صوفي مثل يوحنا الصليبي San Juan de la Cruz لما يعانيه المرء في «الليلة الظلماء» . فماذا كان حال رابعة في ليلتها هي الظلماء ؟

لدينا عنها روايات وأقوال ، يأتي على رأسها ما حكاه العطار في «التذكرة» فقال : «يحكي أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما ثمت ألم عساك تشكين منه ؟ فأجابت : واحسرتاه ! العلة التي أشكوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجه . إنما دواؤها الوحيد رؤية الله . وما يعينني على احتمال هذه العلة إلا رجائي أن أحقق غايتي هاتيك في العالم الآخر» .

ما أشبه قولها هذا بقول أوغسطين : «أموت من كوني لا أموت كما أرى وجهك» ! كلاهما يسعى لرؤية الله ، لكنه لم يبلغ بعد مرتبة تسمح بتحقيق هذه الرؤية ؛ ففقط من بلوغ هذه الدرجة في الدنيا ؛ ولذا يطلب الموت لأنه وحده الذي سيمسّر السبيل إليها . إنه إذن في حال اليأس من البلوغ ، والقنوط من الوصول .

وما أبدع العبارة في وصف ما تشكوه ! لقد ألحّت عليها الرغبة في الرؤية ، حتى استحالت مرضاً ، مرضاً تألم له ، لأن الحب قد صار من القوة والنفوذ بحيث صارت له آثار توغل في أعماق الروح فتصيبها بالعلّة . هنا «المرض حتى الموت» من شدة الألم العالى ؛ هنا «الصرخة من أعماق الهاوية» ، هاوية الليلة الظلماء للعواس ، وإن كانت تبذل كل ما وسعها للخلاص منها ؛ بل هي في عروج من

« ليلة الحواس » إلى « ليلة الروح » ، لكنها لا تزال تتخبط في الظلام ، وهيئات بعد أن يبرز فجر . نعم ، إن طائفاً من النور يطوف بروح رابعة بين الحين والحين ، وهو طائف « الرجاء » المنحدر إليها من حفاقي عليين ؛ لكنه نور محجوب ، نور خاطف ، نور يصارع الليلة الظلماء في لفة وإعياء كأنه الخيوط الأولى المتناثرة في صفحة الأفق الوسنان . ومع هذا فلتتعلق بأهداب هذا النور الخاطف ، ففيه من الرؤى ما يعينها على أن تتذوق مقدماً Avant-goût أثارة مما ستذوقه بعد في الحضرة الكاملة . هي رؤى من نوع تلك التي وصفها يوحنا الصليبي فقال : « تتخطف البصر صوراً ... ورؤى للقديسين والملائكة ... وأضواء وإشعاعات ... وتسمع الأذن كلمات غريبة ... ؛ ويستروح الشم عطوراً فاغمة ... ؛ ويستطيب الذوق طعوماً شبيهة محضنة الحلاوة ؛ ويحسُّ اللس نعومة عميقة . لكن هذه الظواهر جسمانية على الأخص ، لهذا لا بد من الظن أنها ليست من مصدر إلهي » ^(١) . فلا بد من استبعاد حتى هذه الصور نفسها ، خوفاً من أن يقتصر عليها المرء فتزله قدمه ، أو بالأحرى يحسب نفسه قد وصل وما كان من الواصلين . ولذا فإن في بوارق هذا الرجاء من الفرر بقدر ما فيه من الفائدة .

إن هذا الرجاء في الآخرة ، وهو الاشتياق إلى الجنة ، لا يزال متلبساً بالمحسوس لأنه يفترض أن الحب لا يزال يطلب جزاءً ، وأنه ليس خالصاً لوجه الله ، بل فيه طمع في الجنة ، طمع في مادي محسوس . ومن هنا كان عليها أن ترتفع فوق هذه المرتبة التي تعبر عنها القصة التي رواها العطار ، فتفعل ما سيفعل يوحنا الصليبي من أطراح هذه البوارق الخداعة . وذلك بأن تعدّ في الشوق إلى الجنة نفسها خطيئة ؛ وهو ما عبّرت عنه أجمل تعبير فيما حكاه الكلاباذي في كتاب « التعرف

(١) يوحنا الصليبي : « صعود الكرمل » ، ج ١ ص ٩١ ترجمة هـ . هورناتير ،

باريس سنة ١٩٢٣ : Saint Jean de La Croix : Montée du Carmel, tr. H. Hornaert

لمذهب أهل التصوف « في باب « لطائف الحق بهم في غيرته عليهم » فقال :
« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى فقالوا : ما حالك ؟ قالت : والله
ما أعرف لعلتي سبباً ! عُرِضْتُ عَلَى الْجَنَّةِ فَمِلْتُ بِقَلْبِي إِلَيْهَا ؛ فَأَحْسَبُ أَنَّ
مولاي غار عليّ فعاتبني ؛ فله العُتْبَى » ^(١) . وقد روى ذلك المناوي في « طبقات
الأولياء » فقال : « وَمَرِضْتُ (أى رابعة) ، فقال لها عَوَّادها : ما سبب عِلَّتْكَ ؟
قالت : نظرت بقلبي إلى الجنة فأذاني ، فَتَبَّتُ أَنْ لَا أَعُودَ » ^(٢) . والمعنى قريب في
كلتا الروايتين ، وخلاصته أنها صارت تعدُّ النظر بقلبها إلى الجنة بمثابة إثم اقترفته ،
يعاقبها الله عليه ؛ ولذا تابت عنه وقررت أن لا تعود إليه . فبينما في رواية العطار
السالفة نرى رابعة لا تزال ترمق الجنة بنظرها وتضع رجاءها فيها ، نجد ههنا ترى
في هذا منكرأ تستحق من أجله العقاب ، أو في القليل العتاب من الله . وهذا يؤذن
بتطور هائل في سلوك رابعة — إنها الآن في مقام قاب قوسين أو أدنى .

ألا فلتتقدمي إذن بكل شجاعة في هذا الطريق ، أى رابعة ! لقد بدأت
الخطوة الأولى في المرحلة الحاسمة النهائية ، فماذا يحتجزك ؟ أبقية من تقاليد وأوضاع ،
وسُؤار من سُنَّة فقهاء ، وحرف صامت جامد ؟ إذن فلتكسري التقاليد ولتقلبي
الأوضاع ! إذن فلتستني سُنَّة أخرى ، فما سُنَّة الفقهاء إلا إحدى السُّنَنِ ، هي سنة
المجموع والجماعة ، فلا تصلح للفرد الممتاز ! والحرف الصامت ماذا يخيفك منه ؟
الحرف يَقْتُلُ ، والروح تَحْيِي ؛ والحرف رمز ، والمقصود هو المعنى ، فهياً أعاني
الثورة على الحرف القاتل كما ترفعى راية الروح الحية ؛ واتحطمي قيد الرمز ، حتى
تنعمي مع الأرواح الزكية بالمعاني العالية المستورة ! تشجعي إذن وتقدمي غير هيابة !

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ١٢١ ، نشرة آربري ، القاهرة سنة ١٩٣٣ . وذكر ذلك العطار في « التذكرة » ، ج ١ ص ٧٠ .

(٢) مخطوط الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ عام ، ورقة ١٠٥ ب .

وتقدمت رابعة تمشى أول الأمر على استحياء لا يزال يشيع في مثل قولها الذي لا بد أن ينتسب إلى ذلك العهد ، وهو ما رواه المناوي من أن مفياناً الثوري قال لرابعة : « ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته حباً وشوقاً إليه »^(١) . فهي هنا تقتصر على وصف حالها الجديدة ، وهي أنها بدأت تدخل في ملكوت « الحب الذي هو » أهل له « ؛ فلم تعد تحب الله إلا الله ، لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من عذاب النار . فلهجتها لا تزال هادئة ، وكأنها إنما تريد أن تميز بين صنفين من العابدين : صنف يعبد الله على رغبة أو رهبة ، وصنف قد صار بمعزل عن الرغبة والرهبة وارتفع إلى معنى الحب الأعلى الذي لا يطلب من وراء ذلك غير وجه المحبوب ؛ وتكتفي بأن تدمع الحب الأول بأنه حب أجراء السوء ، أما الآخر فهو حب العابدين المتقين . تلك إذن خطوة أولى ، فلتتبعها بثانية بأن تبدأ في عتاب الله نفسه على اتخاذ هذه المعاني : الرهبة والرغبة ، والتجائه إليهما في دعوى الناس إلى طاعته . وإذا كانت قد بدأت العتاب ، فما ذلك إلا لأنها قد تحققت في مقام الخلّة بينها وبين الله ؛ فلا تثريب عليها أن تلجأ إليه ؛ إذ ما أجمل العتاب بين الخلّان ! وهل تقوم الخلّة والصدّاقة حقاً إلا مع العتاب ؟ ! لذا نراها تقول هنا ما يرويه المناوي أيضاً حين قال : « قال مالك بن دينار : أتيتها (أى رابعة) فإذا هي تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! »^(٢)

من هنا تبدأ الجرأة في اللهجة لدى رابعة في حديثها مع الله ، ولولا أنها بمقام الخلّة ، لنعنتنا ذلك بالاجترأ ببله التطاول .

(١) عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الصوفية » ، مخطوط الظاهرية ، رقم ١٦٤ ، عام ، ورقة ١٠٥ .

(٢) الموضع نفسه .

والآثار التي لدينا في هذا الباب قليلة وبالأأسف الشديد، لا تكاد تتجاوز أثرين:
الأول ما أورده ابن تيمية في رسالة سئل فيها أن يدلى برأيه في بعض الأقوال
الغريبة الواردة عن بعض الصوفية، ومن بينها أنه « قيل عن رابعة إنها حَبَّتْ
فَقَالَتْ (أى وهى تشير إلى الكعبة) : هذا الصنمُ المعبودُ في الأرض، وإِنَّه
مَا وَجَّهَ اللهُ وَلَا خِلَافَ مِنْهُ »^(١).

وابن تيمية يرى أن هذا القول لا بد أن يكون كذباً على رابعة، لأنها كانت
من الإيمان والتقوى بحيث لا يتصور صدور هذا عنها. ثم راح يفند هذا القول—
أيا كان صاحبه؛ قال: « وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت إنه الصنم
المعبود في الأرض — فهو كذبٌ على رابعة. ولو قال هذا مَنْ قاله لكان كافراً
يستتاب؛ فإن تاب، وإلا قُتِلَ. وهو كذب، فإن البيت لا يعبدُه المسلمون،
ولكن يعبدون ربَّ البيت بالطواف به والصلاة إليه. وكذلك ما نُقِلَ من قولها:
والله ما وجه الله ولا خلا منه — كلام باطل عليها. وعلى مذهب الحلولية لا فرق
بين ذاك البيت وغيره في هذا المعنى؛ فلائى مزية يُطاف به وَيُصَلَّى إليه وَيُحْجُّ،
دون غيره من البيوت! وقول القائل: ما وجه الله فيه — كلام صحيح. وأما قوله:
ما خلا منه — فإن أراد أن ذاته حَالَةٌ فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل،
وهو مناقض لقوله: ما وجه فيه. فهذا — مع أنه كفر وباطل — يوجب ألا يكون
للبيت مزيةٌ على غيره من البيوت؛ إذ الموجودات كلها عندهم كذلك »^(٢).

ويلاحظ على ابن تيمية هنا أولاً أنه يكذب هذا القول على أساس
عقلى يفترض فيه أن رابعة — وهى التقية المؤمنة كما هو مشهور عنها،

(١) ابن تيمية: « مجموعة الرسائل والمسائل »، ج ١ ص ٦٢، القاهرة ١٣٤١ هـ =

سنة ١٩٢٢ م.

(٢) ابن تيمية: « مجموعة الرسائل والمسائل »، ج ١ ص ٨٠ — ص ٨١، القاهرة

سنة ١٣٤١ هـ = سنة ١٩٢٢ م.

وابن تيمية يفهم التقوى هنا بمعناه الخاص ، أى السُّنَى الحرفى - لا يمكن أن تقع فى مثل هذا الكفر ، - بيد أن هذا التكذيب يقتضى أن يكون هذا كُفْراً فى نظر رابعة نفسها ، حتى لا يجوز لها أن تقول هذا - وهو اقتضاء لأصل له ، لأن رابعة ترى فى هذا سموّاً بالإيمان ، مادامت هى فى سبيل التجريد عما هو دينى كلٌّ ما يدل على المعنى الحسى . وهل أدلّ على المعنى الحسى من الكعبة وما يلابسها من طقوس ومراسم تتصل بالطواف وتقبيل الركن والمقام وما يشبه عبادة الحجر الأسود ورمى الجمار وما يقال فيه من دعوات ! ونقدّها لهذا كله - ضمناً - ليس يصدر عن نفس الدوافع التى صدر عنها أمثال ابن الراوندى فى نقده « لرمى الحجارة ، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر ، والعدو بين حجّرين (الركن والمقام) لا يتفمان ولا يضران : وهذا كله مما لا يقتضيه عقل : فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبى قُبَيْسٍ وحِراء ، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت^(١) » . بل يصدر عن الإمعان فى السمو بالحياة الدينية بحيث تصفو من كل شوائب الحسّ . وابن تيمية قد أخذ هذا القول بما يؤخذ به أمثال أقوال ابن الراوندى هذه ، ومن هنا أنكر أن يكون ذلك القول لرابعة . فابن تيمية إذن قد أخطأ فهم المقصود من كلام رابعة ، وعلى أساس هذا الفهم الخاطيء بنى تكذيبه ، وما بنى على خطأ فهو خطأ ، وإذن فتكذيبه غير قائم على أساس صحيح . ولهذا فلا نستطيع أن نقيم له وزناً .

كما يلاحظ ثانياً أنه ، وقد كانت يعرض الرد على القائلين بوحدة الوجود والقائلين بالحلّول ، قد فهم هذا القول المنسوب إلى رابعة على أساس فكرة الحلّول أو وحدة الوجود ، فأخطأ الفهم مرة ثانية ، لأن ما استهدفته رابعة ليس يقتضى الحلّول أو وحدة الوجود إلا بتعسف لادّعاء له هنا ؛ لأن قولها « والله ما وُلِّجَ الله

(١) راجع كتابنا : « الإلحاد فى الإسلام » ص ١٠١ - ١٠٢ ، ثم ص ١٢٩ - ١٣٢ .

ولا خلا منه» — لا يقتضى غير التسوية بين هذا البيت وبين غيره من البيوت؛ فالإقتصار على هذا البيت وما استتبع ذلك من قيام نوع من الوثنية حوله هو إقتصار لا مبرر له ، لأنه أسرَّ للخلقة فى رتبة شىء معين يفضل على غيره ، مع أن المخلوقات تستوى عند الله من وجهة نظره ، والأشياء خصوصاً أكثر من الأحياء . وابن الراوندى حينما قال بهذه التسوية بين البيت المحرم وبين غيره من البيوت لم يقم ذلك على أساس من الحلول أو وحدة الوجود ، فما كان أبعدهما عن ذهنه ! كذلك رابعة : رأت أن الوقوف عند بيت دون آخر ، أى عند أثر من الخلق دون آخر ، فيه تضيق من أفق الخليفة ، وفيه حصر للألوهية ، فضلاً عما فيه من حسية فاضحة ، بل وشرك فى إضفاء جانب إلهى على هذا البيت المادى القانى . وفى القرآن تنبيه على ما كان عليه أهل مكة من عبادة لهذا البيت ، وذلك فى قوله تعالى : « فليعبدوا ربَّ هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (سورة قريش : ٤) ، ففيه رد على أولئك الذين عبدوا — أو كادوا — هذا البيت من دون الله . وإذن فرابعة إنما تغطى لهاتين الآيتين كل معناها وتتابع الغرض المقصود منهما حينما تقول قولها هذا عن البيت المحرم : إنه الصنم المعبود فى الأرض ، وإنه ما وجه الله ولا خلا منه .

وإنما الحلول هنا أن تعالى فى تقديس هذا البيت بحيث تشعر بأن الله كأنه حالٌّ به كما آل إليه أمر الحج ، على الأقل فى أذهان الجمهور من الناس : فهذا فعلاً هو ما يسميه ابن تيمية نفسه^(١) باسم الحلول المعين ، لأنه القول بحلول الله فى شىء معين — إنسان أو جماد أو حيوان — وذلك فى مقابل الحلول المطلق . ولهذا فكلام ابن تيمية هنا حافل بالمغالطات ، خصوصاً فى تجزئته تلك

(١) راجع ابن تيمية : « مجموع الرسائل والمسائل » ، ج ١ ص ١٧٢ ، القاهرة سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

العبارة : « والله ما ولج الله ولا خلا منه » إلى جزئين ، جعل أولهما صحيحاً والآخر باطلاً إن قصد به الحلول ، مناقضاً لقوله ما ولج فيه ، متناقضاً في نفسه إن قصد القول بأن الاتحاد ملازم له . وإنما كان عليه أن يأخذ القول جملة فيفهم منه إنكار الحلول المعين لأن الله لم يلج هذا البيت بالذات ، إذ الله لا يحل في شيء ، وهو حال في كل شيء ، بمعنى أن كل شيء قوامه بالله ، ولكن هذا لا يقتصر على شيء دون غيره . ففي تقديس البيت إلى ذلك الحد ما يقتضي أن هذا البيت وحده قوامه من الله بينما غيره ليس قوامه منه ، وهذا هو الشرك بعينه .

والحق أن من المميزات الكبرى للإسلام في جوهره وأصوله ، أنه حاول دائماً منذ البداية ألا يقتصر العبادة على مكان ، لأن كل مكان يصلح أن يكون بيت عبادة لله . وهو إنما أتى بهذا بمثابة رد فعل ضد اليهودية والمسيحية في حصرهما عبادة الله في مكان معين بالذات بحيث لا تصلح في غيره . فالصلاة في الإسلام يمكن أن تقام في أي مكان ؛ أما في اليهودية والمسيحية فلا بد أن تقام في مكان بالذات : كنيسة أو بيعة على التوالي . والمفنى العميق في اتجاه الإسلام هذا الاتجاه هو الإشعار بأن الألوهية في كل موضع ، وأن كل مكان أخذته عامر بها وصالح بالتالي أن يكون بيت الرب . وفكرة المسجد أو الجامع لا تنطوي على أي معنى من معاني التفضيل لمكان دون مكان ، كما هي الحال في فكرة الكنيسة والبيعة ، إنما — كما يدل عليه اسمه — تنحصر في فكرة الاجتماع في مكان واحد تحقيقاً خصوصاً للمعنى المقصود من صلاة الجماعة وبخاصة صلاة الجمعة .

ألا إن فكرة عبادة الأماكن لفكرة حاربها الإسلام الأول بكل قوة وعنف . كما يظهر في الآية التي أوردناها من قبل : « فليعبدوا رب هذا البيت » ؛ وكانت حملته هذه موجهة ضد تيارين : تيار اليهودية والمسيحية اللتين اقتصرتا على المكان المعين فحصرتا فيه إمكان العبادة والصلاة ؛ وتيار الوثنية العربية التي

قدست البيت العتيق والحجر الأسود الذى فيه حتى كادت أن تجعله محلاً للألوهية. ولهذا كان على الإسلام السائر المتطور — لذلك الجامد المتحجر الذى يمثله أمثال ابن تيمية والسلفية عامة — أن يتابع تلك الحملة حتى تُتَوَّى ثمارها الكاملة العامرة بالتسامى الروحى فوق كل ما هو حسى أو مُشْعِر به ، فتزول البقية الباقية من الوثنية العربية : وهذا هو ما فعلته رابعة العدوية ، وما فعله الخلاج من بعدها . لقد بَعَثَ النبىُّ الطلائع الأولى ، فعلى المسلمين على مرِّ الزمان الأبدى أن يتابعوا الحملات حتى تتحقق الغايات البعيدة التى لَمَحَ من بعيد إليها دون أن يخطو فى السبيل إليها إلا الخطوات الضئيلة الأولى .

وإذن فالفكرة التى عنها صدرت رابعة فى هذا القول فكرة ممتازة تنبع من صميم الإسلام الحى .

كذلك قولها الثانى . قال المناوى : « وَسَمِعْتُ (أى رابعة) قارئاً يقرأ : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شُغْلٍ فاكهون » ^(١) — فقالت : مساكين أهل الجنة فى شغلهم وأزواجهم ! » ^(٢) وكلمة « فاكهون » هنا معناها — فى كثير من التفاسير — : يفتضون الأبقار . ومن هنا امتعض ضمير رابعة من هذا المعنى الشهوانى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة إلى أعلى درجة من درجات الروحية . وقولها هذا — إن كان صحيحاً فى نسبه إليها ، وليس ثمت ما يدعونا إلى الشك فى هذه النسبة — قد بلغ درجة خطيرة من الجرأة والاجترار : فهو يتضمن أولاً نقداً للقرآن وما فيه من أوصاف حسية شهوانية ؛ وهو يتضمن ثانياً طعنًا فى الجوانب الحسية الشهوانية من الإسلام .

وهاتان مسألتان على أكبر جانب من الخطورة . ذلك أننا لانعلم فيما ورد

(١) الترات : سورة يس : ٥٥ :

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « طبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٥ ب ، مخطوط الظاهرية

إلينا من الأخبار سواء عن عهد النبي أو عن عهد الخلفاء والأمويين أن نقداً قد وجه إلى القرآن والإسلام من هذه الناحية : ناحية الحسية الشهوانية . فليس في القرآن ما يدلنا على وجود ذلك الجدل في أيام النبي حول ما ورد في القرآن من أوصاف شهوانية ، والقرآن هو أصدق وثيقة تصور لنا نقد الناقدين في ذلك العصر ؛ كذلك لم يكن ينتظر ، والبيئة كانت على ما تعرف من سذاجة وفطرية ، أن يصدر مثل هذا النقد ، لأنه يفترض درجة عالية من التطور الروحي كان أهل تلك البيئة في ذلك الحين بعيدين عنها .

أ كانت رابعة إذن أول من بدأ هذا النقد ؟

لن نستطيع الإيجاب عن هذا بالإيجاب أيضاً ، وذلك لأن حركة الزندقة كانت قد قويت في تلك الأثناء - وبخاصة في الربع الثالث من القرن الثاني الهجري - وانتشرت آراؤها إلى حد بعيد ، خصوصاً منذ أن صارت موضع اضطهاد عنيف من جانب الخليفين المهدي والهادي فيما بين سنة ١٥٣ هـ (= سنة ٧٦٩ م) وسنة ١٧٠ هـ (= سنة ٧٨٦ م) ، فكان طبعاً أن تكون رابعة على علم بها ، مادامت الدولة قد شغلت بها إلى هذه الدرجة البالغة الخطورة ^(١) . أثرى رابعة قد تأثرت بهذه الحركة أو كانت على صلة وثيقة بها ، مع الفارق الشاسع بين نواياها ونوايا أولئك الزنادقة ؟

فرض نسوقه ولا نستطيع تحقيقه بيقين . لكننا لانرى مانعاً جدياً في أن تكون قد تأثرت بتلك الأفكار التي أثارها حركة الزندقة ، وبخاصة عند ابن المقفع الذي وجه عناية خاصة إلى القرآن وحاول معارضته ، ولا بد أن يكون قد واكب هذا قيامه بنقد القرآن ، ويجوز أن يكون قد تعرض لشيء مما تعرضت له

(١) راجع العرض التفصيلي لهذه الحركة في كتابنا : « من تاريخ الإلحاد في الإسلام » ، ص ٢٨ - ٧١ . القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

رابعة ، أى نقد الجانب الحسى فيه . بيد أننا لا نجد فى رد أبى القاسم الزيدى ، ولا فى المصادر الأخرى التى ذكرت زندقة ابن المقفع ، ما يشير إلى هذا بوضوح^(١) .

وخلاصة رأينا فى هذه المسألة إذن ، هى أن رابعة يمكن أن تعد أول من تعرض لنقد القرآن والإسلام من ناحية مافى القرآن من أوصاف حسية شهوانية تتصل بالجنة خصوصاً ، وأنها يمكن كذلك أن تكون قد تأثرت فى هذا بحركة الزندقة التى انتشرت فى ذلك العهد انتشاراً خطراً حمل الدولة على مكافحتها بكل شدة ؛ وأنها رمت من وراء هذا النقد ، لا إلى الهدم والطمع ، بل إلى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والإسلام إلى أعلى درجة من الروحية مستطاعة ، وكانت فى هذا تكافح خصوصاً ضد تيار المُشَبَّهة والمُجَسِّمة والحشوية ممن أرادوا أن يأخذوا القرآن بحروفه . ولهذا يمكن أن نعد قولتها هذه من آرائها الكلامية ؛ بيد أن إيجازها لا يسمح لنا بتفصيلٍ أوسع فى مذهبها الكلامى ، وكل ما نستطيع قوله فى هذا الباب هو أنها كانت من خصوم المُشَبَّهة والمُجَسِّمة .

وكان طبيعياً ، وهذه العبارة من الخطورة على النحو الذى بيناه ، أن تجد لها كثيراً من الطاعنين عليها . وقد ذكر المناوى أن ابن عربى كان من هؤلاء . قال : « وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة ، وقال إنها ما عرفت ، وإنها المسكينة ، فإنما شغلهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادئ الرأى والتعريض فى حق نفوسهم ؛ إنهم مُنَزَّهون عن ذلك^(٢) » . ومن هذا النقد نرى أن ابن عربى ينكر عليها هذا القول لأنها فهمت الآية هذا الفهم - لكن الذنب ليس ذنبها ، فالفسرون - غالباً - يفهمونها بهذا المعنى ، أعنى : أن أصحاب الجنة مشغولون باقتضاض الأيكار . ولا شك فى أن هذا كان المعنى الشائع

(١) راجع المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٥٣ .

(٢) عبد الرؤوف المناوى : « مطبقات الأولياء » ، ورقة ١٠٥ (ب) - ١٠٦ (أ) ، مخطوط

الظاهرية بدمشق رقم ٤١٦٤ .

السائد في أيام رابعة ، قبل أن يتطور تفسير القرآن نحو التفسير بالباطن مما كان وليد حركة الصوفية في القرون التالية . فلا تريب على رابعة إن كانت إذن قد فهمت الآية على هذا النحو ، بل هذا هو وحده الذي كان ينتظر منها في مثل ذلك العصر . على أن إيجاز العبارة لا يدلنا - مرة أخرى - على ما قصدت إليه من هذا النقد : أهو نقدٌ لتفسير المفسرين ، وإذن فالعبارة قيلت في معرض التهمك عليهم ، أم هو نقد القرآن نفسه ؟ على أن هذا الفرض الثاني هو الأقرب احتمالاً ، كما يقتضيه سياق العبارة : إذ قالت هذه المقالة حينما سمعت قارئاً يقرأ الآية ؛ فهي لم تكن إذن بإزاء مفسر ، بل قارئ عادي .

تطورت الحياة الروحية عند رابعة إذن إلى الذروة من التجريد والتسامي عن كل ما هو حسّي . وواكب هذا استغراقها الكامل في الله ، بحيث أقفلت أبواب الحواس . وإلى هذا ينتسب ماورد لنا من أقوال تنبئ عما آلت إليه حالها من إماتة الحواس ، بحيث يمكن أن يقال إنها ماتت من الدنيا . فقد « ذكر أن رابعة العدوية كانت في الصلاة ، فسجدت على البواري ، فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة^(١) » ، أي إلى أن انصرفت من الصلاة .

فالحال التي تعبر عنها هذه القصة هي حال الفناء عن الوجود الخارجى ، وذلك بالفناء في الوجود الباطن ، وجود الحق ، بحيث تستهلك فيه ، فيغيب عنها الوعي وتؤول إلى حال من اللاشعور الكامل ، فيسقط عنها التمييز . وهي الحال التي

(١) في المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان عربى ، ورقة ٧٧ ب ضمن رسالة تسمى كتاب الصلاة مجهولة المؤلف . وقد ذكر هذه الحكاية أيضاً الطائر ، في «تذكرة الأولياء» ، ج ٧ ص ٦٤ .

يشير إليها الصوفية بالرمز بحكاية صواحيبات يوسف عليه السلام اللواتي قطعن أيديهن « لفناء أوصافهن ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن^(١) » ؛ فيرمز بهذه الحكاية عند الصوفية إلى ما يجب أن يكون عليه الصوفي في حال فنائه عن دنيا الحواس . وهذا الرمز نفسه ينسب إلى رابعة القول به ، ولعلها أن تكون أول من قال به . فقد روى المطار قال : يحكى أن مالكا بن دينار والحسن البصرى وشقيقا البلخي غدوا لزيارة رابعة . فسألتهما عن معنى الصدق ، فقال الحسن : « ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه » — فقالت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخي : « ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » — فقالت : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه » — فصاحت رابعة : بل تمت أفضل من هذا كله . فقالوا لها : تكلى أنت إذن ! فقالت : « ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللاتي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . وقد تكون هذه الرواية صحيحة إذا استبعدنا اسم الحسن البصرى وأبدلنا به اسماً آخر ، وقد تكون موضوعة كلها على نسق ما يقتضيه النموذج الذي أصبح لدى مؤرخي الصوفية المجددين للتصوف عن الصوفي . إذ أن هذه الحال — حال الفناء عن الآلام — قد صارت منذ القرن الثالث من المناقب الرئيسية للصوفي الحق . فالسري السقطي (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ — سنة ٨٧٠ م) يقول عن الصوفي إنه لو ضرب وجهه بالسيف وهو في حال الفناء لما أحسن بالله^(٢) . كذلك يحدثنا الهجویری أنه يحكى عن أبي الخير الأقطع أنه

(١) الكلاباذي : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ص ٩٥ ، نشرة آربري ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(٢) السراج : « اللمع » ، ص ١٩٢ ب في المخطوط ؛ راجع نشرة فيكسون ، سنة ١٩١٤ بلندن .

أصاب قدمه جرح مالبث أن فسد حتى أشار الطبيب ببتروقدمه ، غير أن أبا الخير لم يشأ ذلك . هنالك قال تلاميذه للطبيب : لو بترتها إيان صلاته لما أحس شيئاً ، لأنه في الصلاة يغيب عن حواسه . ففعل وفق ما قالوا . فلما فرغ أبو الخير من صلاته شاهد قدمه وقد بترت ^(١) . وهكذا تكون صورة الصوفي الغارق في الفناء وفقاً لهذه الأمور . فمن الممكن أن تكون هذه الرواية التي ذكرها العطار ، وكذلك مسألة دخول القصة في عينها إيان الصلاة وهي مما رواه العطار أيضاً ، نقول من الممكن أن يكون هذا كله من الأخبار التي اخترعت إتماماً للصورة وفقاً للنموذج الذي كان قد تكوّن عن الصوفي . وإذا كانت هذه الرواية الأخيرة — دخول القصة في عينها — مما ورد في الكتب العربية ، فإن الرسالة التي وردت فيها مجهولة المؤلف ، بحيث لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان قد أخذها هو الآخر عن العطار ، ذلك الرجل الجامع الخيال في غير ما احتفال للوقائع التاريخية .

لهذا يجب أن نخلى هامشاً عريضاً لما في هذه الروايات من المبالغة ، وأن نفهم منها مجرد الارتفاع فوق الآلام ، وإن كانت رابعة قد ظلت حتى موتها شعلةً زيتها الألم . فالواقع أنها بقيت تتلقى حتى آخر نفس من أنفاسها دروسها في علم التأله في مدرسة الآلام . كيف لا ، والألم هو دائماً قوت الأرواح الهائمة في الطريق إلى الله ؛ ولن يفرغ المرء من هذا الطريق أبداً ؛ لهذا فلا بدله أن يستمر في معاناة الآلام أبداً . ولا شك في أنه كان لرابعة فضل كبير في تمجيد الألم ، والدعوة إلى ما يمكن أن يسمى باسم عبادة الألم مما ولد في الحياة الروحية في الإسلام وتراً جديداً سيعزف عليه الصوفية من بعد — وعلى رأسهم الحلاج خاصة — أعمق ألحان الألم ، فيثري مضمونهم الباطن إلى درجة عالية . ورابعة ترى في الألم نعمة يمنحها الله لعباده المخلصين ، وليس لها أن تسأل الله تخفيف آلامها ، لأن إرادة الله هي

(١) المجوترى : « كشف المحجوب » ، ص ٣٠٤ ترجمة نيكلسون .

هذا الامتحان بالآلام ، فكيف تتوجه بالدعاء إليه متجاهلة تلك الإرادة ؟ !
فهكذا كان جوابها لسفيان الثوري لما أن سألها أن تدعو الله حتى يخفف
آلامها^(١) . وهذا من بين الدواعي العديدة التي دعتها إلى رفض كل ما كان
يعرض عليها من مال ، وهي كانت على ما هي فيه من شظف عيش وإملاق :
ذلك أنها تريد من هذا أن تقتات بألم الحرمان ، وناهيك به من قوت ، حسب
الأولياء أن يظفروا به ! وفي هذه الدعوة إلى الألم نجد عنصراً ممتازاً أدخلته رابعة
العدوية في الروحية الإسلامية .

وتابعت رابعة حملتها على الأخرويات بالصورة الحسية المفهومة عند سائر
الناس ، وغزا هذا كله نمو معنى المحبة والرحمة بحيث تشمل الناس أجمعين . فلم
يعد يعنيتها خلاصها وحدها بقدر ما يعنيتها خلاص الآخرين معها . ولنا في هذا
الباب قصة رواها الأفلاكي في « مناقب العارفين » (بالفارسية) هاك ترجمتها :
« ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى ماء
وهي تعدو مُسرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبتغين ؟
ف قالت : أنا ذاهبة إلى السماء كي ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء على الجحيم ، فلا
تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير
خوف ، ويعبدونه على هذا النحو : (بلا مطمع في جزاء أو خوف من عقاب)
— ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء في الجنة وخوف من الجحيم ، أفكانوا يعبدون
الحق ويطيعونه ؟ »^(٢) .

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٩ و ٧٠ ، نشرة نيكلسون .

(٢) الأفلاكي : « مناقب العارفين » ، مخطوط باريس ، قسم فارسي قديم ، رقم ١١٤

ففي هذه الحكاية — التي لا نعلم مبلغها من الصحة ، والتي فيها ما فيها من التزييق بحيث تذكرنا بقصة مصباح ذيوجانس ، أتراها صيغت على غرارها؟ — نقول إن في هذه الحكاية ما يدل على أن رابعة قد أرادت أن تخلص الناس نهائياً من فكرة الجنة والنار ، لأنها رأت فيها مصدراً لإفساد المعنى الحقيقي للعبادة . إذ العبادة الحققة هي تلك التي تقام لوجه الله غير طالبة جزاء ولا شكوراً ؛ هي تلك التي لا تكون على حرف ، ولا بسبب خوف ، ولا يدخل فيها أى معنى من معانى الترغيب أو الترهيب .

وهي في سبيل هذه الدعوة قد بدأت بنفسها ؛ فهي غير راغبة في الجنة ولا وجلة من النار . ذكر العطار أن رابعة كانت تقول : « إلهى ! إن كنتُ عبدتك خوف النار فأحرقنى بالنار ، أو طمعاً في الجنة فحرّمها علىّ . وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقالت أيضاً وهي لهيفة القلب : « إلهى ! إن ألقيت بى يوم الحساب في النار لأذعت سرّاً يبعد النار عنى بألف سنة » . وكانت تقول : « إلهى ! كل ما قدرته لى من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك » ^(١) . وكل هذه الأقوال تدلنا بوضوح على أن معنى الجنة والنار قد رُق عند رابعة بحيث كاد أن يزول ، لأنه لا يتفق مع العبادة الصحيحة ؛ وقولها الثالث الأخير يدل على إيمانها في تجريد المعنى الحسى للأخرويات بالنسبة إلى نفسها .

ثم لما طهرت نفسها من هذا المعنى راحت تدعو الناس إلى هذا التطهر ، بحيث تصبح العبادة لله وحده من غير طمع في شيء أو خوف من شيء . وهذه الحركة الرمزية التي تعبر عنها القصة التي ذكرها الأفلاكي إنما قصد بها إلى إيضاح معنى دعوتها بطريقة عينية بارزة . إذ رأت أن الناس إنما يعبدون الله رجاء دخول الجنة

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ص ٧٢ و ٧٣ .

أو مخافة النار ، فهل معنى هذا أنه إذا لم يكن ثمت جنة ولا نار لن يعبدوا الله ؟ هذا سؤال ألفت به رابعة على جماعة من الصالحين ذكروا لها أنهم يعبدون الله خوف النار وطمعاً في الجنة . وهنالك سألوها : « وأنت ، لماذا تعبدن الله ؟ — فأجابت : إنما أعبدته لذاته . أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته ؟ »^(١) إنها ترى إذن في مجرد أمر الله بعبادته نعمة سابغة كافية بحيث لا يرجو المرء بعدها أمراً .

على أن المقصود الأبعد في ذهن رابعة هو أن تسمو بالحياة الدينية في الإسلام بأن تزيل ما في القرآن من معان حسية وتحيلها إلى معان روحية خالصة ، فلها الفضل الأكبر في بدء هذه الحركة التي ستبلغ أوجها عند أبي يزيد البسطامي^(٢) . ومن هنا يظهر دورها البارز في الحياة الروحية في الإسلام عامة .

وقد نسب المؤرخون إلى رابعة جملة من الكرامات . وقد رأينا كيف حاول العطار منذ البداية أن يحيط رابعة بالكرامات منذ ميلادها ؛ وهو كذلك قد حرص على أن يملأ ترجمته الخيالية لرابعة بألوان من الكرامات لاحصر لها : فجارها ينفق في الصحراء وهي بسبيل الحج ، فتذعو الله ، فينهض الحمار مليئاً بالحياة . وهي تعلم الغيب كما يظهر من القصة التي رواها عن أرغفة الخبز التي أرسلت بها إليها سيده مع خادمتها . واللصوص لا يستطيعون السرقة منها ، وكان الله يحرس كل مالها ، وإن لها معهم قصصاً عديدة ، ذكر بعضها العطار ، وذكر غيرها آخرون مثل تلك التي وردت في المخطوط رقم ١٢٤٢ (عربي الفاتيكان) ورقة ٨٣ من أن لصاً دخل بيتها فلم يجد غير إبريق فلما هم بالخروج قالت له

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ، ص ٦٩ .

(٢) راجع بحثنا بعنوان : « شطحات الصوفية » ففيه تفصيل القول في مذهب أبي يزيد البسطامي في هذه الناحية : ص ١٨ — ص ٢٤ . القاهرة سنة ١٩٤٩ .

رابعة : يا هذا ! إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شيء . فقال : إني لم أجد شيئاً . فقالت : يامسكين ! توضعاً بهذا الإبريق وادخل في هذا الخدع ، وصل ركعتين ، فإنك ما تخرج إلا بشيء . ففعل ما أمرته . فلما قام يصلي رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت : سيدى ومولاي ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى ؛ وقد أوقفته ببابك ، فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

« فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فما برح يصلى إلى آخر الليل . فلما كان وقت السحر ، دخلت إليه رابعة فوجدته مساجداً وهو يقول في سجوده معاتباً نفسه - شعراً - :

إذا ما قال لى ربى : أما استحييت تعصينى ؟
وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيان تأتينى ؟
فما قولى له لما يعاتبنى ويُقصينى ؟ !

« فقالت له : حبيبى ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ! وقفت بين يدى مولاي بذلى وافتقارى ، فقبل عذرى وجبر كسرى ، وغفر لى الذنوب ، وَبَلَّغَنى المطلوب .

« ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كفها إلى السماء ، وقالت : سيدى ومولاي ! هذا وقف ببابك ساعة قبلته ؛ وأنا منذ عرفتك بين يديك . أتراك قبلتنى ؟ فنوديت فى سرها : يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قرَّبناه^(١) . وفى هذه الحكاية نرى الأسطورة الشعبية تصور رابعة صاحبة كرامات مع اللصوص بحيث تهديهم إلى الإيمان ، كما تصور درجتها عند الله فى الشفاعة والقرب . وهى من نوع ما نراه كثيراً فى ترجمات الأولياء والقديسين الخيالية ، كما هى الحال عند القديس فرنسيسكو الأسيرى مثلاً .

(١) مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات برقم ١٢٤٢ فانىكان عربى ورقة ١٨٣ .

وإن الشبه لقريب كل القرب في هذا الباب بين القديس فرنسيسكو الأسيزي وبين صاحبتنا رابعة . فالحيوان والطير يألفها ، بحيث كانت الغزلان — وهي النفور من الإنسان — تقبل عليها وتتخلق حولها وتمسح فيها . والطار يروى لنا هذه القصة ، وهي أن « رابعة صعدت جبلا ، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان ، وبقيت حوالها آمنة كل الأمان . وفجأة أقبل الحسن البصري فقرت الغزلان ، فقال لها : يا رابعة ! لماذا فرت كل الغزلان مني ولم تفر منك أنت ؟ فسألته : ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فأجاب : أكلت طعاما طهى بالزيت . فقالت له رابعة : يا من تأكل من دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك ؟ »^(١) ومنها ترى السبب في تألف الحيوان لرابعة وهو أنها كانت لا تأكل من لحم أو ما يخرج منه . ولولا أن هذه القصة أسطورة كلها ، لاستخلصنا منها ما يتصل بحياة رابعة من الزهد بحيث حرمت على نفسها أكل الحيوان وما يخرج منه . وعلى كل حال ، فالهم في هذا أن الطار لم يذكر صلاتها بالحيوان دون أن يبرر عقليا السر في هذه الألفة فيما بينها وبينه ، والتفسير لا يخلو من البراعة ولا نجد مثله في ترجمات القديس فرنسيسكو الأسيزي .

وأكثر الكرامات التي يرويها الطار لرابعة قد جرت مع الحسن البصري ، مما يؤكد جانب الخيال والاختراع إلى أبعد حد فيها . فهو يذكر كذلك أن الحسن وبعض أصحابه ذهبوا إلى رابعة وكان الوقت ليلا فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا ؛ فوضعت رابعة طرف أصابعها في فمها ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور^٢ كأنه نور مصباح . والطار يفسر هذا أيضا فيقول : « إن سأل أحد كيف حدثت هذه الكرامة ، فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى . فإن قيل لك إن موسى عليه السلام كان نبيا وأن رابعة لم تكن نبيه ، فأجبه قائلا :

(١) « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٥ ، نشرة نيكسون .

إن من ينفذ الأوامر التي أتى بها الأنبياء يشارك في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات؛ وكما أن للأنبياء معجزات ، فإن للأولياء كرامات^(١) . وهو يذكّر قصة أخرى مع الحسن وهي أنه ذهب إليها وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم ، فلما بدأ الحديث عن معرفة الله ، رأت أن هذا الحديث أفضل من الطهي ، فتركت القدر دون أن تنفخ تحته النار . فلما فرغا من صلاة العشاء « أفرغت ما في القدر فوجد أن اللحم الذي كان فيه قد طهى بقدرة الله . فأكلنا (الحسن وهي) من هذا الطعام ، وكان له طعم لم تتذوق مثله قط من قبل »^(٢) . ثم هما يقومان بالمعجزات أو الكرامات معاً : فهو يلقي على الماء سجادته ويصلي عليها ، وهي تلقى سجادتها في الهواء وتصعد عليها . على أن القصة تنتهي بعبارة عالية ؛ فالحسن لا يستطيع أن ينافسها في هذه الكرامة لأنه لا يستطيع الطيران في الهواء ، فابتأس ، فعزته رابعة قائلة : « ما فعلته . يستطيع السمك أن يفعله ، وما فعلتُ أنا يستطيع الذباب أن يفعله . وإنما المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما »^(٣) . وفي هذا القول إشارة إلى أن المهم عند الصوفي ليس هو الإتيان بالكرامات ، بل الترقى في معراج الحياة الروحية ؛ وقيمة الصوفي ليست في عدد كراماته ونوعها ، بل في السلوك إلى الله بحيث يرضى عنه ويحظى بالقبول منه .

وكل هذه الكرامات هي من الأنواع المشهورة المألوفة في الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين ، والعملية التي أنتجتها عملية واحدة .

ولم نسقها هاهنا إيماناً منا بأن هذه الكرامات قد وقعت ، فبهات هيهات أن يخطر هذا ببالنا ! إذ نحن نفكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها . إنما هي تقدم لنا الأسطورة الشعبية التي حيكت حول الشخصية التي تنسب إليها

(١) فريد الدين العطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٦٥ ، نشرة نيكلسون :

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٧٢ :

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٦٥ .

هذه الكرامات أو تلك الخوارق . وقيمتها إذن ليست في صدقها من حيث الواقع والتاريخ ، فإنها جميعاً خلو من هذا الصدق ، وإنما في بيان تطور الصورة التي يتصورها الضمير الشعبي أو الأسطوري لأولئك النفر من الناس .

ونحن نرى فيما يتصل برابعة أن هذه الأسطورة لم تنشأ إبان حياتها ، وإنما نشأت متأخرة بعد هذا بقرنين على أقل تقدير . ونشأت أول منشآت مرتبطة بأسطورة الحسن البصري التي كانت قد بدأت تتكون قبل ذلك بعهد غير طويل . واشتبهت الأسطورتان معاً في أمثال هذه الحكايات التي أورد أغلبها فريد الدين العطار وهو أكثر المؤرخين الصوفية حرصاً على تصيد النوادر والخوارق والغرائب . ولا نحسبنا مبالغين إذا قلنا إنه كان للعطار نفسه نصيب ما في تكوين هذه الأسطورة باختراع البعض من هذه الحكايات المتصلة بالكرامات ، أوفى القليل مما زيف البعض مما كان متناقلاً بين الناس ، ووشى من الأحاديث ماشاء له خياله البعيد الغور . والذي يحملنا على عدم تحميله نصيباً أكبر في الاختراع أن المخطوطات العربية تكشف لنا شيئاً فشيئاً عن الأصول العربية للكثير مما يأتي به من حكايات كنا لا نجد لها في غيره من المصادر العربية فيخيل إلينا أنه الذي ابتدعها . لهذا يجب ألا نحكم عليه في هذا الباب إلا بكثير من الحيطة والأناة .

وهذه الأسطورة لاتزال ترن أصدائها في الخيال الشعبي بكل قوتها ، وذلك في العبادة التي تقام حول قبرها .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن قبرها ، هذا المختلف في مظنة وجوده أشد الاختلاف .

فقوم قالوا إن قبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا ، وهو قرية

الطور إلى شرقى القدس . فأبو محمود بن إبراهيم بن سرور المقدسى (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ) يقول فى كتابه « مثير الغرام » : « قَدِمْتُ (أى رابعة) بيت المقدس وما به ؛ وقبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا . وهو ظاهر يزار . وكانت وفاة رابعة سنة خمس وثلاثين ومائة »^(١) . وعنه أخذ شمس الدين السيوطى (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ) فى كتابه : « إتحاف الأخصا فى فضائل المسجد الأقصى »^(٢) . ويزيدنا مجير الدين الحنبلى تفصيلا فيقول فى كتابه : « الأنس الجليل »^(٣) وهو يذكر الأعيان والزهاد الذين دخلوا بيت المقدس ، وهو قد ألف كتابه سنة ٩٠١ هـ واعتمد فيه على « مثير الغرام » : « إن قبر رابعة بنت اسماعيل أم الخير العدوية البصرية على رأس جبل طور زيتا شرقى بيت المقدس بجوار مصعد عيسى عليه السلام ، من جهة القبلة ؛ وهو فى زاوية ينزل إليها من درج . وهو مكان مأنوس يقصد للزيارة » .

كذلك نرى ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » يقول : « وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور »^(٤) وفى إثره ابن شاعر الكتبى يقول : « وكانت وفاتها على قول ابن الجوزى فى هذه السنة (أى سنة ١٣٥ هـ) . وقال غيره سنة خمسة وثمانين (أى ومائة) . وهى مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار ؛ رضى الله عنها »^(٥) .

وفريق ثان ترجح بين التأييد والإنكار فيما يتصل بكون هذا قبر رابعة

(١) إبراهيم بن سرور المقدسى : « مثير الغرام » ، ص ٤٩ . طبع القدس سنة ١٩٤٦ .

(٢) مخطوط فى المكتبة الخالدية بالقدس . وقد تفضل الأستاذ أحمد سامح الخالدى بهذه البيانات فله منا أجزل الشكر .

(٣) ج ١ ، ص ٢٨٥٠ .

(٤) ج ١ ، ص ٢٥٦ ، القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ = سنة ١٨٥٨ م .

(٥) صلاح الدين محمد بن شاعر الكتبى : « عيون التواريخ » ، ورقة ٧ ب - ٨ ، مخطوط رقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق - أخبار سنة ١٣٥ هـ .

العدوية صاحبتنا . ومنه ابن العباد في « شذرات الذهب » ، إذ قال : « وقبرها (أى رابعة) على رأس جبل يسمى الطور بظاهر بيت المقدس . وقيل ذلك قبر رابعة أخرى غير العدوية »^(١) . وكذلك عبد الرؤوف المناوى قال في ترجمته لرابعة بنت اسماعيل العدوية زوج أحمد بن أبي الحواري : « ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل المدفونة هناك إنما هى الأولى (أى رابعة العدوية البصرية) »^(٢) . ومن الواضح أن المناوى نقل هذا الخبر عن مؤرخ تحدث عن رابعة العدوية البصرية ، ونسبه إلى رابعة الشامية ، والدليل هو أنه جعل وفاة رابعة الشامية سنة خمس وثلاثين ومائة مع أنه يقول إنها زوج أحمد بن أبي الحواري ، وهذا توفي سنة ٢٣٠ هـ فكيف تكون زوجته إذن إذا كانت ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة !! فالتحفظ إذن فى رواية المناوى هنا ظاهر فاضح . وفريق ثالث أنكر أن يكون ذلك قبر رابعة العدوية . فابن بطوطة فى رحلته يقول عن القدس ومزاراته : « ومنها قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية ، وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة »^(٣) . وكذلك الهروى فى كتاب « الزيارات »^(٤) قال عن هذا القبر الموجود بظاهر بيت المقدس إن القبر لرابعة البدوية ، وهى امرأة أحمد بن أبي الحواري ..

وإذا اتخذنا الصمت حجة وجدنا الواسطى الذى ألف كتابه « فضائل البيت المقدس » سنة ٤١٠ هـ لا يذكر أن قبر رابعة بطور زيتا .

على أن الذى فصل فى المسألة بصورة قاطعة هو ياقوت فى « معجم البلدان » تحت لفظ « المقدس » فقال ، وهو يتحدث عن ابن طاهر بن على بن أحمد الحافظ المعروف بابن القيسرانى : « ومات ابن طاهر ودفن عند القبر الذى على جبلها

(١) ج ١ ، ص ١٩٣ ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ = سنة ١٩٣١ م .

(٢) « طيفات الأولياء » ، مخطوط الظاهرية بدمشق ، ورقة ١٠٦ ب — ١١٠٧ .

(٣) ج ١ ، ص ١٢٤ ، ن ٣ . (٤) ص ٤٠٠ .

(جبل القدس) ، يقال له قبر رابعة العدوية ، وليس هو بقبرها ، إنما قبرها بالبصرة .
وأما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبي الخوارى الكاتب ، وقد
اشتبه على الناس «^(١)» . وهذا أوضح بيان لهذه المشكلة ، وفيه القول الفصل .

ذلك أننا لا نعلم أن رابعة العدوية قد رحلت إلى الشام حتى تموت هناك .

فكيف يوجد قبرها إذن في ظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا ؟ !

وإذن فالقبر الموجود بظاهر القدس على رأس طور زيتا إنما هو قبر رابعة
الشامية سميتها المشهورة ، أى رابعة زوج أحمد بن أبي الخوارى كما بينا من قبل .
واختلط الأمر على الناس هذه المرة كما اختلط عليهم في أكثر المواضع بين هاتين
الصوفيتين . وشهرة رابعة العدوية البصرية قد أنست الناس رابعة الشامية
فنسبوا القبر الخاص بهذه إلى الأولى .

على أن تمت مسألة أخرى هي مسألة قبر ينسب إلى رابعة العدوية في دمشق .
وقد زرته في ١٧/١٢/١٩٤٧ فوجدته بداخل بيت تحمله الآن شعبة الإخوان
المسلمين في منطقته . وقد كشفنا عن القبر فلم نجد عليه شاهداً ما . ويسكن إلى
جواره شيخ جاوز الثمانين هو الشيخ عبد القادر القضاى وقد سألته عما يعرف من
أحوال هذا القبر فأجاب بأنه يقيم إلى جواره منذ أكثر من خمسين سنة ، وأنه
قاوم كل إغراء له بمغادرة هذا المكان لسكنى الحى الجديد ، حى المهاجرين ،
لأنه عرف من كرامات صاحبة القبر ما جعله يتبرك به . وهو يؤكد (« رأينا
هذا بأعيننا ، ولمسناه بأيدينا » — هكذا بدأ حديثه بلهجة ملؤها الإيمان
والسذاجة) أن لهذا القبر فوائد مجربة : من بينها أنه لم تحدث قط سرقة في هذا
الشارع ، طوال الخمسين سنة التى أقام فيها إلى جواره هذا القبر ؛ وأنه لم يصب
منه بيت بالقنابل التى انهالت على هذا الحى من دمشق إبان ثورة سنة ١٩٢٥

(١) ياقوت «معجم البلدان» ، تحت لفظ «القدس» ، ج ٦ ، ص ٦٠١ ، نسخة فشتنلند .

على الرغم من أن بيوت الشوارع المجاورة قد أصيبت كلها من قنابل الفرنسيين هذه ؛ وأن الذي يزور القبر ليلة السبت مرتين متواليتين تقضى الحاجة التي من أجلها قام بهذه الزيارة . ولا يزال كثير من النسوة والسيوخ يمرون بالقبر فيتلبثون قليلا وينظرون من نافذته ذات القضبان المربعة ، يقرأون الفاتحة على روح صاحبه ويطلبون البركة . وبالجملة ، فهو لا يزال عامراً بالحاجين إليه للتبرك ؛ ولا تزال ذكرى رابعة العدوية حيّة في نفوس أهل دمشق والشام عامة .

والقبر عبارة عن مستطيل من البناء المصنوع من الحجر يبلغ طوله قرابة مترين في عرض نيف ومتراً ويقع على أرض تعلو بعض العلو عن أرض الغرفة الواسعة التي تحتلها الشعبة ؛ وهو في غرفة خاصة على يمين الداخل . ومن فوق القبر قبو خشبي نصفه السفلي مستطيل ونصفه العلوي هرمي ، وقد كسى بالحمل . والدار الموجود بها الشعبة والقبر يلوح أنها ليست قديمة ، إذ هي مكونة من بعض الأحجار القديمة في أصلها السفلي ، وفوق الباب كتابة تشير إلى منشئ الدار ، ولكن دون ذكر التاريخ .

نرى لمن يكون هذا القبر ؟ ولماذا نسب إلى رابعة العدوية ؟ مسألة لا يمكن القطع فيها ؛ وكل ما يمكن افتراضه هو أن يكون قد عمل لرابعة الشامية — وأصلها من دمشق — قبر في هذا المكان ؛ وعلى توالي الزمان نسي اسمها الحقيقي ، واستبدل به اسم رابعة المشهورة ، رابعة العدوية كما حدث بالنسبة إلى القبر الموجود بطور زيتا بظاهر القدس . أما كيف تفسر وجود هذين القبرين لشخص واحد ، فيمكن أن يقال إن رابعة الشامية قد توفيت بالقدس فدفنت هناك ؛ ولكن لما كان بلدها الأصلي الذي حيت فيه طوال عمرها هو دمشق ، فقد أقيم لها قبر رمزي في دمشق كذلك ، لعله هو الموجود اليوم . على أن هذا فرض فحسب ، وإن كان ثمت شواهد على وجود قبرين وأكثر لشخص

واحد . ففي دمياط قبر لشيخ يدعى إبراهيم الشرباصى ، وفي بلدنا ، شرباص ،
(على نهر النيل على مسافة ١٧ كيلومتراً جنوبى دمياط) قبر للشيخ نفسه ؛ وأهل
بلدنا يعتقدون أن القبر الحقيقى هو الموجود فى شرباص ، أما القبر الموجود فى
دمياط فلا يحوى غير يده التى قطعت وهو يحارب الصليبيين فى حملة لويس التاسع .
وإذن فظاهرة وجود قبرين فى مكانين مختلفين لشخص واحد من الظواهر
المشاهدة كثيراً بالنسبة إلى الأولياء المسلمين .

وهناك خبر أورده المطار لو كان قد دقق فيه لكفانا مؤونة الكثير من
هذا البحث . ذلك أنه يقول إن محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى زارا قبر
رابعة فقالا : « يا رابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحنى رأسك للعنبر ولا للآخرة ،
فأين أنت الآن ؟ » فصاح صوت من قبرها يقول : « طوبى لى ! ما فعلته هو
ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى »^(١) . ومحمد
ابن أسلم الطوسى ، الصوفى المشهور ، وألحده الذى روى أحاديثه أبو نعيم فى
« الحلية »^(٢) ، قد توفى سنة ست وعشرين ومائتين . وليس لدينا ويا للأسف
من التفاصيل عن حياته ما يسمح بمعرفة رحلاته ، على أن زيارته للبصرة أرجح
من زيارته للقدس لقرب الأولى وبعد الثانية . وعلى كل حال فالخبر ليس بذى
قيمة كبيرة ، لأنه يقوم على أخبار بعيدة عن المعقول وذلك فى ذكره أن صوتاً
صاح من القبر يرد عليهما ! !

والخلاصة أن رابعة قد توفيت فى البصرة ، وأنه لا بد أن يكون لها قبر هناك
هو الذى زاره أو أمكن أن يزوره محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى — إن
صح الخبر الذى أورده المطار فى جملته ، لا فى تفصيله طبعاً ! — وأمل القبر تهدم فى

(١) المطار : « تذكرة الأولياء » ، ج ١ ، ص ٧٣ ، نشرة نيكلسون .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ، ج ١ ص ٢٣٨ — ٢٥٣ ، طبع مصر سنة ١٩٣٨ ؛

وراجع عنه أيضاً « طبقات الشمرانى » ، ج ١ ، ص ٨٣ .

أحد التخريبات التي أصابت البصرة فدمرتها عن آخرها أو كادت :

بقي علينا أن نعرض لمسألة تاريخ وفاة رابعة . وهنا نرى الأمر يختلط مرة أخرى .

فهنالك رواية يلوح أن ابن الجوزي صاحبها تقول إن وفاتها كانت في سنة خمس وثلاثين ومائة (= ٧٥٢م) . فقد ذكر ابن خلكان^(١) أن ابن الجوزي ذكر هذا التاريخ في كتابه « شذور العقود » . على أن ابن الجوزي في « صفة الصفوة » لم يذكر لها تاريخ وفاة . وعن ذكر هذا التاريخ ابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة »^(٢) ، والمرضى الزبيدي في « إتحاف السادة »^(٣) ، وابن شاعر الكتيبي في « عيون التواريخ »^(٤) ، وابن العماد في « الشذرات »^(٥) .

ورواية ثانية تقول إن تاريخ وفاتها سنة ثمانين ومائة ، وصاحبها الذهبي . قال ابن تغري بردي في كلامه عن سنة ثمانين ومائة : « الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة : قال : وفيها توفي ... ورابعة العدوية . قلت : وقد تقدمت وفاتها في قول غير الذهبي »^(٦) . ومن الذين تابعوا الذهبي على هذا التاريخ عبد الرؤوف المناوي في « طبقات الصوفية »^(٧) فقال : « ماتت سنة ثمانين ومائة ؛ وقيل غير ذلك » .

(١) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلامه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) المرتضى الزبيدي : « إتحاف السادة » ، ج ٩ ، ص ٥٧٦ و ٦٨١ .

(٤) ج ٣ ورقة ٧ ب عن سنة ١٣٥ هـ ، ويذكر أن هذا قول ابن الجوزي ، مخطوط الظاهرية برقم ٤٤ تاريخ .

(٥) ابن العماد : « شذرات الذهب » ، ج ١ ص ١٩٣ عن سنة ١٣٥ هـ .

(٦) ابن تغري بردي : « النجوم الزاهرة » ، نفرة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

ج ٢ ص ١٠٠ س ٢٣ — ٢٤ .

(٧) مخطوط الظاهرية برقم ٤١٦٤ ورقة ١١٠٦ .

ورواية ثالثة تقول إنها توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ؛ ذكر ذلك ابن خلكان^(١) وابن شاكر الكتبي^(٢).

فأى هذه الروايات الثلاث نختار ؟

يرى الأستاذ ماسينيون أن الرواية الثالثة هي أصح الروايات (وكذلك يمكن الأخذ بالثانية) ، وأن جعل تاريخ وفاتها سنة ١٣٥ إنما قصد به إلى جعلها تلميذة الحسن البصري (ولد سنة ٢١ هـ = ٦٤٢ م ، وتوفي في غرة رجب سنة ١١٠ هـ = ١٠ أكتوبر سنة ٧٢٨ م) . ونضيف إلى هذا أنه قد قصد بذكر هذا التاريخ المتقدم تبرير الحكايات التي رويت بينهما : فكيف كان يمكن التقاؤهما لو كانت رابعة توفيت سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ بينما هو توفي سنة ١١٠ هـ ؟ خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الروايات تتحدث عن مكانة رابعة ورسوخ قدمها في الطريق إلى درجة أعلى من الحسن ، كما شاهدنا في روايات المطار .

والأستاذ ماسينيون يبرهن على اختياره لتاريخ سنة ١٨٥ بدلا من ١٣٥ بالبراهين التالية : أولا صداقتها المشهورة لأبي المهاجر رياح بن عمرو القيسي ، وهو قد توفي حوالي سنة ١٨٠ ، بل حوالي ١٩٥ هـ^(٣) (= سنة ٨١٠ م) ؛ فلو كانت رابعة توفيت سنة ١٣٥ هـ لما صح اجتماعها برياح بن عمرو القيسي . وثانياً إلتقاؤها بسفيان الثوري الذي أتى البصرة بعد سنة ١٥٥ هـ . وثالثاً حكاية خطبة الوالي العباسي للبصرة ، محمد بن سليمان الهاشمي ، لها ، وهو قد كان والياً على البصرة سنة ١٤٥ هـ

(١) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ١ ، ص ٢٥٦ القاهرة سنة ١٢٧٥ .

(٢) ج ١ ، ص ٣٣٠ ، س ٩ في كلاه عن سنة ١٣٥ هـ .

(٣) ذكر ماسينيون التاريخ التالي : حوالي ١٨٠ هـ في « بحث في أصول المصطلح » [ص ١٩٣ تعليق ٣ ، ص ١٩٥] ولكنه عدل عنه في كتابه « مجموعة نصوص غير منشورة » [باريس سنة ١٩٢٩ ، ص ٦] فذكر التاريخ الآخر وهو : حوالي سنة ١٩٥ هـ .

وتوفي سنة ١٧٢ هـ^(١) ونضيف نحن إلى هذا أيضاً صلتها الوثيقة بعبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ (= ٧٩٣ م) .

وهذه الحجج حجج حاسمة ، ولا شك في أن التاريخ : ١٣٥ هـ إنما قصد به إلى تمكين لقائها بالحسن البصري حتى يتم الإسنادُ وتصح الروايات التي تتحدث عن اجتماعاتهما . لكن موضع الصعوبة بعد هي في الاختيار بين سنة ١٨٠ وسنة ١٨٥ لأن هذه الحجج إنما تتعلق باستبعاد سنة ١٣٥ هـ . بيد أننا لا نستطيع ، بحسب ما لدينا من وثائق حتى الآن ، أن نفصل بين هذين التاريخين .

وإذن فإمّا سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ (= سنة ٨٠١ م) .

(١) راجع ماسينيون : « بحث في أصول المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى » ، ص ١٩٣ تعليق ٥ ؛ باريس سنة ١٩٢٢ .

أخبار رابعة

نصوص منشورة وغير منشورة

تصريح

هأنحن أولاء نورد فيما يلي طائفة من الأخبار والأقوال التي خلفها لنا المؤرخون والكتاب عن رابعة العدوية ، سعيانا من ورائها إلى أن نضع بين أيدي الناس الآثار الباقية من هذه الصوفية ، لتكون بمثابة شواهد للتحليل الذي قننا به ، ومواد لغيرنا ممن يريدون استئناف البحث في حياتها ونظرتها الروحية ، فنوفر عليهم مؤونة مجهودات شاقة بذلناها في التنقيب عن مخلفاتها النادرة ، وعسى أن تكون في هذا أسوة للعاملين في ميدان الفكر العربي والإسلامي ، فيضم كل باحث ماعثر عليه من آثار نادرة عن الشخصية أو المذهب الذي هو بصدد البحث فيه ، ولعل لهذا في بعض الأحيان من العائدة مايفوق عمل التحليل نفسه .

ولسنا نزعم في شيء أننا أتينا على كل مابقى لدينا حتى اليوم من آثار رابعة . فهيئات ! فهيئات ! فالنصوص غير المنشورة لاتزال تعدنا بالكثير الذي قد يفوق كل ماحصلناه حتى اليوم بعدد المرات . والنصوص المنشورة لم نورد منها إلا كل ماوقع بين أيدينا ، برغم كل ما بذلناه من جهد في هذا السبيل . وقد أغفلنا منها تلك التي لاتورد أشياء جديدة ، بل أخباراً تكاد تتكرر بعينها في أكثر من نص مما أوردناه ، مثل ابن خلكان (١ = ، طبع القاهرة سنة ١٢٧٥ ، ص ٢٥٦ — ص ٢٥٧) و « طبقات » الشعراني (١ = ، ص ٨٦ ، القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) ومحمد بن علي الأسنوي (المتوفى سنة ٨٧٦٥ = ١٣٦٣ م) مؤلف « حياة القلوب » (بهامش « قوت القلوب » ، لأبي طالب المكي ، القاهرة سنة ١٣١٠) ومثل كتب التاريخ العامة . كذلك لم نورد ماورد أكثر تفصيلاً ودقة في المصادر الأخرى التي نقلت عنها هذه الأخبار المتأخرة .

الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = سنة ٨٦٩ م) ، « البيان والتبيين » :

(١) ح ٣ ، ص ٨٥ ، القاهرة سنة ١٣٣٢ :

« الثورى عن حبيب بن أبى ثابت . . قال : وقيل لرابعة القيسية : هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان شئ ، نخوفى من أن يُردَّ على »
(ب) ح ٣ ، ص ١٢٢ ، نشرة السندوبى : فى باب « نساك البصرة وزهادها » :
« عامر بن عبد قيس ، وبُجالة بن عبدة العنبريان ؛ وعثمان بن أدهم ؛ والأسود ابن كلثوم ؛ وصيلة بن أشيم ؛ ومذعور بن الطفيل ؛ ومن بنى منقر : جعفر وحرب ابنا جرفاس . كان الحسن يقول : إني لا أرى كالجعفرين جعفرًا ، يعنى جعفر بن جرفاس وجعفر بن زيد العبدى .

ومن النساء : معاذة العدوية ، امرأة صلة بن أشيم ؛ ورابعة القيسية »

(ح) الجاحظ : الحيوان ، ح ١ ص ٧٨ ، طبع مصر سنة ١٩٠٧ :

« فإن تهيتاً مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ، ومعاذة العدوية ، ورابعة القيسية ، والشبابة الخارجية » .

السراج (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ = سنة ٩٨٨ م) ، « اللع » ، نشرة

نيكلسون ، ص ٣٢٢ :

ذكرها فى « باب فى الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء » ، حيث أوردتها من بين جملة أشخاص منهم محمد بن واسع وعبد الواحد بن زيد وأيوب السخيتانى .

الكلاباذى (المتوفى سنة ٥٣٨٠ = ٩٩٠ م) : « التعرف لمذهب أهل
التصوف » ، نشرة آربرى ، القاهرة سنة ١٩٣٣ :

(١) « قولهم فى الرضا » ، ص ٧٣ :

« ... قال سفيان (الثورى) عند رابعة : اللهم ارض عني ! فقالت له :
أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براضي ؟ ! »

(ب) « لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم » ، ص ١٢١ :

« دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى ، فقالوا : ما حالك ؟ قالت :
والله ما أعرف لعلتى سبيا : عرضت على الجنة فملت بقلبي إليها ؛ فأحسب أن
مولاي غار على ، فماتبنى ، فله العُتبي ^(١) . »

المجوىرى : « كشف المحجوب » ، (ترجمة نيكلسون الإنجليزية ، ليدن
سنة ١٩١١ ، ص ٣٥٨) : « ولقد قرأت أن رجلا من أهل الدنيا قال لرابعة :
سلىنى حاجتك . فقالت : إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف
أسأله من لا يملكها ؟ ! » ^(٢)

أبو سعيد بن أبى الخير فى « أسرار التوحيد » للنور (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ =
سنة ١٢٠٣ م) ، بطرد غراد سنة ١٨٩٩ ، ص ٣٤٥ : قال أبو سعيد بن أبى الخير

(١) العتبي = الرضا .

(٢) راجع هذا القول فى « آمخاف السادة للزبيدي » ، ص ٥٠ ، ص ٥٧٦ ، كما سبرد بعد
ص ١١٨ ثم ص ١٢٥ .

إنه سمع من أبي علي الفقيه أن رابعة سئلت : كيف بلغت هذه المرتبة العالية في الحياة الروحية ، فأجابت : بقولي دائماً : اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك ومن كل حائل يحول بيني وبينك .

ماسينيون : مجموع نصوص لم تنشر خاصة بالتصوف الإسلامي :

(vers 195/810) رباح القيسي († 185/801) رابعة (1 - 6)

Chez ces deux ascètes, tous deux de l'école de Basra, l'essor de la vie ascétique mène à des états mystiques déjà différenciés, pose des problèmes de casuistique et de dogme délicats. رابعة est la sainte par excellence de l'hagiographie sunnite.

: (مقارب) : (trad. E, 194) = (II, 57, « قوت القلوب » لأبي طالب المكي) 1.

[عن رابعة]

أحبك حبين : حب الهوى . وحباً لأنك أهلٌ لذا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك للحنجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ، ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

= (رابعة ms. Damas Zah. tas. 115, s.v. « الحلية » : أبو نعيم) 2.

(trad. E, 196):

[قيل لرباح] : هل طالت بك الليالي والأيام — بم؟ — بالشوق إلى لقاء

الله . فسكت ... [قالت رابعة] لكني : نعم !

... قال أبو معمر عبد الله بن عمرو ، قال : نظرت رابعة إلى رباح وهو

يقبل صبيهاً من أهله ويضمه إليه ، فقالت : أتجبه ؟ قال : نعم ! قالت : ما كنت

أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه قال : فصرخ رباح وسقط
مغشياً عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول : رحمة منه تعالى
ذكره ألقاها في قلوب العباد للأطفال . —

3. (id)=(trad. E, 195, n. 3):

قال [رباح] : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين
حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابيل الكلاب .

4. (p. 7) = (trad p. 750) f. 164 «التنبيه» وملطي. ap. خشيش النسائي (4. (p. 7)

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم
وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا
عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلّة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر
والفواحش كلها على وجه الخلّة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ولكن
على وجه الخلّة ، كما يحلّ للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه ، منهم رباح
وكليب كانا يقولان بهذه (f. 165) المقالة ويدعوان (في نص ماسينيون :
يدعون) إليها

5. (trad. E 196)=(f. 166 «التنبيه» :ملطي. ap. «الاستقامة» ، خشيش) 5.

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيم الدنيا ، ومحبة لها ،
لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيد شرابها ولين لباسها وطيب رائحتها ،
فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ، وكان من إهانتها مواتاة الشهوات عند اعتراضها
حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها >
< كانا يقولان بهذه المقالة

(ms. Barlin, f. 37 b ، شكوى ، عين القضاة الهمداني) 6.

(رابعة) . . . وخطبها عبد الواحد بن زيد ، مع علوشاته ، فهجرت أياها

حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : « يا شهواني ! اطلب شهوانيةً مثلك ! »

(٥٥ ، جلاء ، الوصي ap الشذرات ، ابن العباد) (p. 8) 7.

(عن رابعة) « وعزتك ما عبدتك رغبةً في جنتك ، بل لمحبتك ، وليس هذا (أى الجنة) ما قطعت عمرى في السلوك إليه . »

8. : (trad. p. 276) = f. 65, 91 , الرد على الحريرية وابن تيمية)

قال (على الحريري) : قيل عن رابعة إنها حجت فقالت : هذا [أى البيت] الصنم المعبود في الأرض ، وإنه ما ولجه الله ولا خلا منه ^(١) .

9. (مناقب العارفين : وأفلاكي) ms. Paris af. parsum 114, f. 411 a

= (Huart, Saints 310).

روزی جماعتی صاحب دلان دیدند که رابعة بدستی آتش گرفته بود ،
وبدستی آب ، وباستعجال می دوید ، سوال کردند که أى بانوی آخرت کجای
روی ، ودر چیستی ، گفت می روم آتش در بهشت زنم وآب در دوزخ ریزم ،
تا این هر دو حجاب ره روان از میانه بر خیزند ، ومقصد مُعین شود ، وبندکان
خدا خدارا بی غرض رجا وعلت خوف خدمت کند ، چه اکد رجای جنت
وخوف جحیم نبودى ، یکی حق را نپر ستیدی ، ومطاوعت ننمودى ؟ ^(٢)

(١) راجع مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ج ٨٠ — ض ٨١ ، القاهرة
سنة ١٣٤١ = ١٩٢٢ .

(٢) هاك ترجمتها :

في ذات يوم رأى جماعة من الفتيان رابعة وفي إحدى يديها نار ، وفي الأخرى ماء وكانت
تعدو بسرعة — فسألوها : أيتها السيدة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبنتين ؟ فقالت : أنا
ذاهبة إلى السماء حتى ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء في الجحيم — فلا تبقي الواحدة ولا الأخرى
ويظهر المقصود ، فينظر العباد إلى الله دون رجاء ولا خوف ، ويعبدونه على هذا النحو —
ذلك أنه لو لم يكن ثمت رجاء في الجنة وخوف من الجحيم أفكاثوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟

10. (وأبو نعيم) ، loc. cit. ms Damas. Zah tas. 115 s. v.

(E 195, n. 2) = (رباح)

— عن رباح — قال (الله تعالى للموحدين يوم الدين) : فهل تعرفون ربكم إذا رأيتموه ؟ قالوا : إن ما عرفنا أنفسه . قال : فيتجلى لهم تعالى فيخروا له سُجَّدًا .

11. « قوت » ، أبو طالب المكي (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ = ٩١٦ م)

(éd. Caire, I, 183) = (p. 45) :

اختلف أهل العلم أيضاً في عبد ترك ذنباً وعمل في الاستقامة ، ونفسه تنازعه إليه وهو يجاهدها ، وفي آخر ترك الذنب وانكش في الإصلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب ولم يكن على قلبه منه ثقل ولا مجاهدة — أي هذين أفضل ؟ فقال بعض علماء الشام (= أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني) : الذي تنازعه نفسه وهو يجاهدها أفضل . . . وقال علماء البصرة (= رباح بن عمرو القيسي) : الذي سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة . . . أفضل .

عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب

النيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ) ، دمشق سنة ١٨٢٤ .

[١٢٥] : ربحانة

قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله : ذُكِرْتُ لى ربحانة ، فخرجت إلى الأُبُلَّة ،

[١٢٦] فإذا أنا بجارية سوداء قد أثر البكاء في خديها خطأ ، فذاكرتها

شيئاً من أمر الآخرة ، فأنشأت تقول :

مَنْ كَانَ رَاكِبَ يَوْمٍ لَيْسَ بِأَمْنُهُ وَلَيْلَهُ تَائِهًا فِي عَقَبِ دُنْيَاهِ
فَكَيْفَ يَلْتَذُّ عَيْشًا لَا يَطِيبُ لَهُ ! وَكَيْفَ تَعْرِفُ عَيْنٌ^(١) الْغُمُضَ عَيْنَاهِ !
وَأَنشَدْتُ أَيْضًا :

صَبَرْتُ عَنْ اللَّذَاتِ حَتَّى تَوَلَّيْتُ وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أَطْعِمْتَ تَأَقَّتْ ، وَإِلَّا تَسَلَّتْ
وَلَهَا أَيْضًا :

وَمَا عَاشِقُ الدُّنْيَا بِنَاجٍ مِنَ الرَّدَى وَلَا خَارِجٌ مِنْهَا بِغَيْرِ غَلِيلٍ
فَكَمْ مَلِكٍ قَدْ صَفَّرَ الْمَوْتَ بَيْتَهُ وَأَخْرَجَ مِنْ ظِلِّ عَلَيْهِ ظَلِيلٍ
وَلَهَا أَيْضًا :

حَسْبُ الْمَحَبِّ مِنَ الْحَيِيبِ بَعْدَهُ أَنْ الْمَحَبَّ يَبْأَبَهُ مَطْرُوحُ
وَالْقَلْبُ فِيهِ إِنْ تَنَفَّسَ فِي الدُّجَى بِسَهَامِ لَوَاعَاتِ الْهَوَى مَجْرُوحُ
وَأَنشَدْتُ أَيْضًا :

بَوَجْهِكَ لَا تَعَذِّبْنِي فَإِنِّي أَوْمِلُ أَنْ أَفُوزَ بِخَيْرِ دَارٍ^(٢)
مُنْجِدَةٍ مِنْ خَرَفَةِ الْعِلَالِي بِهَا الْمَأْوَى ، وَنِعْمَ هِيَ الْقَرَارُ
وَأَنْتَ مَجَاوِرُ الْأَبْرَارِ فِيهَا وَلَوْلَا أَنْتَ مَا طَابَ الْمَزَارُ
وَأَنشَدْتُ أَيْضًا :

أَجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِي اللَّيَالِي نَبْهَةً تَنْبِهَكَ مِنْ خَلَلِ الْمَنَامِ قِيَامًا
وَأَنْسَ إِلَى ظُولِ الْقِيَامِ مَخْلَدًا وَاتْرِكْ لَذِيزَ النَّوْمِ وَالْأَحْلَامِ^(٣)

(١) كذا في الأصل صوابه : طعم .

(٢) كذا بالكسر ، مع أن بقية أواخر الأبيات بالضم .

(٣) في المطبوع : قِيَامٌ ... الأحلام .

وأيضاً :

تَعَوِّذْ سَهْرَ اللَّيْلِ فَإِنَّ النُّومَ مُخْسرَانِ
وَلَا تَرْكَنْ إِلَى الذَّنْبِ فَإِنَّ الذَّنْبَ نيرانِ
فَكُنْ لِلوَحْيِ دَرَّاسًا : وَلِلْقُرْآنِ أَخْدَانُ
[١١٧] إِذَا مَا اللَّيْلُ فَاجَأَمَ فَهَمٌّ فِي اللَّيْلِ رُهْبَانِ
يَمِيلُونَ كَمَا مَالَ مِنَ الْأَرْيَاحِ أَغْصَانُ
وأيضاً :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كَمَا كَبُرَتْ لَدَيْهِ
تَهِينُ الْمَكْرُمَاتُ بِهَا بِصِفْرِ وَتَكْرُمُ كَمَا هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَهُ وَخَذَ مَا كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ

...

حَيَوَنَةٌ

قال راشد بن علقمة الأهوازي : كانت حيونة إذا جَنَّهَا الْإِيلُ تقول في دعائها :
يا واحد ! تمنعني بالليل التلاوة ، ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار ؟ ! إلهي !
وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك !

قال سلام الأسود : طلعت عليها الشمس يوماً فأذنتها ، فقالت :
إن كنت تعلم أنني بك والله فأصرف سموم الشمس عني ، سيدي !
قال : ففقت السماء في الوقت .

قال سلام : صامت حيونة حتى اسودت ، فعوتبت في ذلك ، فرفعت طرفها
[١٢٨] إلى السماء وقالت : قد لأمني خلقتك في خدمتك ؛ فوعزتك وجلالك !
لأخدمنك حتى لا يبقى لي عَصَبٌ وَلَا قَصَبٌ . ثم أنشأت تقول :

يا ذا الذي وعد الرضا لحبيبه أنت الذي ما إن سواك أريد

قال سلام الأسود : نظرتُ إليها في يوم شديد الحر ، فقالت : اسكت ! عند المبلغ يفرح الوردون ، وعند العَرَض تنقطع الأسباب ، وعند قوله خذوه تنشر أعلام العارفين .

زارت رابعة حيونة ، فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة ؛ فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهي تقول : قومي ! قد جاء عرس المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجد !

قال^(١) سلام : وقفت حيونة يوماً على عبد الواحد ثم نادى : يا متكلم ! تكلم عن نفسك ! والله لو مت ما تبعك جنازتك . قال : ولم ؟ قالت : تتكلم على الخليفة وتتقربن لهم ! ماشبهتك إلا بعلم صبي علمه أن يحفظ بالقسي فإذا بكر من بيت أمه نسي ، فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب يا عبد الواحد ! اضرب نفسك بدرّة الأدب ، وتزود زاد القناعة ، واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك ؛ ثم تكلم على الخليفة . قال سلام : فلقد عرق عبد الواحد وأقام ما يتكلم على الناس سنة . وأنشدت :

وليس للميت في قبره فطر ولا أضحي ولا عشر

بات من الأهل على قبره كذلك من مسكنه القبر

قال سلام : سمعت حيونة تقول : من أحب الله أنس ، ومن أنس طرب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق وله ، ومن وله خرم^(٢) ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان .

وكانت تقول : اللهم هب لي سكون قابي [١٢٩] بعقد الثقة بك ، واجعل جميع خواطري واثقة برضاك ، ولا تجعل حظي الحرمان منك ، يا أمل الأملين ! قال إبراهيم : زارت ريحانة حيونة ، فلما جَزَّ الليل جاء المطر والريح الشديد ،

(١) في هذه القصة مهاجمة للوعاظ من الصوفية — فتأملها .

(٢) خرم (من باب كرم) خرامة : كان ذا مجون وخلاعة .

قفرزت ريحانة ، فضحكت حيونة وقالت لها : يامدبرة العمل ! لو علمتُ
أن في قلبي محبة غيره أو خوف سواه لوجأته^(١) بالسكين .

سلمونة

قال سهل بن سعد : كانت عندنا بَعْبَادَانِ امرأةٌ مجنونة اسمها سلمونة ،
وكانت تُغَيِّبُ شخصها بالنهار فلا ترى ، فإذا كان الليل صعدت السطح وجعلت
تنادى إلى الصباح : سيدى ومولاى ! بَجَنَبَتْنِ عن عقلى ، وأوحشتنى عن خلقك ،
وأنستنى بذكرك ، وقد نفيت عن خلقك ، فوا أسفا ! إن نفيتُ عنك .

ميمونة

قال إبراهيم بن الأدهم : رأيت في المنام كأن قائلًا يقول : إن ميمونة السوداء
زوجتك في الجنة . قال : فكنت أطلبها حتى وجدت أثرها بحمص ، فطلبتها فقبل
إنها مجنونة لاتألف أحداً . قلت : فأين هي ؟ قيل : دفعنا إليها أغناماً ترعاها في
الجبانة . فخرجتُ إلى الجبانة فإذا هي قائمة تصلى ، والشاة والذئب في مكان واحد ؛
فوقفتُ متعجباً . فلما قضت الصلاة قالت : يا إبراهيم ! الموعد في الجنة لا هنا .
فعجبت من فطنتها . قلت : يا سبحان الله ! أأنت مؤتمنة على هذه الأغنام ؟
قالت : بلى . قلت : فلم عطلتها حتى توسطتها الذئاب ؟ قالت : سلمتها إلى منشئها .
ثم قالت : ارتفعت الحشمة بينى وبين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع
الوحشة بين الشاة والذئاب .. ثم ولت وأنشأت تقول :

قلوبُ العارفين لها عيونُ	ترى ما لا يراه الناظرون
والسنةِ بسرٍّ قد تناجى	تغيب عن الكرام الكاتين
[١٣٠] وأجنحةِ تطير بغير ريش	إلى ملكوت رب العالمين
فتسقيها شراب الصدق صِرْفاً	وتشربُ من كؤوس العارفين

(١) الضمير يعود على القلب .

الزبيدي «إنحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي» :

(١) ٩٠ ، ص ٥٧٦ :

... (وقال) سفيان (الثوري) رحمه الله تعالى (لرابعة) ابنة اسماعيل
العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى ؛ وكانت إحدى المحبين ؛ ماتت
سنة ١٣٥ . وكان الثوري يقعد بين يديها ويقول : علمينا مما أفادك الله من طرائف
الحكمة . وكانت تقول له : نِعَمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان
الثوري زاهداً عالماً ، إلا أنها كانت تجعل إثارة كتب الحديث والإقبال على الناس
من أبواب الدنيا . وقال لها الثوري يوماً : لكل عَقْد شريطة ، ولكل إيمان
حقيقة و (ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ،
فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل) أو إذا أعطى عمل ، (بل عبدته حباً له
وشوقاً إليه) . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إني لأستحي أن أسأل
الدنيا من يملكها ، فكيف أسأله من لا يملكها ؟ ! فكان هذا جواباً لأنه
قال : سلني حاجتك . وخطبها عبد الواحد بن زيد فحجبتة أياماً حتى سئلت أن
يدخل عليها ، فقالت له : يا شهواني ! اطلب شهوانية مثلك ! ؟ أي شيء رأيت
في من آلة الشهوة ؟ ! وخطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة على مائة
ألف وقال : لي غلة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه :
ما يسرنى أنك لي عبد ، وأن كل مالك لي ، وأنتك شغلتنى عن الله طرفة عين .
(و) قد قالت في معنى المحبة ، أبياتاً (نظماً) تحتاج إلى شرح ، حملها عنها أهل
البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثوري وجعفر بن سليمان الضُّبَعِيّ وعبد الواحد بن
زيد وحماد بن زيد وهي هذه :

(أحبك حين: حب الهوى . وجباً لأنك أهل لذاك

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواك

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

[٥٧٧] فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك)

وقد تكلم صاحب «القوت» على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه من رزقه وينكره من حرمة . والمصنف رحمه الله أشار إلى زبدة كلامه . فلنورد كلامه أولاً ثم كلام صاحب «القوت» . قال المصنف : (ولعلها أرادت « بحب الهوى » حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، « وبجبه لما هو أهل له » الحب لجلاله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين) فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دواماً . وأما صاحب «القوت» فقال : فأما قولها : « حب الهوى » وقولها « حب أنت أهل له » وتفرقتها بين الحبين . فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ولا قدر له به ، ولكننا نجمل ذلك وندل عليه من عرفه : معنى حب الهوى — أى رأيتك فأحييتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ؛ ولكن محبتي من طريق العيان ، فقربت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرغت لك كما قال الحب :

فرَّغت قلبها اشتغالا بذكرى وكذا كلُّ فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ^(١) أى ملآن بذكره

حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول : هو ابنى . فغبر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل .

(١) سورة القصص : آية ٩ .

وأما الحب الثاني الذي هو أهل له : تعنى حبَّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم
 ذى الجلال . تقول : ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل —
 أن^(١) أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبي لك
 لا يوجب لك جزاء عليه بل يوجب علىَّ كلَّ شيء مما لا أطيعه ولا أقوم بحقك
 فيه أبداً ، إذ كنت قد أحبيتك فلزمنى خوفُ التقصير ، ووجب علىَّ الحياء من
 قلة الوفاء والخوف لما تعرضتُ به من حبك ، إذ ليس كمثلك شيء ، كما قال الحب :
 أصبحتُ صبياً ولا أقول بمن خوفاً لمن لا يخاف من أحد
 إذا تفكرتُ فى هوى له لمستُ رأسى : هل طار عن جسدى ؟
 لولا أن الحب ينطق والشوق يقلق ، والوجد يحرق . فالحب لا يلام لغيبة النفس
 عنه ، وإلا نام . تقول : فتفضلت علىَّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ،
 فأريتني وجهك عندك آخرأ ، كما أريتني اليوم عندك أولأ ؛ فلك علىَّ ما تفضلت
 به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذاها هنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ،
 إذ كنت أنا وصلت إليها بك ؛ فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتني بهما .
 فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنس فى
 وجدها وترتفع إلى وصف معنى من الخلَّة فى قولها السائر :

إنى جعلتك فى الفؤاد مُحَدَّثِي . وأبحتُ جسمي من أراد جلوسى
 فالجسمُ منى للجليل مؤانسٌ . وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى
 ومن قولها النادر فى مقام الخلَّة :

وتخللتَ مسلكَ الروحِ منى . وبه سُمِّيَ الخليلُ خليلاً
 فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى . وإذا ما سكثُ كنتَ الغليلاً

وقد أهل ذلك لها كل ما نقله عنها من العلماء ووصفوها به ، فوصفنا من

(١) أن المصدرية وما بعدها واقع فى محل نصب لأنه مفعول : أستحق ... أستأهل .

نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها ، لأننا ظننا بقولها ذلك إن كان لها في المحبة قدم . ولا يسعنا أن نشرح في كتاب حقيقة كشف ما أجملاه ، ولا أن نفصل وصف ما ذكرناه . ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبة ، ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبة ، ومحجوب بالنظر إليها . وإنما ذلك مقام الرجاء — الذى ضده الخوف — ليس من المحبة فى شيء ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين : ما عرفه من ظن أنه عرفه ، ولا أحبه من توهم أنه أحبه — هذا كلام صاحب « القوت » .

(ب) ٩٠ بالهامش ص ٦٨١ فى باب : « بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم » :

« وقالت رابعة العدوية يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه » .

فى شرح الزبيدى : « (وقالت) أم الخير (رابعة) بنت اسماعيل (العدوية) البصرية قدس سرها المتوفية سنة ١٣٥ (يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه) — اعلم أن رابعة قدس سرها كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعية . وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ؛ والمحبة فى مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال . فنهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم ، فيمتنع عنه القواطع . فما أدق نظرها رحمها الله ! »

[فى صلب ص ٦٨١ ٩٠]

(ح) ٩٠ بالهامش ص ٦٨٢ : الباب عينه :

« وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إني لأحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين » .

في شرح الزبيدي : « (وقيل لرابعة) العدوية قدس سرها (كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم — فقالت : إني والله أحبه حباً شديداً ؛ ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين) وحكى عن أبي سعيد الخراز ، قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت . يا رسول الله ! اعذرني ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك ! من أحب الله فقد أحبنى — نقله القشيري » [في صلب ص ٦٨٢ = ٩] .

(د) في شرح الزبيدي (نقلاً عن كتاب « مصارع العشاق » لأبي محمد السراج)^(١) .

« أخبرنا القاضي أبو الحسن التَوَّزِي ؛ أخبرنا ابن يحيى ؛ حدثنا الحسين ابن صفوان ؛ حدثنا ابن أبي الدنيا ؛ حدثنا محمد بن الحسين ؛ حدثني أبو مَعْمَر صاحب عبد الوارث ، قال : نظرت رابعة إلى رباح القيسي وهوية بتل صبيها من أهله ويضمه إليه فقالت : أتجبه يا رباح ؟ قال : نعم . قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره . قال : فصاح رباح وسقط مغشياً عليه » (٩ ص ٦٨٨) .

(هـ) شرح الزبيدي ٩ ص ٦٨٨ :

وردت الأبيات المشهورة المنسوبة إلى رابعة على أنها ليست لها بل لجارية لقبها ذو النون ؛ قال : (وهو ينقل عن مصارع العشاق لأبي السراج)^(٢) :

« ... قال ذو النون : بينا أنا أسير على ساحل البحر إذ بصرتُ بجارية

(١) راجعه بعد ، وهو في « مصارع العشاق » ص ١٨١ ، طبع الجواثب سنة ١٣٠١ .

(٢) وردت في مصارع العشاق لأبي محمد السراج القاري ، ص ١٨٠ — ص ١٨١ ، طبع

الجواثب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ .

عليها أطار شَعَر ؛ وإذا هي ناحلة ذابلة . فدنوتُ منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها
متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح واضطربت الأمواجُ وظهرت الحيتان ،
فصرخت ثم سقطت إلى الأرض . فلما أفأقتُ — نجت . ثم قالت : سيدي !
بك تقرب المتقربون في الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ،
ولجلال قدسك تصافقت الأمواجُ المتلاطبات . أنت الذي سجد لك سوادُ الليل
وضوءُ النهار ، والفلك الدوّار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار والنجم الزّهار ،
وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العليُّ القهار .

يا مُؤَنِّسَ الأبرار في خلواتهم يا خَيْرَ مَنْ حَلَّتْ بِهِ النَّزَالُ
من ذاق حُبَّكَ لا يزال مُتَبِّباً فَرَحُ القَوادِ - متبباً - بَلْبَالِ
من ذاق حُبَّكَ لا يرى متبباً في طول حزنٍ في الحشا إشمالُ
فقلت لها : زينا من هذا ! فقالت إليك عني ؛ ثم رفعت طرفها
إلى السماء وقالت :

أحبُّكَ حُبِّين : حبَّ الوداد ، وحباً لأنك أهل : لذاك
فأما الذي هو حبُّ الوداد فحبٌّ شَغِلْتُ بِهِ عَنْ سِوَاكَ
وأما الذي أنت أهل له فكشفتك للحُجُبِ حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك
ثم شَهَقْتُ شَهَقَةً فَإِذَا هِيَ قَدْ فَارَقَتْ الدُّنْيَا . فَبَقِيْتُ أَنْعَجِبُ مِمَّا رَأَيْتُ مِنْهَا ؛
فَإِذَا بِنِسْوَةٍ قَدْ أَقْبَلْنَ ، عَلَيْهِنَّ مَدَارِغُ الشَّعَرِ ، فَاحْتَمَلْنَهَا فَعَيْنُنَهَا عَنْ عَيْنِي فَفَسَلْنَهَا ،
ثُمَّ أَقْبَلْنَ بِهَا فِي أَكْفَانِهَا . فَعَلَنْ لِي : تَقْدِمَ فَصَلَّ عَلَيْهَا . فَتَقَدَّمْتُ وَصَلَّيْتُ عَلَيْهَا
وَهُنَّ خَلْفِي . ثُمَّ احْتَمَلْنَهَا وَمَضَيْنَ

«الرسالة القشيرية» ، القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ :

(١) في باب الرضا :

« وسئلت رابعة متى يكون العبد راضياً ، فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته
النعمة » (ص ٨٩)

(ب) في باب التوبة :

« وقال رجل لرابعة : إني قد أكرثت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبتُ ،
هل يتوب علي ؟ فقالت لا ! بل لوتاب عليك لتُبت . » (ص ٤٨)

(ج) في باب المحبة :

« قالت رابعة في مناجاتها : إلهي ! أتحرق (١٤٨) بالنار قلباً يحبك ؟ فهتف
بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ؛ فلا تظني بنا ظن السوء . » (١٤٧ — ١٤٨)

«صفة الصفوة» لابن الجوزي ، ج ٤ ص ٥٧ ، مخطوط الظاهرية تاريخ ٦٧ :
«أخبرنا أبو القاسم الحريري قال : أنبأنا أبو طالب العساري ، قال : أنبأنا
أبو بكر البرقاني ، قال أنبأنا ابراهيم بن محمد الزكي ، قال حدثنا محمد بن اسحق السراج
قال : حدثنا حاتم بن الليث الجوهري ، قال حدثنا عبد الله بن عيسى ، قال :

دخلت على رابعة العدوية بيتها فرأيت على وجهها النور ، وكانت كثيرة البكاء ؛
فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت .

ودخلتُ عليها وهي جالسة على قطعة بوري خَلَقَ ، فتكلم رجل عندها

بشيء ، فجعلت أسمع وقع دموعها على البورى مثل الوكف . ثم اضطربت وصاحت .
فقمنا وخرجنا .

أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أنبأنا الحسن بن أحمد الفقيه ، قال : أنبأنا
محمد بن أحمد ، قال : أنبأنا أحمد بن جعفر بن سلم ، قال : حدثنا أحمد بن عبد الخالق
قال : أنبأنا يعقوب بن يوسف ، عبد اسحق بن ابراهيم ، قال حدثنا مسمع بن عاصم
ورباح القيسى قالا : شهدنا رابعة وقد أتاها رجل بأربعين ديناراً فقال لها . تستعينين
بها على بعض حوائجك ؛ فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت : هو يعلم أنى
أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن
لا يملكها !

أنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار ، قال :
أنبأنا العتيقي ، قال أنبأنا عثمان (ص : عثم) بن عمر بن المثاب ، قال : أنبأنا ابن
محمد بن عبد الله بن سليمان النامي ، قال ، حدثنا بن حبيب البزاز ، قال : حدثنا
الفضل بن موسى البصرى ، قال : حدثنا ابراهيم بن بشار الرمادى ، قال حدثنا
محمد بن أبي حاتم [٥٧ ب] قال : حدثنا محمد بن عمرو قال :

دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشن تكاد
تسقط ، ورأيت في بيتها كراحة بوارى ومشجب قصب فارسى طوله من الأرض قدر
ذراعين ، وستر البيت جلة وربما كان بورياً^(٢) وحُب وكوز ، ولبد هو فراشها وهو
مصلاها ، وكان لها مشجب من قصت عليه أ كفانها . وكانت إذا ذكرت الموت
انتفضت وأصابها رعدة . وإذا مرت بقوم ، عرفوا فيها العبادة . وقال لها رجل :
ادعى لى ! فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا ، يرحمك الله ! أطع ربك وادع فانه
يحبب المضطر .

(١) ص : عجوز . (٢) ص : بورى .

أخبرنا الحمدان برأى منصور وابن عبد الباقي قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا أحمد بن علي التودى ، قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، قال : أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد القرشي ، قال ، قال محمد بن الحسين : حدثني سحف (كذا) بن منظور قال :

دخلت على رابعة وهي ساجدة . فلما أحست بمكاني رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمت ، فأقبلت عليّ فقالت : يا بني ! لك حاجة ؟ فقلت : جئتكم لأسلم عليكم . قال : فبكت وقالت : « سترك اللهم سترك ! » ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت .

قال القرشي : وحدثني محمد بن إدريس قال ، حدثنا أحمد أبي الجوارى ، قال : حدثنا العباس بن الوليد ، قال ، قالت رابعة^(١) : أستغفر الله من قلة صدقي في قولي : استغفر الله ! .

قال القرشي : وحدثني أزهر بن مروان ، قال دخل على رابعة رباح القيسي وصالح بن عبد الجليل [١٥٨] وكلاب ، فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم ، قالوا ، ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال القرشي : وحدثني أبو جعفر المديني عن شيخ^(٢) من قريش قال : قيل لرباعة : هل عملت عملا ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان ، فمخافتي أن يرَدَّ عليّ .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال : أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب قال : حدثنا عبد الله بن أيوب المزني (كذا) قال : حدثنا شيبان بن فروخ قال : حدثنا جعفر بن سليمان ، قال : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : مُرَّ إلى المؤدبة التي

(١) المقصود هنا رابعة بنت اسماعيل ، مادامت الرواية بسند أحمد بن أبي الجوارى زوجها .

(٢) يصح أن تكون : سائح .

لا أجد من أستريح إليه إذا فارقته . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال اللهم إني أسألك السلامة . فبكت رابعة . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أنت عرّضتني للبكاء . فقال لها ، وكيف ؟ قالت ! أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطنخ بها !

وقال الثوري بين يدي رابعة : وا حزناه ! فقالت : لا تكذب ؟ قل : واقلة حزناه ! لو كنت محزوناً ما هنّاك عيش .

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال : أنبأنا محمد بن علي الكوفي ، قال : أنبأنا علي ابن الحسن التنوخي ، قال : حدثنا علي عمر الخليل^(١) ، قال : حدثنا محمد بن عبده ابن حرب القاضي ، قال : حدثنا شيبان بن فروخ ، قال : سمعت جعفر بن سليم يقول : سمعت رابعة تقول لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ؛ فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم ، فاعمل .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال : أنبأنا محمد بن هبة الله الطبري ، قال : أنبأنا علي بن محمد بن الشران ، قال : حدثنا الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي ، قال : حدثني (٥٨ ب) محمد بن الحسين ، قال : حدثني عُنَيْس ابن مرحوم العطار ، قال حدثني عبدة بنت أبي شوال — وكانت من خيار إماء الله تعالى ، وكانت تخدم رابعة — قالت : كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجمة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك بأن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

قالت : فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعّنتي فقالت : يا عبدة ! لا تؤذني بموتى أحداً ولقيني^(٢) في جيتي هذه (جبة من شعر

(١) مشددة الباء في الأصل . هكذا : الخليل . (٢) ص : لسي .

كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون) . قالت : فكفناها في تلك الجبة وخار صوف كانت تلبسه . قالت عبدة : رأيته بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامى . عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه . فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة^(١) التي كفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله : نزع عني وأبدلت به هذا الذي ترينه عليّ ، وطويت أكفاني وختم عليها ورُفِعت في عليين لتكمل لي بها ثوابها يوم القيامة . قالت ، فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا . فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! قالت : فقلت : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيات ! هيات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . قالت : قلت : وبم ؟ وقد كنت عند الناس ! — أى أكثر منها — قالت : إنها لم تكن تبالي على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست . قال : فقلت : فما فعل أبو مالك ؟ — يعنى ضيفماً ؟ قالت : يزور الله عز وجل متى شاء . قالت : قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ ! أعطى والله فوق ما كان يأمل^(٢) . [٥٩] قالت : قلت : فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ! قالت : عليك بكثرة ذكره ؛ أو شك أن تغتبطى بذلك في قبرك . قلت : اقتصرت ما هنا على هذا القدر من أخبار رابعة لأنني قد أفردت لها كتاباً فيه كلامها وأخبارها .

« صفة الصفوة » لابن الجوزى ج ٤ ص ٢٠٢ ا برقم ٦٧ تاريخ بالظاهرية :

رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري :

كذا نسبها أبو بكر بن أبي الدنيا ؛ وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي أن رابعة

(١) ص : الجبة (٢) ص : يألم .

العدوية تشارك هذه في اسمها واسم أبيها وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالباء ؛ والعدوية بصرية وهذه شامية .

وقد أخبرنا أبو ناصر ، قال : أنبأنا أبو الغنائم بن النمرسي قال : رابعة بالباء بنقطة في تحتها بصرية . ورابعة بائنتين من تحتها شامية .

قال : ثنا عبد الواحد بن بكر ، قال : ثنا اسحق بن أحمد بن علي ، قال : ثنا إبراهيم بن يوسف ، قال ثنا أحمد بن أبي الخواري قال : قلت لرابعة وهي امرأتى وقامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، ما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت : سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت . قال : وجلست آكل وتذكّرني فقلت لها : دعينا يهيننا طماننا . قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام عند ذكر الآخرة . أخبرنا محمد بن عبد الباقي : قال أنبأنا (٢٠٢ ب) الحسن بن عبد الملك بن يوسف ، قال : أنبأنا أبو محمد الحلال ، قال : حدثني علي بن عمر بن علي النجار ، قال : ثنا إبراهيم بن أحمد بن الحسن القرمسيني ، قال : سمعت محمد بن اسحق السراج ، يقول : سمعت علي بن موفق يقول ، سمعت أحمد بن أبي الخواري يقول : قالت لي رابعة : أي أخي ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبار على مساوي عمله ، فتشاغل به دون خلقه !

أنبأنا محمد بن أبي منصور ، قال أنبأنا محمد بن أبي نصير الحميدي ، قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد الأردستاني ، قال : ثنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، قال سمعت أبا عمرو ومحمد بن محمد النجار الرازي يقول : سمعت محمد بن طيفور يقول : سمعت عمر بن محمد يقول عن أحمد بن أبي الخواري ، قال : كانت لأبنة أخوال شئ فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف . فسمعتها في حال الحب تقول :

حبيب ليس يَغْدُلُهُ حبيب ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصرى وشخصي ولكن في فؤادي ما يغيب

وسمعتها في حال الأنس :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي^(١) من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليلس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
وسمعتها في حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مُبَلَّغِي الأزاد أبكي أم لطول^(٢) مسافتي ؟ !
أُتَحَرِّقَنِي بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك ! أين مخافتي !

أنبأنا المحمّدان : ابن أبي منصور وابن عبد الباقي قالا : أنبأنا جعفر بن أحمد
قال : أنبأنا أحمد بن علي التوزي قال : أنبأنا محمد بن عبد الله الدقاق ، قال أنبأنا
الحسين بن صفوان ، قال : حدثنا أبو بكر القرشي ، قال : حدثني محمد بن إدريس ،
قال : حدثنا أحمد بن أبي الخواري ، قال : سمعت ربيعة تقول : إني لأضن باللقمة
الطيبة أن أطعمها نفسي ، وإني لأرى ذراعي قد سمن فأحزن . قال : وربما قلت لها :
أصائمة أنت اليوم ؟ فتقول : وما مثلي ينظر في الدنيا . قال : وربما نظرت إلى وجهها
ورقبتها (٢٠٣) فيتحرك قلبي على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتي أصحابنا من
أثر العبادة . وقالت لي : لست أحبك حب الأزواج ؛ إنما أحبك حب الإخوان ،
وإنما رغبت فيك رغبة في خدمتك ، وإنما كنت أتمنى أن يأكل مالي مثلك ومثل
إخوانك . قال أحمد : وكانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها على . وكانت إذا
طبخت قدراً قالت : كلها ياسيدي فما نصبت إلا بالتسييح ! وقالت لي : لست
أستحل (أن) أمنعك نفسي وغيري ؛ اذهب فتزوج . قال : فتزوجت ثلاثاً . وكانت
تطعمني اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنت إذا أردت جماعها نهراً

(١) ص : جسمي (٢) تحتها : لبعد — وقد ضرب عليها .

قالت : بالله لا تفطرنى اليوم . وإذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبتنى
لله الليلة .

قال أبو بكر القرشى ، وحدثني عون بن إبراهيم ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري ،
قال : سمعت رابعة تقول ، ما سمعت الأذان ذكرت منادى القيامة ، ولا رأيت الثلج
إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب ، قال ، أنبأنا
أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : ثنا أبو جعفر الرازى ، قال ، ثنا العباس بن حمزة ،
قال ، ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : قالت رابعة : نَحُوا عَنِ ذَلِكَ الطَّسْتِ ،
فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ : مَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ الرَّشِيدِ . قال أحمد : فنظروا فإذا هو
مات ذلك اليوم .

أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، قال ، أنبأنا رزق الله ، قال : أنبأنا السلمى ، قال :
ثنا محمد بن أحمد بن سعيد ، قال : العباس بن حمزة ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري ،
قال : سمعت رابعة تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيثون ؛ وربما
رأيت الحور العين يستترن منى بأكمامهن ، وقالت بيدها على رأسها . قال أحمد ،
ودعوت رابعة فلم تجبني ؛ فلما كان بعد ساعة أجابتنى وقالت : إنما منعنى أن
أجيبك أن قلبى قد كان امتلاً فرحاً فلم أقدر أن أجيبك ..

ابن تيمية : «مجموعة الرسائل والمسائل» ج ١ ص ٨٠—٨١ ؛

القاهرة سنة ١٣٤١ = سنة ١٩٢٢

... وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود فى الأرض
فهو كذب على رابعة . ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب ، فإن تاب
وإلا قتل . وهو كذب ، فإن البيت لا يعبدہ المسلمون ، ولكن يعبدون رب

البيت بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها : والله ما ولج الله ولا خلا منه — كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره في هذا المعنى ، فلائى مزية يطاف به ويصلى (٨١) إليه ويحج دون غيره من البيوت ! وقول القائل : ما ولج الله فيه — كلام صحيح . وأما قوله ، ما خلا منه — فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل وهو مناقض لقوله ما ولج فيه ؛ وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له ، لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير حال فيه . فهذا ، مع أنه كفر وباطل ، يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

الجزء الثالث من « عيون التواريخ » لصلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي ، برقم ٤٤ تاريخ بالظاهرية بدمشق ورقة ٧ ب ، عن سنة ١٣٥ :
 بعد أن أورد ما أورده ابن خلكان إلى ما جاء في عوارف المعارف من الشعر :
 « قال عبد الله بن عيسى : دخلت على رابعة العدوية وهي جالسة على قطعة بارية ، فتكلم رجل عندها بشيء ، فجعلت أسمع وقع دموعها على البارية مثل الوكف . ثم اضطربت وصاحت فقمنا وخرجنا .
 وقال محمد بن عمرو : دخلت على رابعة وكانت عجوزاً^(١) كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها السن تكاد تسقط . فرأيت في بيتها كواخذ بواري ومشجب^(٢) قصب فارسي ، طوله من الأرض قدر ذراعين ، عليها أكفانها ، وستر البيت جلة^(٣) ، وحُب وكوز ولبد وهو فراشها وهو مصلاها . قال لها رجل : ادعى لي ! فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا يرحمك الله ! أطع ربك واعبده وادعوه ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

(١) ص : عجوز (٢) ص : مشجب (٣) ص : جلد .

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : كانت رابعة محقة فطنة . ومن كلامها الدالّ على قوة همتها قولها : أستغفر الله من قلة صدق في قولي أستغفر الله .
وكان سفيان يقول : مروا بنا إلى المؤدبة الذي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها .

وقد جمع ابن الجوزي أخبارها في كتاب .
وكانت وفاتها على قول ابن الجوزي (١٨) في هذه السنة . وقال غيره سنة خمسة وثمانين ؛ وهي مدفونة بظاهر القدس على رأس جبل ؛ وقبرها يزار — رضى الله عنها .

«مصارع العشاق» لأبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارى
طبع الجواثب سنة ١٣٠١ باستانبول

(١) ص ١٣٦ :

« أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوزي بقراءتي عليه ،
قال أخبرنا محمد بن عبد الله القطيعي ، قال حدثنا الحسين بن صفوان ، قال حدثنا
عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشي ، قال حدثنا محمد بن الحسين ، قال
حدثني عصام بن عثمان الحلبي ، قال حدثني مسمع بن عاصم قال :
قالت لي رابعة العدوية : اعتلات علة قطعتني من التهجد وقيام الليل ، فكشيت
أياماً أقرأ جزئي إذا ارتفع النهار لما يذكر فيه أنه يعدل بقيام الليل . قالت : ثم
رزقني الله عز وجل العافية . فاعتادتني فترة في عقب العلة ، وكنت قد سكنت
إلى قراءة جزئي بالنهار ، فانقطع عني قيام الليل . قالت : فيينا أنا ذات ليلة راقدة
أريت في منامي كأن رفعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن . فيينا أنا

أجول فيها أتعجب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنها تريد أخذه قالت : فشغلني حسنها عن حسنه . فقلت : ما تريدن منه ؟ دعيه ! فوالله ما رأيت طائراً قط أحسن منه . قالت : نيلي ! ثم أخذت بيدي فأدارت بي في تلك الروضة حتى انتهت بي إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت ففتح لها ، ثم قالت : افتحوا لي بيت^(١) المقة ؛ قالت ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفي . وقالت لي : ادخل ! فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر تلاًلوا وحسناً ، ما أعرف له في الدنيا شيئاً أشبه به . فبينما نحن نجول فيه إذ رفع لنا باب ينقذ منه إلى بستان ؛ فأهوت نحوه وأنا معها . فقلقنا فيه وصفاً كأن وجوههم اللؤلؤ ، بأيديهم الجماس . فقالت لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد فلاناً ، قتل في البحر شهيداً . قالت : أفلا تُجَمِّرا^(٢) هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان لها في ذلك حظ فتركته . قالت : فأرسلت يدها من يدي ثم أقبلت عليّ فقالت :

صلواتك نورٌ والعبادُ رقودٌ ونومك ضدٌّ للصلاة عتيدُ

وعمرُك غنمٌ إن عقلت ومهلّه يسيرٌ ويفنى دائماً ويُبِيدُ

ثم غابت من بين عيني ؛ واستيقظت من تبدى الفجر . فوالله ما ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلي وأنكرت نفسي . قال : ثم سقطت رابعة مغشياً عليها .

(ب) وفي ص ١٨١ :

« أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين البوزي رحمه الله بقراءتي عليه ، أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخي ميمى ، حدثنا الحسين بن صفوان ، حدثنا عبد الله بن محمد القرشي ، حدثني محمد بن الحسين ، حدثني أبو معمر صاحب عبد الوارث قال :

(١) في المطبوع : بيت لمقة أقالت .

(٢) أجمر الثوب : بنجره بالطيب .

نظرت رابعة إلى رباح القيسي وهو يقبل صبيًا من أهله ويضمه إليه فقالت :
ما كنت أحسب أن في قلبك موضعًا فارغًا لمحبة غيره . قال : فصاح رباح
وسقط مغشيًا عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمة منه
— تعالى ذكره — ألقاها في قلوب العباد للأطفال .

للشيخ عبد الرؤوف المناوي : « طبقات الأولياء »

رقم ٤١٦٤ خط بالظاهرية بدمشق .

(١١٠٤) رابعة العدوية :

القيسية ثم البصرية ، رأس العابدات ورئيسة الناسكات القانتات الخائفات
الوجلات . كانت في عصر الحسن البصري . وهي إحدى النساء اللاتي تقدمن
ومهرن في الفضل والصلاح كأم أيوب الأنصارية وأم الدرداء ومعاذة العدوية .
وهي من بينهن المشهورة بعظيم النسك ومزید العبادة وكمال النزاهة والزهادة .
كانت تصلي ألف ركعة في اليوم واليلة ، فقليل لها : ما تطلبين بهذا ؟ قالت :
لا أريد به ثوابًا وإنما أفعله لكي يسر رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبياء :
انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها .

وكانت تصلي الليل كله ؛ فإذا طلع الفجر جمعت في مصلاها قليلًا حتى يسفر
الفجر ثم تثب^(١) وهي فزعة وتقول : يا نفس اكمن^(٢) ثمانين^(٣) ! وإلى كم تقومين !
يوشك أن تنامي نومة لا قومة لها إلا لصرخة يوم النشور .

وكتب محمد بن سايان الهاشمي — وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانين ألف
درهم — إلى كبراء أهل البصرة في امرأة يتزوجها فأجمعوا على رابعة ، فكتبت^(٢) إليه :

(١) م : تثبت . (٢) م : تنامي . (٣) م : فكتب إليها — والسياق وصيغ
الأفعال تقتضي ما أثبتناه .

«أما بعد ! فإن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ؛
فهيء مزاذك ، وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا
تركتك ، وصم الدهر واجعل فطرك الموت . وأما أنا فلو خولني الله (١٠٤ ب)
أمثال ما خولاك وأضعافه ، فلم يسرنى أن اشتغل عن الله طرفة عين والسلام » .

ومن كراماتها

أن لصاً دخل حجرتها وهي نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده
فوضعهما فوجده ؛ فحملها ، فخفي عليه . فأعاد ذلك مراراً . فهتف به هاتف : دع
الثياب فإننا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة .

قال البيهقي : وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى : « له معقبات من بين يديه
ومن خلفه يحفظونه ^(١) » . الآية .

وخاطت بمض قميصها في ضوء مشعلة سلطانية ، ففقدت قلبها زماناً حتى
تذكرت ، فمزقت القميص ، فعاد قلبها .

وسئلت : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .
وكانت شديدة الخوف جداً ، فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها . وكانت تقول :
لو كانت الدنيا لرجل ، ما كان بها غنياً . قيل : كيف ؟ قالت : لأنها تقنى .
قالوا : مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياء من الله .

وكانت تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ وما رأيت
الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .

وقالت : استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه .

وذم بعضهم الدنيا فقالت : قال رسول الله : من أحب شيئاً أكثر من ذكره ؛
ذكر كم لها دليل على بطلالة قلوبكم ، إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها .

وأتاها رجل بأربعين ديناراً فقال: استعيني بها على بعض حوائجك ! فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء ، ثم قالت : هو يعلم أنى أستحي (١٠٥) منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أخذها ممن لا يملكها ؟ ! وكانت إذا قال لها إنسان : ادع^(١) لى ! ترتعد وتقول : من أنا ؟ ! أطلع ربك وادعنه فإنه يجيب المضطر .

وقيل لها : عملت عملاً ترين أن يقبل منك ؟ قالت : إن كان ، فخوفى أن يرُدَّ علىّ وأخذ سفيان بعض إخوانه وقال : نذهب إلى المؤدبة التى لا أسد أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلا عليها رفع سفيان يده وقال : اللهم إني أسألك السلامة ! فبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ فقالت : عرضتني للبكاء . أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ، فكيف وأنت ملطخ بها ؟ ! وقالت : إنما أنت أيام معدودة ؛ فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ؛ وأنت تعلم فاعمل . وقال لها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء — عبدته حباً وشوقاً إليه .

وقال مالك بن دينار : أتيتها فإذا هى تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها ! يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ !

ومن مناجاتها

إلهى : تحرق بالنار قلباً يحبك ؟ فقيل لها : لا تظنى بنا ظن السوء . وكانت تنشد :
 إني جعلتك فى القواد محدثى وأبجتُ جسمى من أراد جلوسى
 فالجسم منى للجلوس مؤانس وحبيب قلبى فى القواد أنيسى
 وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها وتقول : ألك حاجة ؟ فإن كان له
 قضى وطره ، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح .

وكان كفنها لم يزل عندها ؛ ويجدون محل سجودها كالماء المتنقع من كثرة
(١٠٥ ب) البكاء .

وقال لها رجل : إني أكرت من المعاصي ، فلو تبت هل يتوب عليّ ؟ قالت :
لا بل لو تاب عليك لتبت : « ثم تاب عليهم ليتوبوا^(١) » .

وسمعت سفيان الثوري يقول : واحزنناه ! فقالت : لا تكذب ! قل : واقلة
حزنناه ! لو كنت حزيناً ما هتأك عيش .

وقالت له مرة : نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا ! قال : فيما ذرغبت ؟
قالت : في الحديث .

ومرضت فقال لها عواذها : ما سبب علتك ؟ قالت : نظرت بقلبي إلى الجنة
فآذاني . فتبت أن لا أعود .

ومن كراماتها : أنها زرعت زرعاً فوق عليه الجراد فقالت : إلهي ! رزقي
تكفلت به ، فإن شئت فأطعمه أعداءك وأولياءك . فطار الجراد كأنه لم يكن .
وحجبت على بعير فمات قبل بلوغها لمنزلها . فسألت الله أن يخفيه . فركبت حتى
وصل إلى باب دارها فخر ميتاً .

وقالت لسفيان الثوري : ما تعدون السخاء فيكم ؟ قال أما عند أبناء الدنيا
فمن يجود بماله ، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه . قالت : أخطأتم . قال لها :
فما السخاء عندك ؟ قالت : أن تعبد حياً له لا طلب جزاء ولا مكافأة .

وضرب رأسها ركن جدار ، فأدماه ، فلم تلتفت لذلك . فقيل لها : ما تحسین
بالألم ؟ قالت : شغلي بموافقة مراده فيما جرى شغلي عن الإحساس بما ترون .

وسمعت قارئاً يقرأ : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون^(٢) » فقالت :
مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم ! وعاب عليها ابن عربي هذه المقالة

[١٠٦] وقال: إنها ما عرفت ، وإنها المسكينة: فإنما شغلهم إنما هو بالله. قال: وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير بىادى الرأى والتعريض فى حق نفوسهم؛ إنهم منزهون عن ذلك. لكنه مع ذلك بالغ فى موضع آخر فى مدحها وقال: إنها فى رتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى، فقال: السائرون إلى الله بمزائم الأمور المشروعة على قسمين: طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منها ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخطى بينهم وبين الله؛ فهؤلاء إذا سارغوا سابقوا إلى الخيرات، لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق. والطائفة الأخرى جعلوا فى نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول بين أيديهم. هكذا قال، ثم قال: والحالة الأولى هى حالة عبد القادر وأبى السعود بن شبل ورابعة العدوية ومن جرى مجراهم — انتهى. قال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها فى النوم تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمرة بمناديل من نور. ماتت سنة ثمانين ومائة، وقيل غير ذلك. ورأتها خادمتها فقالت: مرينى بأمر أتقرب به إلى الله! قالت: عليك بكثرة ذكره، أوشك أن تغتبطى به فى قبرك. وقد أفرد ابن الجوزى لمناقبها وكلامها مؤلفاً حافلاً.

رابعة بنت اسماعيل العدوية

ورابعة هذه بمحنة تحتية، وهى شامية؛ والى قبلها بموحدة [١٠٦ ب] تحتية وهى بصرية^(١) — فافترقا. كانت تقوم الليل كله وتقول: إذا عمل عبد

(١) ص: مصرية.

بطاعة الله أطلعه على مبادئ عمله فاشتغل بها دون الخلق . وقالت : ما سمعت أذناً قط إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا ذقت حراً إلا ذكرت حر الحشر . وكانت ترى الجنَّ عياناً . وقالت : رأيت الحور العين فتستترن منى بأكامهن . ورابعة هذه كانت زوجاً لابن أبي الحواري . قال : قلت لها وقد قامت بليل : قد رأينا أبا سليمان^(١) وتعبداً معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل . فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ إنما أقوم إذا نوديت .

قال : وجلست آكل ، وجلست تذكري . فقلت : دعينا يهيننا طعامنا . قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام . وقالت لى : أى أخى ! أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه على مساوى عمله ، فتشاغل به دون خلقه ! وكانت لها أحوال شتى : فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة الأُنس ، ومرة الخوف . وكانت تقول : إني لأضن باللحمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، وإني لأرى ذراعى قد سمن فأحزن .

وكان إذا أراد زوجها جماعها نهراً ، قالت : أسألك بالله لا تفطرنى اليوم . وإذا أراد ليلاً قالت : أسألك بالله إلا ما وهبتنى لله الليلة .

ومن كراماتها

أنها قالت : نَحَوُا^(٢) عنى الطشت ، فإنما عليه مكتوب : مات هارون الرشيد . فنظروا فإذا هو قد مات ذلك اليوم .

ودعاها زوجها يوماً فلم تجبه ؛ ثم بعد مدة أجابته وقالت : إنما منعنى أن أجيبك أن قلبى كان امتلاً فرحاً بالله ؛ فلم أقدر أن أجيبك .

ماتت سنة خمس وثلاثين ومائة . ودفنت برأس زيتا بيت المقدس . وقيل

[١١٠٧] المدفونة هناك إنما هى الأولى .

(١) يقصد أبا سليمان الداراني (٢) م : نحو عنى .

رياح بن عمرو القيسي

. (١٠١ ب) صاحب المجد والفخر ؛ القانت لله في السر والظهر . كان للدنيا قالياً ؛ ومنها هارباً ؛ وفي الآخرة راغباً ، ولها خاطباً ؛ مطرَحاً للكلف ، راقياً بهيمته إلى أعلى الغرف .

وكان إذا دخل المسجد بكى ؛ وإذا دخل بيته بكى ؛ وإذا دخل الجبانة بكى . فيقال له : أنت دهرك في مأثم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا . واتخذ غُلا من حديد ، فإذا جَذَّه الليل وضعه في عنقه وتضرع وبكى حتى يصيح .

وقال الحارث بن سعيد : أخذ رياح بيدي وقال : هلم نبكي على ممر الساعات . — ونحن على هذه الحال فخرجنا إلى المقابر . فلما نظرناها صرخ ، فأغمى عليه ، فقعدت عند رأسه أبكى . فأفاق فقال : ما يبكيك ؟ قلت : ما أرى بك . قال : لنفسك فابك . ثم قال : وانفساه ! فغشى عليه وسقط .

ومن كلامه : شأن العاقل أن لا يحمل لبطنه على عقله سبيلا : فإن الدنيا أيام قلائل . وقال : إياكم والإكثار من اللحم ، فإنه يقسى القلب . وقال : تحويل جبل من مكانه أمهل من إزالة حب الرئاسة إذا استحكم . وقال : نحت الجبال بالأظفار أمهل من مخالفة الهوى إذا تمسكن . وقال : رحم الله إخواناً زاروا قبور إخوانهم بقلوبهم وهم في محاريبهم [١٠٢] وقال : إذا قال رفيقك « قصعتي » فليس برفيق حتى يقول : قصعتنا . وقال : كما لا ينظر بصر الخفاش نور الشمس ، لا ينظر قلب محب الدنيا نور الحكمة .

وقال : عليك بمجالس الذكر وحسن الظن بمولاك ، وكفى بهما خيراً .
وقال : مما أوصى به الخضر عليه السلام موسى : إياك أن تتعلم العلم لغيرك

فلا تعمل به ، فيكون لغيرك نوره وعليك وزره . وقال : لا يبلغ رجل منزلة الصديقين حتى يدع زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام^(١) ويأوى مزابل الكلاب . وكان أدمه الملح والخبز ؛ ويقول لنفسه : أمامك طعام العز والجاه والعرس في الآخرة .

— ١٦ —

الطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٥٩ — ص ٧٣ نشرة نيكلسون

رابعة العدوية

إنها ذات الخدر الخالص ، المستورة بستر الإخلاص ، المتقدمة بنار العشق والاشتياق ، المتحرقة إلى القرب والاحترام ، الفانية في الوصال ، المقبولة عند الرجال ، كأنها مريم ثانية ، صافية صفية ، إنها رابعة العدوية — رحمة الله عليها . .
فإن سألتني أحد : لم ذكرت لها في صف الرجال ؟ قلت لهم : قد قال السادة الأنبياء عليهم السلام : إن الله لا ينظر إلى صُوركم . . . الحديث . فالعبرة لا بالصورة ، بل بالنية كما قال عليه السلام : « يحشر الناس على نياتهم » . فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصديقة — رضى الله عنها — ثلث الدين ، فمن الجائز أن نتلقى فائدة دينية من إحدى خادمتها (أى رابعة) . إن المرأة التى تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال لا يمكن أن تسمى امرأة . ولقد قال عباسه الطوسى : إذا دعينا يوم القيامة : « يا رجال » فأول متقدم فى صف الرجال (أى الداخلين إلى الفردوس) سيكون مريم عليها السلام . وكان الحسن إذا لم يرها فى المجلس حاضرة ترك المجلس — ومعنى هذه الحقيقة (وهو مساواة النساء بالرجال فى القداسة)

(١) ص : أيتاما . . .

أنه حيث يوجد الصوفية فلا تفرق بينهم في وحدة الوجود (الإلهي)، ففي التوحيد ماذا يبقى من وجود «أنا أو أنت»؟ وإذن كيف يكون ثمت امرأة ورجل؟ كذلك قال أبو علي الفارمذي رضى الله عنه: إن النبوة عين العزة والرفعة؛ فليس فيها سمو وانحطاط. ولا ريب في أن الولاية من هذا النوع.

لقد كانت رابعة فريدة في معاملتها (مع الله) وفي معرفتها، وكانت معتبرة في جملة كبار عصرها، وكانت حبة قاطعة عند معاصريها. وفي الليلة التي أتت فيها رابعة إلى الدنيا لم يكن في بيت أهلها شيء، لأن أباه كان فقيراً فلم يكن عنده قطرة من سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها، ولم يكن ثمة نور ولا خرق للف الوليد، وكان له ثلاث بنات فسميت «رابعة» لأنها رابعتهن. فقالت له امرأته: اذهب للجيران وأئت بقطرة من الزيت حتى يضيء القنديل، ولكنه كان قد عاهد نفسه على ألا يطلب من الناس شيئاً، لأنه لو طلب شيئاً ما أعطوه. فجمع هذا ذهب إلى الجارة وطرق الباب، ثم عاد إلى زوجه وقال إنه لم يفتح له. فبكت. وفي ذلك الوقت أطرق على ركبتيه ونام، فرأى النبي عليه السلام في منامه وقال له الرسول: لا عليك، لأن هذه البنت التي ولدت هي سيدة؛ إن سبعين ألفاً من أمتي يرجون شفاعتها. وقال له: اذهب غداً لعيسى زاذان أمير البصرة واكتب له ورقة وقل له: إنك تصلي مائة صلاة وفي ليلة الجمعة أربعمائة، ولكن في يوم الجمعة الأخير نسيته، فادفع كفارة أربعمائة دينار حلال لهذا الشخص. فلما أفاق والد رابعة من نومه كتب الرسالة وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير. فلما قرأها الأمير قال: أعطوا ألفي دينار للدراويش وأربعمائة للشيخ وقولوا له أن يأتي إلى لأراه؛ كلاً بل لا أرى من الموافق أن يأتي إلى، بلى سأذهب إليه أنا، وأخني لحيتي على أعتابه وأمسحها بها، وأطلب من الله كل ما تريده، وأشتري من فاخر الثياب وكل شيء تريده (الفتاة).

فلما كبرت وتوفيت أمها وأبوها حدث في البصرة قحط ، وتفرقت أخواتها .
فلما خرجت رابعة تهيم على وجهها زأها ظالم وباعها بستة دراهم ، ومن اشتراها
أثقل عليها العمل . وذات يوم جاء رجل غريب فهربت وسارت في طريقها ، ثم
ارتمت على التراب وقالت : ياربى ! أنا غريبة ويتيمة وأسيرة وقد صرت عبدة ،
لكن غمى الكبير هو أن أعرف أراض عنى أنت أم غير راض ؟ فسمعت صوتاً
يقول لها : « لا تحزنى ، لأنه في يوم الحساب [٦١] المقربون في السماء ينظرون
إليك ويحسدونك على ما أنت فيه » .

وبعد أن سمعت هذا الصوت ذهبت إلى بيت سيدها ، وصارت تصوم وتخدم
كل يوم ، سيدها وتصلى لربها ، ساهرة على قدميها . وذات ليلة استيقظ سيدها
من النوم ونظر من خوخة في الباب ، فرأى رابعة ساجدة وهي تقول : « إلهى ! أنت
تعرف أن قلبي يتمنى طاعتك ، ونور عيني في خدمة عتبتك . ولو كان الأمر يبدى
لما توقفت ساعة عن خدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق » . وبينما كانت
لا تزال تصلى ، شاهد قنديلاً فوق رأسها ، معلقاً ، بدون سلسلة ، وكان النور يملأ
البيت كله . فلما رأى سيدها هذا النور العجيب فرغ ونهض ثم عاد إلى مكانه وظل
يفكر حتى طلع النهار . هنالك دعا رابعة وحدثها بلطف وأطلق سراحها قائلاً :

يارابعة ! لقد أعتقتك حرة ، فإذا شئت بقيت هنا وسنكون جميعاً في خدمتك ؛
وإذا لم تشأى اذهبي ألى شئت . فودعته رابعة وارتحلت وانقطعت للتقوى والعبادة .
ويقال إن رابعة كانت تصلى كل يوم ليلة ألف ركعة ؛ وكانت تتردد على
الحسن البصرى . وفي رواية أخرى أنها كانت تضرب على الناي (وگروهي
گونید در مطربى افتاد) مدة ما ، ثم تابت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت
فيها للعبادة .

وذات يوم ارتحلت إلى الكعبة وكان لها حمار حملته متاعها . فنفق الحمار ،

فقال من بالقافلة : « سنحمل متاعك على دوابنا . — فقالت رابعة : ما كان اعتمادى عليكم خيما أتيت ، بل ثقتى بالله تعالى : فارجلوا إذن » . فلما ارتحلت القافلة دعت رابعة الله قائلة : « إلهى ! أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين ؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، وما أنت ذا تدع حمارى ينفق فى الصحراء وتتركنى فى الخلاء وحيدة ! » فما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئاً بالحياة . فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة . ويقال إنها كانت فى طريقها إلى الكعبة ذات يوم ، فبقيت وحدها فى الصحراء . وقالت : « إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة : أنا لبنة والكعبة حجر . وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! » فناداها حينئذ صوت من عند الله تعالى يقول : « يا رابعة ، أتعلمين وحدك ما يقتضى دم الدنيا كلها ؟ لما أراد موسى أن يشاهد وجهنا ، لم نلق إلا ذرة من نورنا على جبل نحر صِعَقاً . »

ويروى مرة أخرى أنه لما كانت رابعة بسبيل الحج رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء . فقالت رابعة : [٦٢] « لا أريد الكعبة ، بل رُبَّ الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشأ أن تنظر إليها .

وكان إبراهيم بن آدم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين . وكان يقول : « غيرى يسلك هذه الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكها على رأسى » . وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجد لها فى مكانها . فقال نائماً : « وإسفاه ! أصرت أعشى حتى لا أرى الكعبة ؟ » فسمع صوتاً يقول : « يا إبراهيم ! لست أعشى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة » ، فتأثر إبراهيم ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها . وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : « أى رابعة ! هكذا قال لها ، ما أجل عمالك وما الضجة التى تحدثها فى الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة » . فأجابته رابعة :

يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت في الدنيا بأن أمضيت أربعين سنة حتى بلغت هذا المكان ، لأن الكل يقولون : إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلي ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! قد أمضيت أربعين سنة في اختراق هذه الصحراء . فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر » ؛ وبكت طويلاً . وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة . وفي وثبة من قلبها صاحت : « إلهي وعدت بجزاءين لشيئين : القيام بالحج ، والصبر على الشدائد . فإذا لم يكن حجي صحيحاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ »

وفي السنة التالية قالت : « إذا كانت الكعبة قد أقبلت إليّ في العام الفائت أنا التي سأقبل عليها هذا العام » . وروى الشيخ أبو علي الفارمذي أنه لما جاء موسم الحج ، توجهت رابعة ناحية الصحراء وتقلبت على أضالعها حتى بلغت الكعبة ، في سبعة أعوام . فلما بلغت سمعت صوتاً يقول لها : « ماذا تريدن يا رابعة ؟ إذا كنت تريدنني فسأتجلى لك بكل جلال فتدوين توأ كما يذوب الماء — فأجابت : إلهي ! ليس لي من الطاقة ما يبلغني هذه المرتبة . ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحي » . فقال الصوت : « أي رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها في طريق الأولياء ، لكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلا قيد الشعرة فقد يحدث أن يفسد أمرهم في الحال وينحجّو عن الغاية . أما أنت ، فلا تزالين في داخل السبعين حجاباً أو مقاماً . فطالما لم تخرجي من تحنها وتضعي قدمك في طريقنا ، لن تقدرى على الحديث عن الفقر — فقال صوت : « يا رابعة ! أنظري إلى الأعلى ! » فلما نظرت إلى الأعلى ، رأت بحراً من الدم معلقاً في الهواء وصاح لها صوت « يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا . ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثر في هذا العالم أو في الآخرة — فقالت رابعة : إلهي ! دعني أرى مثلاً على درجة السعادة التي

يصل إليها هؤلاء العشاق . فما أتمت هذه العبارة حتى أتاها الحيض وصارت غير طاهرة . وفي نفس الوقت ناداها صوت يقول : « إن المرتبة الأولى التي يبلغها العشاق يمثلها تماماً إنسان تقلب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللبن ، ولما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه » . فلما يئست رابعة قالت : « إلهي ! لا تدعني كي أبقى في بيتي ، ولا تريد أن تقبلني في بيتك ؛ فإما أن تدعني أقيم هادئة في بيتي بالبصرة ، أو تسمح لي أن أدخل الكعبة ، وهي منزلك . لقد فقت عنك قبل أن أحني رأسي أمام الكعبة ؛ دعني إذن أذهب فلست جديرة بدخول بيتك » . ثم عادت إلى البصرة ؛ وأقامت في خلوتها وانقطعت بكامل نفسها للعبادة .

ويروى أن عالمين ذهبا لزيارة رابعة ؛ وكانا جائعين ، فقدمت لهما رغيفين كانا عندهما . وفي تلك اللحظة جاء شيخ يسألهما على الباب ، فقدمت إليهما الرغيفين . فدهش العالمان وجلسا يتأملان ما جرى . فشهدا خادمة تحمل مفرشاً من الخبز وضعت أمام رابعة وقالت « إن سيدتي في خدمتك » . فلما عدت رابعة الأروقة وجدها ثمانية عشر . فأعادتها إلى الخادمة مع المفروش ، وقالت : « خذوها واذهبي ؛ لقد أخطأت العدد . — فقالت الخادمة : كلا لم أخطئ . — فقالت رابعة : كلا ، بل نمت خطأ . فأخذت الخادمة المفروش وذهبت إلى سيدتها ، وروت لها كل ما حدث ، فوضعت السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأروقة وأرسلتها . فأخصت رابعة عددها فوجدته عشرين ، وضعتها أمام ضيوفها من العلماء . فلما فرغوا من الطعام سألاها السرفيا حدث . فأجابت رابعة : « لما وصلتكم عرفت أنكم جائعون فقلت لنفسي : ليس عندي إلا القليل . وفي تلك اللحظة جاء السائل الذي أعطيته الرغيفين ثم دعوت هذه الدعوة : إلهي ! لقد قلت : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ^(١) » ،

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .

وأنا من أجلك أعطيت رغيقتين ، فأعطيني عشرة من كل واحد. فلما جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيقتاً قلت لنفسى : إما أن يكون أحد الناس قد أخذ منها اثنتين ، وإما ألا تكون لنا . ورددتها . فلما أعادتها بزيادة رغيقتين ، فهمت أن هذه لنا . وذات ليلة كانت رابعة تهجد ، فدخلت قصبة في عينها دون أن تشعر بها لأن عشقها لله كان متأصلاً في أعماق قلبها !

ويحكى كذلك أن لصاً دخل بيت رابعة ، وسرق خمارها ، ولكنه لم يجد مخرجاً ؛ لكن لم يكذب الخمار في مكانه حتى وجد المخرج . فأخذ الخمار من جديد ، لكن السبيل أغلق عليه . وفعل هذا سبع مرات : يأخذ الخمار ولا يجد المخرج ، إلا إذا أعاده إلى مكانه . هنالك ناداه صوت يقول : « يا لص ! لا جدوى في محاولتك ، فمنذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهر عليها ولا تسمح بدخول إبليس في خلوتها . وأنت أيها اللص ! تريد أن تسرق خمارها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقي أنه حينما يكون أحد أحبائنا غارقاً في النوم ، هناك صديق يسهر على أمره » .

كما يروى أن خادمة رابعة كانت تهيب طعاماً بالزيت لسيدتها . فلم يكن عندها بصل ، فقالت لها : « سأسأل جارتنا وأعود » — فقالت رابعة : منذ أربعين سنة وقد عاهدت الله على ألا أسأل أحداً شيئاً غيره . فإذا لم يكن ثمت بصل ، فلا ضير . وفي الحال تبدى طائر يحمل بصلاً قشره وقطعه قطعاً وألقى به في المقلاة فلم تأكل رابعة من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، ثم قالت : « يجب على المرء ألا يعتز بحيل الشيطان » .

ويروى أيضاً أن رابعة صعدت جبلاً فأقبلت حولها كل الغزلان الموجودة ؛ وبقيت آمنة كل الأمان . وفجأة جاء الحسن البصرى فقزت كل الغزلان ، فقال لها : « يا رابعة لماذا فرت كل الغزلان منى ، ولم تفر منك أنت ؟ فسألته : ماذا

أكلت اليوم يا حسن ؟ — أكلت طعاماً طهي بقطعة زيت — فقالت رابعة :
يا من تأكل من دهنها كيف تريد ألا تفر منك ؟ »

ويحكى أن الحسن البصري رأى رابعة جالسة على شاطئ الفرات فألقى على
الماء سجادته ووقف عليها وقال : يا رابعة ! تعالى نصلي ركعتين على الماء —
فقالت : سيدي ! أهي أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة ؟ أظهر لنا
شيئاً لا يستطيع جمهور الناس أن يفعلوه . قالت هذا وألقت سجادتها في الهواء
وصعدت عليها وصاحت : « تعال يا حسن ! نحن هنا في مكان آمن وأبعد عن
عيون الناس » . وقالت تعزية للحسن : « سيدي ! ما فعلت أنت تستطيع السمك
أن يفعله ، وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله . المهم أن نبلغ درجة أعلى من
هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما » .

ويروى أن الحسن البصري قال : « بقيت ليلة ويوماً عند رابعة نتحدث
عن الطريق الروحي وأسرار الحق بحرارة بلغت حداً نسينا معه أنني رجل وأنها
امرأة . فلما انتهينا من هذه المناقشة ، شعرت بأنني لم أكن إلا فقيراً ، بينما هي
غنية بالإخلاص » .

ومرة أخرى ذهب الحسن البصري وبعض أصحابه إلى رابعة . وكان الوقت
ليلاً ، فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا . هنالك وضعت رابعة أطراف أصابعها في فمها
ثم أخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور كأنه نور مصباح . فإن سأل
أحد كيف حدثت هذه الكرامة فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى .
فإذا قيل لك إن موسى — عليه السلام — كان نبياً وأن رابعة لم تكن نبيه ، فأجب :
إن من ينفذ الأوامر التي أتى بها الأنبياء يشارك في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات ؛
فإذا كان للأنبياء معجزات ، فإن الأولياء كرامات . وهذه حقيقة يؤيدها
حديث الرسول عليه السلام حين قال : « من رد دانقاً — وهو سدس الدرهم —

من الحرام ، فقد نال درجة النبوة^(١) ، أو « الرؤيا الصادقة جزء من النبوة » [٦٦] .
ويحكى أن رابعة أرسلت إلى الحسن البصرى ثلاثة أشياء : قطعة شمع وإبرة
وشعرة وأمرت الرسول أن يقول له : يا حسن ! اشتعل كالشمع وأضىء للناس ؛
وابداً بأن تكون متجرباً ثم اعمل ؛ فإن فعلت هذين ، صرّ نحيلاً كالشعرة إذا
أردت ألا يذهب جهدك سدى .

وسألها الحسن البصرى هل تتزوجين : فأجابه : « الزواج ضرورى
لن له الخيار ؛ أما أنا فلا خيار لى فى نفسى ؛ إني لربى وفى ظل أوامره ،
ولا قيمة لشخصى . — فقال الحسن : فكيف بلغت هذه الدرجة ؟ — بفنائى
بالكلية — فقال الحسن : أنت تعرفين لماذا ؛ أما نحن فلا يوجد لنا هذا . ثم
أضاف : « أى رابعة ! أخبرينى بشيء مما ألهته — فأجابت رابعة : ذهبت
اليوم إلى السوق ومعى حزمتان من الحبال بعتهما بمثقالين من الذهب حتى أحصل
على طعام . وأخذت إحدى القطعتين فى كلتا اليدين مخافة أنى لو أمسكت بهما
معاً لجللانى أضل الطريق القويم » . وقال لها الحسن أيضاً : « لو كنت فى الجنة
بعيداً قدر نفس من وجه الله لبكيت إلى حد يثير شفقة الآخرين على : — فقالت
رابعة ! حسناً ؛ لكن من يهمل فى هذه الدنيا أو يسبح بحمد الله لحظة وهو
ينوح ويبكى فإن هذا آية على أنه فى الآخرة سيكون على الحال التى وصفتها » .
وسئلت : « لماذا لا تتزوجين ؟ — فأجابت : هناك ثلاثة أشياء تسبب
الهم عندى ؛ فإذا كان من يخلصنى منها تزوجت . — وما هى ؟ — فأجابت :
أولها : هل إذا أنا متُ أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً ؟ والثانى إذا ما كنت
سأعطى كتابى نيمينى يوم القيامة . والثالث إذا جاء يوم البعث وأخذ أصحاب
الميمنة إلى الجنة وأصحاب المشأمة إلى السعير ، فمن أى الفريقين سأكون ؟ —

(١) بنصه العربى فى الأصل .

فقالوا جميعاً : لسنا نعرف شيئاً عما سألته . — فقالت : إذا كان الأمر كذلك ، وأنا في قلق من هذه الأمور ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ! »
وسئلت : « من أين أتيت ؟ — من العالم الآخر — وإلى أين تذهبين ؟ — إلى العالم الآخر — وماذا تفعلين في هذه الدنيا ؟ — أعبث بها : — وكيف تعبثين بها ؟ — آكل من خبزها وأعمل عمل الآخرة » . وسئلت أيضاً : « إنك بارعة في الكلام ، أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟ — فقالت : إني حارسة رباط فعلاً ، لأنني لا أدع شيئاً يخرج مما في داخلي ، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج » .
وسئلت : « أي رابعة ! أتحبين الله تعالى ؟ — أوه ! نعم أحبه حقاً : — وهل تكرهين الشيطان ؟ — إن حبي لله قد منعني من الاشتغال بكرهية الشيطان . »
ويروى أن رابعة رأت الرسول — عليه السلام — في المنام ، وهو يسلم عليها ويقول : « يا رابعة ! أتحيينني ؟ — فقالت : يا رسول الله ! وهل تمت من لا يحبك ؟ لكن حبي لله تعالى قد ملأ قلبي إلى حد لم يجعل هناك مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته . »

وسئلت رابعة : « أترين من تعبدينه ؟ — فأجابت : لو كنت لا أراه لما عبدته » . ويروى أنها كانت دائمة البكاء ، فسئلت لماذا كل هذا البكاء ، فأجابت : « أخشى ألا ينادي صوت في اللحظة الأخيرة ويقول : إن رابعة ليست جديرة بالثول في حضرتنا » . وألقيَ عليها هذا السؤال : « إذا تاب أحد من عباد الله أتقبل توبته ؟ — إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة ، فكيف يتوب ؟ وإذا تاب عليه ، فلا شك في أنه سيتقبل توبته » . وقالت أيضاً : « ليس من المستطاع أن تميز بالنظر المقامات المختلفة في الطريق إلى الله ، ولا أن تصل إليه باللسان . فلتجعل قلبك مستيقظاً . فإذا استيقظ ، رأيت بعيونه الطريق وكان في وسعك بلوغ المقام » . وقالت أيضاً : « إن ثمرة العلم الروحي هو أن تصرف وجهك

عن المخلوق كيف توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هي معرفة الله .
ويحكى أن رابعة رأت رجلاً عصب رأسه فسألته : « لماذا عصبت رأسك —
فأجاب : لأنه يؤلمني — فقالت رابعة : ما عمرك . — ثلاثون عاماً . — وخلال
هذه الأعوام الثلاثين هل كنت في غالب أحوالك سليماً أو مريضاً ؟ — كنت
في الغالب سليماً . — ولما كنت سليماً ، هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة ،
حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألم يوم وتعصب رأسك هكذا ؟ ! »

ويحكى أن رابعة كانت تعتكف إبان الصيف في بيت منغل لا تفارقه :
فقالت لها خادمتها : « سيدتي ! غادري هذا البيت وتعالى تأملی آثار قدرة الله
تعالى . — فأجابتها : بل ادخلي أنت وتعالى تأملی القدرة في نفسها » وأضافت :
« إن مهمتي أنا هي أن أتأمل القدرة » .

ويحكى أن رابعة صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً ،
ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة . وفي الليلة الثامنة قالت لها نفسها (الأمانة
بالسوء) وهي تنوح : « يا رابعة ! إلى متى تعذبنني هكذا دون مأهودة ؟ » وخلال
هذا الحديث النفس سمع صوت قرع على الباب . ففتحت رابعة ، فكان رجل
أحضر لها طعاماً في كأس . فأخذته رابعة ووضعت في البيت ؛ فلما تركته لإشغال
المصباح أتى قط وأكل كل ما في الكأس . فلما عادت رابعة ورأت ما حدث
قالت : « سأبحث عن ماء أفطر به » فلما ذهبت للحصول على ماء انطفأ المصباح .
فعادت ورفعت الجرة للشرب ، لكنها سقطت من يديها وانكسرت . فزفرت
رابعة زفرة كاد البيت أن يحترق منها وصرخت : « إلهي ! ماذا أردت بهذه المسكينة ! »
فسمعت صوتاً يقول : « يا رابعة ! إذا شئت أعطيناك الدنيا بأسرها ؛ لكن يجب
من أجل هذا أن نزرع الحب الذي في قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان
معاً . فقالت رابعة : لما سمعتُ أني أخاطب على هذا النحو ، نزلت من قلبي كل

تعلق بأمور الدنيا وصرفت نظري عن كل الدنيويات. وما أنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصل فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتي ، ولم أمل من تكرار هذا القول : إلهي ! أغرقني في حبك حتى لا يشغلني شيء عنك !»

ويحكى أن رابعة كانت تنوح باستمرار . فسئلت : لماذا تنوحين وما من ألم تشكين منه ؟ فأجابت : « وا أسفاه ! إن العلة التي أشكو منها من نوع لا يستطيع طبيب أن يشفيه ؛ ودواؤها الوحيد هو رؤية الله . وما يعينني على احتمال هذه العلة هو رجائي في أن أبلغ رغباتي في العالم الآخر » .

ويحكى أنه أتى إلى رابعة كثير من الصالحين ، فسألت أحدهم : « وأنت ، لماذا تعبد الله تعالى ؟ — فأجاب : لأني أخاف النار — وقال آخر : وأنا أعبده خوفاً من النار وطمعاً في الجنة — فقالت رابعة : ما أسوأ العبد الذي يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار » ، وأضافت : « فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار ، أفلا تعبد الله تعالى ؟ — فسألوها : « وأنت ، لماذا تعبدن الله ؟ — فأجابت : أعبدته لذاته . أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته ؟ » .

ويروى كذلك أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة ؛ فلما رأوها عاينها أسماها ممرقة ، قالوا : « أي رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة — فأجابت : إني أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد ، وما هي إلا عارية في يد من هي في يده — فقالوا : هذه امرأة نبيلة العواطف » . ثم سألوها : « إن الله تعالى قد توج رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومنطقهم بها ؛ ولكن هذه المقامات لم تظفر بها امرأة . فكيف بلغت هذه المرتبة ؟ — فأجابت : ما قلتموه صحيح ، لكن الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأة . ولم تصدر امرأة فاسقة لامرأة أخرى » . ويروى أن رابعة مرضت . فلما سئلت ماذا أصابها أجابت : « في هذه الآلة

عند الفجر اشتاق قلبي إلى الجنة ، فأصابني الله بهذه المحنة حتى يرغمني على الاحترام . وروى الحسن البصري ، قال : « ذهبت يوماً إلى رابعة أسأل عن أخبار مرضها، فرأيت تاجراً يبكي . فسألته : مايكيك ؟ فأجاب : أتيت إلى رابعة بهذا الكيس من الذهب . وأخشى ألا تقبله . فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلها تفعل . — فدخلت على رابعة، هكذا قال الحسن، ولم أكد أخبرها بهذا الذي قاله التاجر حتى نظرت إلى بمؤخر عينها وقالت : إنك أيها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطى الطعام لمن لا يركعون له ، فكيف لا يعطيه من يغلى قلبه حباً لجلاله (هو يرزق من بسبه ، أفلا يرزق من يحبه^(١)) وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهي عن كل مخلوق . والآن ! فكيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أو حرام ؟! ثم قالت : ذات يوم وضع في المصباح زيت من بيت السلطان . ورفوت ثوبي الممزق على ضوء هذا المصباح ، فظل قلبي طوال أيام مغموراً بالظلمة ولم يضيء إلا حينما شفت الثوب الذي رفوته ، فاعتذر لهذا التاجر ودعه يذهب . »

وذات مرة جاء تاجر غني لزيارة رابعة فرأى بيتها وهو يتداعى، فأعطاه ألف درهم من الذهب وأهداها بيتاً جيداً. فذهبت رابعة إلى البيت، ولم تكد تستقر فيه حتى استغرقت في تأمل الصور التي فيه ؛ فقالت في الحال وهي تمسك إلى التاجر الألف درهم من الذهب : « أخشى أن يتعلق قلبي بهذا البيت فلا يمود في استطاعتي أن أشغل نفسي بعمل الآخرة . إن كل رغبتى في أن أفرغ لعبادة الله تعالى » .

ويحكى أن عبد الواحد بن زيد ؟ وسفيان الثوري ذهبا يوماً لزيارة رابعة . فلما أبصراها أخذها بالاجلال لها فأرتج عليهما ، وأخيراً قال سفيان : « أي رابعة ! ادعى الله حتى يخفب آلامك . — فسألته : ياسفيان الثوري ! من بعث إلى بهذه الآلام ؟ — فأجاب : إنه الله تعالى . — فقالت : إذا كانت مشيئة الله أن يمتحنني

(١) في الأصل بالعربية .

بهذه المحنة ، فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته ؟ » وقال لها سفيان أيضاً : « أى رابعة ! ماذا يود قلبك ؟ — فأجابت : ياسفيان ! وأنت الرجل العليم ، كيف تنطق بهذه العبارات ؟ إن الله تعالى يعلم أن قلبي يريد منذ اثنتى عشر سنة بلحاً ناضجاً ، وهو ليس بنادر في البصرة . ومع هذا فقد بقيت حتى اليوم لا آكل منه . لست إلا عبدة وليس لى أن أنصرف وفق أهواء قلبي ، لأننى إذا أردت ولم يرد هو (= الله) لكان هذا منى جحوداً — فقال سفيان : ليكن ! لست بقادر على أن أحدثك في شئونك ؛ لكن حدثني أنت عن شئوني — فقالت رابعة : لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنت رجلاً لا غبار عليك . قال سفيان : فصرخت باكياً : إلهى ! ليتك ترضى عني ! فقالت رابعة : ألا تخجل من أن تقول لله : ليتك ترضى عني — دون أن تفعل شيئاً لرضاه ؟ »

ويروى أن مالك بن دينار قال : ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة ، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومخدتها من اللبن . فقلت وقلبي يغلى : يا رابعة إلى أصدقاء أغنياء : فإن سمحت لى سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك . — فأجابت : « لقد أسأت القول يا مالك ؛ إن الله تعالى هو الذى يرزقني ويرزقهم : أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته ، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا . »

ويحكى أن مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيق البلخي ذهبوا لزيارة رابعة فتحدثوا عن الإخلاص ، فقال الحسن : « ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه — فقالت رابعة : هذا غرور . وقال شقيق البلخي : « ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . » فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا . فقال مالك بن دينار : « ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . » فصاحت رابعة : هنالك أفضل من هذا . فقالوا لها : تكلمي أنت إذن ! فقالت رابعة : « ليس

بصادق في دعواه من لم ينسَ الضرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللاتي
نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف .

وكان أحد علماء البصرة يزور رابعة فأنشأ يتحدث عن شرور هذه الدنيا
فقلت رابعة : « آه ! لا بد أنك تحب هذه الدنيا . فإن من أحب شيئاً أكثر
ذكره . فمن يريد أن يشتري ثياباً ، يتحدث عنها كثيراً . فلو أنك تجردت تماماً
عن هذه الدنيا فماذا يهملك من خيراتها أو شرورها ؟ »

ويروى أن الحسن البصري قال : « عند صلاة الظهر ذهبت إلى رابعة ؛
وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم ، فلما بدأت الحديث عن المعرفة (= معرفة الله)
قالت : لا حديث خير من هذا ؛ والأفضل أن أستمرفيه على أن أطهى اللحم ؛
ولم تنفخ في النار تحت القدر . فلما فرغنا من صلاة العشاء ، أحضرت رابعة ماء
وخبزاً جافاً . ثم أفرغت ما في القدر ، فوجد أن اللحم الذي كان فيه قد طهى
بقدره الله . فأكلنا من هذا وكان له طعم لم نتذوق مثله قط . »

وقال سفيان الثوري : كنت عند رابعة ذات ليلة . فصلت حتى أشرق
الفجر . وصليت أنا كذلك . وفي الصباح قالت : « يجب أن نصوم اليوم شكراً
على هذه الصلوات التي أقمناها هذه الليلة . » ويروى أنها كانت تقول وهي لهيفة
القلب : « إلهي ! إن بعثت بي يوم البعث إلى النار لأذعت سراً يبعد النار عني
بألف سنة . — وكانت تقول : إلهي ! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا
أعطه لأعدائك ؛ وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنني لا أسمى
إلا إليك أنت وحدك . — وكانت تقول : إلهي ! إذا كنت أعبدك خوف النار
فأحرقني بنارها ، أو طمعا في الجنة فخرمها علي ، وإذا كنت لا أعبدك إلا من
أجلك ، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك . »

ويروى أن رابعة قالت : « إلهي ! إذا بعثت بي إلى النار يوم البعث فسأجترح

فأثمة : « ربى ! يا من أحبه كل هذا الحب ! أهكذا تعامل من يحبونك ؟ » فسمعت صوتاً يقول : « يا رابعة ! لا تظنى بنا ظن السوء ، لأننا سنعطيك مقاماً بين المؤمنين حتى تستطيعى أن تحدثينا عن أسرارنا » .

ويروى أن رابعة قالت ذات ليلة : « إلهى ! حينما أصلى ، اضرب عن قلبى كل وساوس الشيطان ، أو بمنك وكرمك تقبل الصلوات التى تخالطها تلك الوساوس » .

وحينما حضرته الوفاة جلس حولها نفر كبير من الصالحين ، فقالت لهم : انهضوا واخرجوا ، ودعوا الطريق مفتوحة لرسول الله تعالى . فنهضوا جميعاً وخرجوا . فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تقول الشهادة . فلما تلفظت النفس الأخير ، تجمع أولئك الصالحون وغسلوها وصلوا عليها صلاة الموتى ودفنوها فى مقبرها الأخير .

ورويت رابعة فى المنام فسئلت بماذا أجابت منكر ونكير ، فقالت : « إبانى منكر ونكير فسألانى : مَنْ ربك ؟ فأجبت : أيها الملبكان ! اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى : أنت تأمر بسؤالى ، أنا المرأة المجوز ، بين هذا العبد من عبيدك ، أنا التى لم أعرف غيرك ! أفنسيك مرة حتى تبعك إلى بمنكر ونكير يسألاننى ؟ » . وقد زار محمد بن أسلم^(١) الطومى ونعمى الطرطومى قبر رابعة فقالا : « يا رابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة ، فأين أنت الآن ! » فصاح صوت من قبرها يقول : « جبذا ما حدث لى ! ما فعلت هو ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل الصوى » . والله وحده أعلم .

(١) راجع عنه « حلية الأولياء » ج ٩ ص ٢٣٨ — ص ٢٥٣ .

* الترجمة عن الفارسية وعن الترجمة الفرنسية لباقية دى كورتى :

Le Mémorial des Saints traduit sur le manuscrit ouigour de la Bibliothèque Nationale, par A. Pavet de Courteille, Paris 1889, t. I, p. 54-69.

فريد الدين العطار : « إلهي نامه » بتصحیح هـ . ريتز ،

استانبول سنة ١٩٤٠ ، النشریات الإسلامية ، رقم ١٢ :

(١)

ص ١٢٠ - ص ١٢١ :

حكاية الحسن البصري مع رابعة وقطيع من الحيوان

خرج الحسن ذات يوم من البصرة ، وأقبل على رابعة في الفلاة ، وكان قد اصطف من حولها سرب من الحيوان : غزلان وغير غزلان ، ما كادت تبصر الحسن قادماً من بعيد يسلك الدرب حتى فرّت جميعاً من أمام رابعة . شهد هذا الحسنُ فاستوقد ألم صدره ، ودبت له في النفس عقارب الغيرة حيناً . هنالك التفت إلى رابعة وسألها أن تنبئ بصدق : لماذا فرّت هذه الطباء السائرة على الطريق هنالك لما أبصرتنى ، ولم تفرّ منك ؟ أترأها لا ترائي أهلها مثلك ؟ فأجابته رابعة سائلة إياه سرّاً : أى شيء أكلت ؟ فقال : « أكلت جذور بصل . لقد كان عندي ، أيتها الطيبة الخاطر ، بصل وقليل من الشحم ، فأرسلت في دم القلب بضعة شحم منضهر ، هي تلك التي أكلتها في تلك الساعة التي خرجت فيها . سمعت رابعة منه هذا السر ، فصاحت عجباً بنبرة خشنة فيها صوت الرجولة : « لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين ، فكيف لا تريد منها أن تفرّ منك ؟ ! آه ! لو كنت رجلاً أزوماً خفيف الزاد مثل النملة لما يسّرت لديدان قبرك أن يكفها الطعام . لو كنت لا تأكل في اليوم إلا ثمرة واحدة ، لسلم تابوتك في القبر من الديدان ، فهل تريد أن تكون أسير الديدان ؟ إن ثمرة واحدة هي خير لك من تسعين الدود ، وإلا صرت للدود ظهيراً ومعيناً في طعامها وشرابها ؛ وما تملأ

معدتك إلا من أجل هذا ، لأنت صاحب مطبخ ومبرز . فإن لم تخص قلبك من هذين الجمعين ، ذهبت من جحيم إلى جحيم آخر ، بذهابك من المطبخ إلى المبرز . لقد خيل إليك أنك ، وأنت لا تصبر على الطعام لحظة ، قد نلت ربحاً كثيراً . لقد قيل لك : طهر روحك ! لكنك دائب على تعيير جسدك . ألا فلتكن لباطنك عليك حرمة أبداً . إنما أنت تتعبد في الظاهر فحسب .
لقد قال رجل أشعل الروح في نفسه : إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك .

(ب)

ص ١٥٩ — ص ١٦٠ :

حكاية رابعة رجمها الله

كانت رابعة (العدوية) صاحبة مقام ، ومع هذا فلم تكن تأكل طوال الأسبوع ، بل كانت خلاله لا تجلس ، إنما كانت في شغل دائم بالصوم والصلاة . فإذا خُفِعت من الجوع وانهارت ساقاها وسرى التكسر في أعضائها ، تناولت مع طعامها كأساً حلوة مستورة الوجود .

وهكذا بقيت رابعة في الألم والحسرة ، حتى اشتعل السراج في المكان فجاءت قطعة فجأة ، وكانت رابعة قد ألقت الكأس في الطريق مقلوبة ، ومضت لإحضار الكوز ، حتى يفتح ذلك القلب الذي تكنفت يومه الأحزانُ هنالك وقع الكوز من يدها فكسر ، وبقي الكبد ظمآن

فاشتعل ذلك الكبد من تأوه القلب

حتى قالت : صار العالم مشبوباً بالنار

هنالك صاحبت ، وفي رأسها ألف دُوار ، : إلهي !

ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة ؟ !

لقد أوقعتني في التباث صريح .
ولكنكم تلقى بي في حمأة الدم النجيع
فأثاها الخطاب : إن زُمت الآن أن أرزقك من شهر إلى شهر قوتاً معلوماً ،
(فظلت) . بيد أن هذا يخرج من قلبك حزن هذه السنوات الطوال : ففكري !

فالولّه من أجلى
والدنيا المحتالة الغرارة لا يجتمعان في قلب واحد ، ولا في مائة سنة
فإن شئت أن تكوني دائماً مولمة بي
فعليك أن تتخذي من ترك الدنيا صناعتك الدائمة
ولن تنال الوله حتى يكون لك هذا الأمر (أى ترك الدنيا)
فالولّه من أجل الله ليس مجاناً .

(ج)

الجزء ٣٦١ ، تحت عنوان

حكاية أبي يزيد :

ولكن كلمة « ملدام » . . .
إذا أضاءت على امرأة عجوز حيناً ما ، زدتها مثل رابعة شابة الدنيا . .

كتاب «الروض الفائق في المواعظ والرقائق» للشيخ الحريفيش
(المتوفى سنة ١٢٠١ هـ ، ١٣٩٨ م)

طبع المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٤ هـ = سنة ١٨٨٦ م :
في «المجلس السابع والعشرون فيما يجلو القلوب من القسوة ، بذكر أخبار النسوة» :

[ص ١١٧] . . . قال الله تعالى — وهو أصدق القائلين — : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ^(١) » ، وقال تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ^(٢) » .

فقرَنَ الله — سبحانه وتعالى — ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال . وفي النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف ، وغير ذلك من الخصوصيات التي خَصَّهن الله تعالى بها كمن مَضَيْنَ منهن في الصدر الأول مثل رابعة العدوية وشعرانة وربحانة وأم الخير وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات ، كما حكى عن رابعة العدوية — رحمها الله تعالى — أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سَطْحِ لها وشدت عليها دِرْعَهَا وخَمَارَهَا ثم قالت : « إلهي ! نَارَتِ النجومُ ، ونامت العيون ، وغَلَقَتِ الملوكُ أبوابها وخلَّ كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » ثم تُقْبِلُ على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت : « إلهي : هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ؛ فليت شعري ! أقبأت منى ليلتى فأهناً ، أم رددتها على فَاغْرَى ؟ فَوَعَزَّتْكِ هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى . وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع في قاي من محبتك . ثم أنشدت :

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعُدَّتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى	أنت لى مؤنسٌ وشوقك زادى
أنت لولاك ، يا حياتى وأنسى ،	ما تشئتُ فى فسيح البلاد

(١) سورة الفتح : ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٥ .

كم بَدَتْ مِثَّةٌ وكم لك عندي من عطاء ونعمية وأيادي
حبُّك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك - ما حيت - براح أنت مني ممكِّن في السواد
إن تكن راضياً عليَّ فإني يا مَنَّى القلب ! قد بدا إسعادى

وقال سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله في تيه
بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت : يا أستاذ ! شخصٌ قد أتى . فقال
لى : انظر من هو ، فإنه لا يضع أحد قدمه في هذا المكان إلا صديق . فنظرت
فإذا هى امرأة ، فقلت : إنها امرأة . صديقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلم
عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذوالنون ولست من
أهل التهم . فقالت : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حملك على الدخول
في هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل — قوله تعالى : « ألم تكن
أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ؟ ! . — فقال لها : صفي لى المحبة ! فقالت :
سبحان الله ! أنت عارفٌ بها وتمكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها ؟ ! فقال لها :
للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبك حبين : حبَّ الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فذكرٌ شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا
(آخر) :

يا حبيب القلب مالى سواكا فارحم ، اليوم ، مذنّباً قد أتاكا
يا رجائى وراحتى وسرورى قد أبى القلب أن يحب سواكا
(وقيل) إنه لمات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصرى فى الدخول

عليها هو وأصحابه فأذنت لهم وأرخت ستراً وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه :
 إنه قد مات بملك ولا بد لك من زوج وقد انتقضت عُدَّتكَ ، فاخترى من هؤلاء
 الزهاد من شئت منهم ، فقالت : نعم ! حباً وكرامة ! من هو أعلمكم حتى أزوجه
 نفسى ؟ قالوا : الحسن البصرى . فقالت له : إن أجبتنى عن أربع مسائل فأنا لك
 أهل . فقال لها : سلى فأنا أجيبك إن وفقنى الله تعالى . قالت : ما يقول الفقيه
 العالم إذا مُتَّ : هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ،
 والغيب لا يعلمه إلا الله (١١٨) تعالى . قالت : فما يقول إن وُضِعْتُ في القبر
 وسألنى منكر ونكير ، أفأقدر على جوابهما ، أم لا ؟ قال : وهذا أيضاً غيب .
 قالت : فإذا حُشِرَ الناس في القيامة وتطايرت الكتب فيمطى بعضهم كتابه يمينه
 ويعطى بعضهم كتابه بشماله — أفأعطى أنا كتابى يمينى أم بشمالى ؟ قال :
 وهذا أيضاً غيب . قالت : فإذا نودى في الخلائق : فريق في الجنة وفريق
 في السعير ، فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضاً غيب ولا يعلم الغيب
 إلا الله عز وجل . فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا في قلق وكرب من هذه
 الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأنفرغ له ! ثم أنشدت :

راحتى ، يا إخوتى ، فى خلوتى	وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً	وهواه فى السرايا محنتى
حيثما كنتُ أشاهد حُسنه	فهو محرابى إليه قبلى
إن أُمْتُ وَجْداً وما ثم رضا	واعنائى فى الورى ! واشقوتى !
يا طيب القلب يا كُلىّ النى	جُدْ بوصيل منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحياتى دائماً	نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هجرتُ الخلق جمعاً أرتجى	منك وصلّاً ، فهو أقصى مُنبى

« النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى » ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

ج ١ ص ٣٣٠ س ٩ — س ١٣ :

في كلامه عن سنة ١٣٥ : « . . . وفيها توفيت رابعة العدوية البصرية الزاهدة العابدة ، وكانت مولاة لآل عتيك ، وكان سفيان الثوري وأقرانه يتأدبون معها ؛ وكانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مُصَلَّاهَا هجمة خفيفة حتى يُسْفِرَ الفجر ثم تثب إلى الصلاة وتقول : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم لا تقومين ! يوشك أن تنامين (كذا) نومة لا تقوهمين منها إلا بصرخة » .

ج ٢ ص ١٥ س ١٤ — س ١٥ :

في كلامه عن سنة ١٥٠ : « . . . وفيها توفي عبد العزيز بن سليمان أبو محمد الراسبي من الطبقة السادسة من تابعي أهل البصرة : كان عابداً زاهداً ، كانت رابعة تسميه سيد العابدين ؛ كان إذا ذكر القيامة والموت صرخ كما تصرخ الشكلى ويصرخ الحاضرون من جوانب المسجد ، وربما وقع المبيت والميتان من جوانب المسجد ؛ قاله أبو المظمر^(١) في « مرآة الزمان » .

ج ٢ ص ١٠٠ س ١٣ — س ٢٤ :

في كلامه عن سنة ١٨٠ : « الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة ، قال : وفيها توفي . . . ورابعة العدوية قلتُ : وقد تقدمت وفاتها في قول غير الذهبي » .

« الكشكول » لمحمد بهاء الدين العاملي ، طبع بولاق سنة ١٢٨٨ ، ص ١٣٤ :

« قيل لرابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

(١) أى سبط ابن الجوزى .

وقيل لها يوماً : كيف شوقك إلى الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار .
ومن كلامها ، نفعنا الله بها : « ما ظهر من عملي فلا أعدّه شيئاً ^(١) » .

أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ = سنة ١٣٩٨ م

« روض الرياحين في حكايات الصالحين »

القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ = سنة ١٩٠٦ م ، ص ١٠١ :

(١) « الحكاية السابعة والثمانون بعد المائة » عن خادمة رابعة العدوية

رضي الله عنها قالت :

كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجمت هجمة في مُصَلَّاهَا
حتى يسفر الفجر ؛ فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدِها ذلك وهي فزعة :
يا نفس ! إلى كم تنامين ؟ وإلى كم لاتقومين ؟ يوشك أن تنامي نومة لاتقومين منها
إلا بصرخة يوم النشور .

قالت (أي خادمة رابعة) : وكان هذا دأبها إلى أن ماتت . فلما حضرتهما
الوفاة ، دعتنى وقالت : لاتؤذني بموتي أحداً ، وكفّنيني في جُبَّتِي هذه — وكانت
جبة من شَرّ تقوم فيها إذا هدأت العيون . قالت : فكفّناها بتلك الجبة وفي خمار
صوف كانت تلبسه . فرأيتها في المنام عليها حُلة استبرق خضراء وخمار من سندس
أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منهما قلت : يارابعة ! ما فعلت بالجبة التي كفناك بها
والخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نَزَعَ عني وأبدلت به هذا الذي ترينه ؛ وطُوبِت
أَكفاني وخُتِمَ عليها ورُفِعَتْ في عليين ليكون لي ثوابها يوم القيامة . فقلت لها :

(١) « قيل لرابعة العدوية : بم ترتجّين أكثر ما ترتجّين ؟ فقالت : بيأسى من جل عملي » .

« الكشكول » لمحمد بهاء الدين العاملي ، طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٦٣ س ٢٠٢ .

لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت : وما هذا عند ما رأيت مما أعد الله من كرامات الله عز وجل لأوليائه ! قلت : مُرّيني بأمرٍ أتقرب به إلى الله تعالى ! فقالت : عليك بكثرة ذكره ؛ يوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك .

(ب) « الحكاية الثامنة والثمانون بعد المائة » .

روى عن أحمد بن أبي الحواري — رضى الله تعالى عنه — قال : كان لرابعة أحوال شتى — يعنى زوجته رابعة الشامية — قال : فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأُنس ، ومرة [١٠٢] يغلب عليها الخوف . فسمعتها في حال الخوف تقول :

حبيب ليس يعدله حبيبُ وما لسواه في قلبي نصيبُ

حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى ولكن عن فؤادى لا يغيبُ

وسمعتها في حال الأُنس تقول :

ولقد جعلتُك في الفؤاد محدثى وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليلس مؤانس وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى

وسمعتها في حال الخوف تقول :

وزادى قليلٌ ما أراه مُبلَغى الأزاد أبكى ، أم لطول مسافتى

أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ؟! فأين رجائى فيك أين مخافتى ؟!

قال (أى أحمد بن أبي الحواري) : وقلتُ لها وقد قامت بليل : ما رأينا من

يقوم الليل كُلّه غيرك ! فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ؟ ! إنما أقومُ إذا

نوديت . قال : فجلستُ آكل في وقت قيامها ، فجعلت تذكّرني . فقالت لها : دعينا

ننهَنَ بطعامنا . فقالت : ليس أنا ولا أنت ممن يتنغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة .

وقالت : لستُ أحبك حبّ الأزواج ، إنما أحبك حبّ الإخوان .

وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كلها ياسيدى ! فما نضجت إلا بالتسبيح .

قال : وقالت لى اذهب فتزوج ، فتزوجت ثلاثاً . وكانت تطعمنى اللحم
وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك .

وقالت : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيثون ، وربما رأيت الحور العين .
رضى الله عنها وثقنا بها .

قلت : الظاهر — والله أعلم — أن هذه الرؤية المذكورة كانت فى البقعة ،
فأما رؤية المنام فغير الأولياء .

وهذه رابعة الشامية ، زوجة ابن أبى الحوارى كما ذكرناه ، وليست رابعة
العدوية البصرية التى تقدمت . وبعض أهل العلم يقول : هذه الشامية رابعة بالياء
المثناة المنقوطة بنقطتين من تحت ؛ وبعضهم يقول بنقطة واحدة كرابعة البصرية —
رضى الله عنهما ونفع بهما أجمعين .

حكايات عن رابعة العدوية

(١) المخطوط رقم ١٢٤٢ عربى بالقاتيكان ، ورقة ١٨٣ :

قيل : دخل لص على رابعة العدوية رحمها الله تعالى ليلاً ، فنظر فى البيت
يميناً وشمالاً فلم يجد غير إبريق . فلما هم بالخروج قالت له رابعة : يا هذا ! إن كنت
من الشطار فلا تخرج بغير شيء . فقال : إني لم أجد شيئاً : فقالت : يا مسكين !
توضاً بهذا الإبريق وادخل فى هذا الخدع ، وصل ركعتين ، فإنك ما تخرج
إلا بشيء . ففعل ما أمرته . فلما قام صلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت :
سيدى ومولاى ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندي ، وقد أوقفته ببابك
فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

فلما فرغ من صلاة الركعتين ، لذت له العبادة ، فما برح يصلّى إلى آخر

الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت إليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول
في سجوده معاتباً نفسه — شعراً — :

إذا ما قال لي ربي أما استحييتَ تعصيني
وتخفى الذنب من خلقي وبالعصيان تأتينني
فما قولي له لما يعاتبني ويقصيني ؟ !

فقات له : حبيبي ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال ، بخير . وقفتُ بين يدي
مولاي بذلي وافتقاري ، فقبِلَ عذري وجبرَ كسري ، وغفر لي الذنوب ،
وبلغني المطلوب .

ثم خرج هائماً على وجهه . فرفعت رابعة كفها إلى السماء وقالت : سيدي
ومولاي ! هذا وقف ببابك ساعةً فقبلته ؛ وأنا مذ عرفتُك بين يديك أترك
قبلتي ؟ فنوديتُ في سرّها ، يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قربناه .

(ب) المخطوط رقم ٢٩٦ فاتيكان ص ٧٧ ب ، ضمن رسالة تسمى « كتاب
الصلاة » مجهولة المؤلف :

« وذكر أن رابعة العدوية كانت في الصلاة ، فسجدت على البواري
فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها حتى إذا انصرفت من الصلاة . . . »
(أى إلى أن انصرفت من الصلاة) .

ذكرها الطارفي « تذكرة الأولياء » . (راجعه قبل)

عبد الرحمن الجامي (المتوفى سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م) : « نفحات الأنس
من حضرات القدس » ، مخطوط رقم ١٢٤ بالمكتبة الشرقية بجامعة القديس

يوسف ببيروت (راجع فهرست شيخوها ، ص ٢٨٤ — ص ٢٨٥ ،
تحت رقم ١٢٤ : ^(١)

(٤٠٤) في ذكر النساء العارفات (٤٠٥) المواصلات إلى مراتب الرجال
رابعة العدوية رحمها الله تعالى :

كانت من أهل البصرة . وكان يزورها سفيان الثوري رضى الله عنه ويسألها
بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها ودعائها . أتاها يوماً ورفع يده وقال :
« اللهم إني أسألك السلامة ! » فبكت رابعة . فسألها سفيان : ما يبكيك ؟
فقلت : أنت الذى عرّضتني للبكاء . فسألها : وكيف ذلك ؟ فقلت : ألم تعلم
أن سلامة الدنيا هي فى تركها ؟ وأنت غارق فيها ! ومن كلامها : لكل شىء ثمرة ،
وثمره العلم والمعرفة هي التقرب إلى الله . ومن قولها كذلك : أستغفر الله من قلة
صدقى فى قولى أستغفر الله .

سألها سفيان يوماً : ما خير ما يتقرب به العبد إلى الله ؟ فأجابت : ألا يملك
فى الدنيا والآخرة شيئاً سواه .

وقال سفيان يوماً فى حضرته : « واحزنه ! » (٤٠٦) فقلت : « إنك
لتكذب ! إن كنت محزوناً ما هناك عيش . »

« فى كنوز الأولياء ورموز الأصفياء » لأبى الليث محرم بن أبى البركات
محمد الزبلى ، المخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٣٩٧٢ عام ، ترجمة صغيرة لرابعة
العدوية تقع من ١٤١ ب إلى ١٤٢ ب ، أورد فيها عبارة المطار عن سبب ذكره

(١) سنقتصر هنا على ذكر الترجمة لهذا النص الفارسي الذى نشره من قبل ليس — نساو
Lees-Nassau ص ٧١٦ ؛ وان كنا لم نعلم عليه ، بل على المخطوطة المذكورة .

لها في صف الرجال ^(١) ، ثم نقل عن « رسالة القشيري » ثم عن ابن الجوزي ؛
وليس فيها شيء لم يرد في المصادر الأخرى .

ابن العماد الحنبلي ، « شذرات الذهب » ، نشرة القدسي ، القاهرة
سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ص ١٩٣ ، أخبار سنة ١٣٥٠ هـ :
« وفيها رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل . وقيل توفيت
سنة خمس وثمانين ومائة ، ولا يصح اجتماع السرى (= السرى السقطي) بها ،
فإنه عاش حتى نيف على الخمسين ومائتين . وروى أن سفيان الثوري قال بحضرتها :
واحزنناه ! فقالت : لا تكذب ! وقل : واقلة حزنناه ! وسمعتة يقول : اللهم إني
أسألك رضاك . فقالت : تسأل رضا من لست عنه براص ! وراها بعض إخوانها
في المنام فقالت : « هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور . »
وقبرها على رأس جبل يسمى الطور ، بظاهر بيت المقدس ؛ وقيل : ذلك قبر
رابعة أخرى غير العدوية . وقيل لها في منام : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟
قالت : سبقتنا إلى الدرجات العلا . قيل : ولم ذلك ؟ قالت : لم تكن تبالي
على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست . »

كتاب « التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع »

تأليف أبي الحسين محمد بن أحمد الملطي

في الحديث عن مذاهب الزنادقة :

ومنهم الروحانية ، وهم أصناف . وإنما سموها الروحانية لأنهم زعموا أن أرواحهم

(١) راجعه قبل ص .

تنظر إلى ملكوت السموات؛ وبها يعاينون الجنان ويجامعون الحور العين؛ وتسرح في الجنة . وسمّوا أيضاً الفكرية لأنهم يتفكرون في هذا حتى يصيرون إليه؛ فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم؛ ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية فيتلذذون بمخاطبة الإلهية لهم ومصالحته إياهم ونظرهم إليه — زعموا؛ ويتمتعون بمجامعة الحور العين ومفاكهة الأبقار على الأرائك متكئين، ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار . ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان مستقيماً . وأما هذه الفكرة فبؤبؤها لهم الشيطان لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة — وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلّة من الله فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلّة التي بينهم وبين الله لا على وجه الخلل ، ولكن على وجه الخلّة كما يحل للخليل الأخذ من مال خيله بغير إذنه [٩١] — منهم رباح وكليب ، كانا يقولان بهذه المقالة ويدعون إليها . كذبوا ! أعداء الله ! وكيف يكون ذلك وإبراهيم الخليل — خليل الرحمن عليه السلام — يسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم فيقول: لست هناك، وبذ كر ثلاث كذبات — كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة من تضيير أنفسهم وحملها على المكروه . فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما يشتهي وتمنى ، وأن أكل الطيبات كأكل الأراذلة في الأطعمة ، وكان الصبر والخبيص عنده بمنزلة ، وكان العسل والخل عنده بمنزلة .

فإذا كان كذلك فقد بلغ غاية السبقة وسقط عنه تضمير الميدان وأتبع نفسه ما اشتبهت.
منهم ابن حيان كان يقول هذه المقالة .

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا اشتغال للقلوب وتعظيم (ص : تعظيما)
للدنيا ومحبة لها : لما عظمت عندهم تركوا طيب طعامها ولذيد شرابها ولبس لباسها
وطيب رائحتها . فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ؛ وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات
عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها حيث كانا
يقولان هذه المقالة .

ومنهم صنف زعموا أن الزهد في الدنيا هو الزهد في الحرام . فأما الحلال
فباح لهذه الأمة من أطيب [٩٢] الطعام وغرائب الألوان وكفاية الخدم ولين
الرياش وسعة المنازل ووطاء المهاد وتشيد القصور وكفاية الحاجات وترك
الطلبات وقضاء الأوطار . وأن الأغنياء أفضل منزلة عند الله من الفقراء لما
أعطوا من فضل أموالهم وفضول من نوائب حقوقهم وأدركوا من منتهى
رغباتهم . لقد قالوا خلاف ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رواه
أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم
خمسائة عام . وروى عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً .

[مخطوط بالظاهرية بدمشق برقم ٥٩ توحيد ص ٩٠ — ٩٢]

من كتاب « شرح حال الأولياء » تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام
ابن غانم المقدسي ، مخطوط رقم ١٦٤١ عربي بال مكتبة الأهلية بباريس :

(١٢٥٣) شرح حال رابعة رضى الله عنها

كيف رأيت^(١) المحبة ؟ قالت : ليس للمحب وحببه بين ، وإنما هو نطق

عن شوق ، ووصف عن ذوق . فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف . وكيف
تصف شيئاً أنت في حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك
منه سكران ، وبفراغك^(١) له ملآن ، وبسرورك له ولهان ! فالهيبه تخرس اللسان
عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن
الأغيار ، والدهشة تمقل العقول عن الإقرار . فثائمٌ إلا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ،
وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، وأجساد [٢٥٣] ب من السقم غيرُ سالمة ، والمحبة ،
بدولتها الصارمة ، في القلوب حاكمة — (شعر) :

وارحمنا للعاشقين ! قلوبهم في تيه ميدان المحبة هائمة

قامت قيامة عشقهم فنفوسهم أبدأ على قدم التدلل قائمة

إمّا إلى جنات وصل دائم أونا ر صدي للقلوب مُلازمة

يارابعة ! فأنت^(٢) في ميدان المحبة راتعة ، فكيف كانت صورة الواقعة ،
حتى سميت رابعة ؟ والمحلة واحدة ، فمن أين هذه الشراكة والمجاعة ؟ فقالت : يا قوم !
الموافقة شرط في الصحبة . أما نظرت إلى بني الرغبة والرغبة ، إلى أن شرب بحر
المحبة في شربه ، فرأيته يقول لصاحبه في الغار : « لا تحزن إن الله معنا » ما ظنك
بأنين إن الله ثالثهما ؟ فتقدمت إلى خلوة الغار : بأقدام المبايعة ، فصاحت الغيرة
من داخل الغار : ما هذه الوالهة الجازعة ، التي كشفت القناع ولم^(٣) تكن بدوتنا
قاعة ؟ (شعر) :

كأسى وخمري والنديم : ثلاثة وأنا المشوقة في المحبة : رابعة

كأس المسترة والنعم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعه

فاذا نظرتُ فلا أرى إلا له وإذا حضرتُ فلا أرى إلا معه

يا عاذلى ! إني أحب جماله تا الله ما أذنى لعذلك سامعه

(١) ص : بفرغك .

(٢) ص : فأنتى .

(٣) ص : كم .

كم بتُّ من حُرْقِي وفرط تعلقي^(١) أُجْرِي عيوناً من عيوني^(٢) الدامعه
لا عبرتي تُرتقا ، ولا وَضلي له يبقى ولا عيني القريحة هاجمه

« كتاب سير السالكات المؤمنات الخيرات » لأبي بكر الحصني ، مخطوط
رقم ٢٠٤٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٢٦ :
... ومنهن رابعة المدوية

وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشن تكاد تسقط وتحتها بارية .
وكانت^(٣) إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة : قال مسمع ورباج : أتاها
رجل بأربعين ديناراً ، فقال : استعيني بهذه الدنانير على بعض حوائجك ! فبكت
ثم قالت : هو يعلم أنني أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أريد
أن آخذها ممن لا يملكها ؟ ! قال عبد الله بن عيسى : دخلتُ على رابعة فرأيت
على وجهها النور وكانت كثيرة البكاء . فقرأ رجل آية فيها ذكر النار ؛ فسقطت ،
وسمعتُ وَقَعَ دموعها على البارية مثل الوكف ، وصاحت . فقمنا وخرجنا .
وكانت — رضى الله عنها — إذا مرّت بقوم عرفوا فيها العبادة ، فقال لها
رجل : ادعى لي ! تلتصق بالحائط وتقول : من أنا يرحمك الله عز وجل ؟ !
أطيع ربك وادعُ فإنه يجيب المضطر .

قال ابن منظور : دخلت على رابعة وهي ساجدة . فلما أحست بمكاني رفعت
رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها . فسلمتُ ثم أقبلت على
وقالت : يا بني ! ألك حاجة ؟ فقلت : جئتُك لأسلم عليك . قال : فبكت وقالت :
[٢٦ب] سَتَرَكَ اللَّهُمَّ سَتَرَكَ ! ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت

(١) ص : تعلق . (٢) ص : عيون . (٣) ص : كان .

وقالت : استغفر الله — عز وجل — من قلة صدق في قولي : استغفر عز وجل .

لله درُّها من امرأة !

ما أنور قلبها !

قال أزهر بن هارون : دخل على رابعة رباح القيسي وصالح بن عبد الجليل وكلاب فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها . فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا يرايها في قلوبكم . فقالوا : ومن أين توهمت علينا ذلك ؟ فقالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

قال لها شيخ من قریش : هل عملت عملاً ترين أنه يُقبل منك ؟ فقالت : إن كان ، فمخافتى أن يُردَّ عليَّ .

قال جعفر بن سليمان : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : مُر بنا إلى المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلنا عليها رفع سفيان يديه وقال : اللهم إني أسألك السلامة . فَبَكَتْ رابعة فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرّضتني للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ فقالت : أما علمت أن السلامة من الدنيا بَرَكٌ ما فيها ؟ فكيف وأنت متلطّخ بها ! فقال سفيان : واحزنه ! فقالت : لا تكذب قل : واقلة حزنه ! لو كنت محزوناً ما هناك العيش . قالت : يا سفيان ! إنما أنت أيامٌ معدودة . فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل . وأنت تعلم ، فاعمل .

كانت عبدة تخدم رابعة ؛ وكانت تقول عن رابعة : إنها تصلي الليل كله فإذا طلع الفجر [ف] كنت أسممها تقول إذا وثبت من مرقدتها وهي فرجة : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأب رابعة ، دهرها ، حتى ماتت . فلما حضرته الوفاة قالت : يا عبدة ! لا تؤذني بوفاتي أحداً وكفني في جُبتى هذه — وكانت من

شعر ، تقوم فيها إذا هدأت العيون [١٢٧] — قالت : فكفناها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه .

قالت عبدة : فرأيتها بعد سنة أو نحوها في منامى وعليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً مثله . فقالت يارابعة ما فعلت [بـ] الجبة التي كفناك بها والخمار الصوف ؟ فقالت رابعة : والله نزع منى فأبدلت به هذا الذي ترينه على ؛ وطُويت أ كفاني وخُتم عليها ؛ ورُفِعَتْ في عليين ليكون لى ثوابها يوم القيامة . فقلت لها : لهذا كنت تعملين في الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ! فقلت : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيات هيات ! والله ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . فقلت : وبم وقد كنت عند الناس أكثر منها ؟ فقالت : لم تكن تبالي على أى حالة أصبحت من الدنيا وأمست . فقلت : ما فعل بشر بن منصور ؟ فقالت : بخر بخر ! أعطى والله فوق ما كان يأمل . فقلت : فريبنى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . فقالت : عليك بكثرة ذكره ، فيوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك . والله أعلم .

* * *

[٣٨ب] (رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري) .

... ومنهن رابعة بنت اسماعيل ، زوجة أحمد بن أبي الحواري خادم أبي سليمان^(١) رضى الله عنهم .

وهذه رابعة شامية ؛ ورابعة العدوية بصرية قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لزوجتي رابعة وقد كانت تصلى ليل : قد رأينا أبي سليمان وتعبدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل . فقالت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت .

(١) أبو سليمان الداراني، الصوفي الشافى المشهور المتوفى سنة ٢٠٥ هـ .

قال (أى ابن أبى الحوارى) : وجلست آكل فجعات تذكرنى . فقلت :
دعينا [١٣٩] يهنأ طعامنا بطعامنا^(١) فقالت : ليس أنا وأنت ممن يتنقص عليه الطعام
عند ذكر الآخرة .

قال أحمد : قالت لى : أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل أطلعه
الجبار على مساوىء عمله فتشاغل به دون خلقه ؟
وقال : قالت لى : إني لأضنّ^(٢) باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، وإني لأرى
ذراعى قد سمن لأحزن — ومعنى أضن أبخل أن آكلها ، نظراً منها إلى قوله
مروجل : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون » . وأما خوف السمن من ذراعها
فلاجل أكل الدود له وخوفاً من وقوف الحساب لأجل كثرة الأكل ،
رضى الله عنها .

قال : وكنت إذا نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فأحزن لذلك .
قال : وكانت تقول : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ؛
وإنما رغبتُ فيك رغبة فى خدمتك ؛ وإنما أُحِبُّ وأتمنى أن يأكل مالى مثلكُ
ومثلُ إخوانك .

وكانت إذا طبخت قدراً قالت : كله ياسيدى فمانضجت إلا بالتسبيح .
وقالت : لست أستحلُّ أن أمنعك نفسى وغيرى ، اذهب فتزوج ! فتزوجت
ثلاثاً فكانت تطعمنى اللحم وتقول : اذهب بقوتك إلى أهلك . وكنت إذا أردت
قربها نهراً تقول : أسألك بالله تعالى لا تظرنى اليوم ، وإذا أردتها بالليل تقول :
أسألك بالله لما وهبتنى لله عز وجل هذه الليلة .
وكان معها سبعة آلاف درهم أنفقها على .

وكانت تقول لى : ماسمعت الأذان إلا ذكرت منادى يوم القيامة ؛ ولا رأيت

(١) ص : يهنأ . (٢) فى الصلب : لأظن ؛ والتصحيح بالهامش .
شميدة م — ١٢

الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ؛ ولا رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر .
قال : وكانت تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويحيئون ؛ وربما رأيت الحور العين يستترن منى بأكامهن ؛ وقالت : بيدها على رأسها .
ودعوتها يوماً فلم تجبني . فلما كانت بعد ساعة أجابتنى وقالت : إنما منعتني أن أجيبك أن قلبي قد كان امتلاً فرحاً بالله عز وجل (٣٩ ب) فلم أقدر أن أجيبك .

قال أحمد : كان لرابعة زوجتي أحوال شتى : مرة يغلب عليها الخوف ومرة يغلب عليها الأُنس ، ومرة يغلب عليها الحب . سمعتها في حال الحب تقول :
حبيبٌ ليس يَغْدِلُهُ حبيبٌ ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب^(١) عن بصرى وشخصي ولكن عن فؤادي لا يغيب
وسمعتها في حال الأُنس تقول :
واقعد جعلتُك في الفؤاد مُحَدَّثِي وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مِنِّي للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
وسمعتها في حال الخوف تقول :
وزادى قلبي ما أراه مُبَلِّغِي اللزاد أبكي ، أم لطول مسافتي ؟
أَتُحْرِقُنِي بالنار يا غاية المنى ؟ فأين رجائي فيك ! أين مخافتي ؟
والله أعلم .

« مرآة الزمان » لأبي المظفر يوسف المعروف بسبط بن الجوزي
المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (= ١٢٥٧ م) ، مخطوط رقم ١٥٠٥ بالمكتبة الأهلية

(١) حبيب عني غاب ...

بيارس * ورقة ١٦١ ب (أخبار سنة ٢٤٦ هـ بعد الكلام عن زوجها أحمد بن أبي الحواري) .

ذكر زوجة أحمد بن أبي الحواري

عامّة الرواة على أن اسمها رابعة ، وكانت في العبادة والزهد مثل رابعة بالبصرة ، لا بل أبلغ .

وروى عن أحمد بن أبي الحواري أنه قال : كانت إذا طبخت قدراً تقول لي :
كلها ! فوالله ما أنضجتها إلا بالتسبيح .

وروى أبو عبد الرحمن السلمي (١٦٢) أنها قالت لزوجها أحمد : « ربما رأيت الحور العين يذهبن في داري ويحثن ويستترن بأكمامهن مني » .

وروى ابن باكويه عن أحمد بن أبي الحواري قال : قالت رابعة — وكانت تقوم الليل — : قد رأينا أباسليمان وتعبدنا معه ؛ ما رأينا من يقوم الليل ^(١) إلا أنت ^(٢) .
فقلت : سبحان الله ! مثلك يتكلم بهذا الكلام ! إنما أقوم ^(٣) إذا نوديت .

وحكى أبو نعيم عن سري السقطي قال : قدمت الشام فدخلت على أحمد بن أبي الحواري المسجد فسلمت عليه وقالت : عظمي وأوجيز ! فقال : ما أحسن ؛ ولكن سري ^(٤) إلى المنزل فقيه من يُحسِن . قال : تخرجت أطلب منزله ؛ وإذا براهب كبير ، خلفه صغير . فقلت للصغير : لم تتبع هذا ؟ فقال : لأنه طيبي يسقيني الدواء . قال : فورد على قلبي من كلامه شيء لا أعقله ؛ فجئت إلى منزل أحمد فطرقت الباب ؛ فكلمتني امرأة من وراء حجاب ، فذكرت لها قول الراهب . قال : فقلت : « ياليت شعري أي داء يسقيه : دواء الإفاقة أم دواء الراحة ! » فقلت :
بيئي ما تقولين .

* للمخطوط ترقيمان لصفحاته أحدهما بالعربية والآخر بالفرنسية ويختلفان بقدر ورقة ، وقد اخترنا الثاني .
(١) وردت مكررة في الأصل . (٢) س : أتى (٣) ص : تقوم . (٤) س : صير .

فقلت : « أما دواء الإفاقة فالكف عن محارم الله تعالى ؛ وأما دواء الراحة فالرضا عن الله تعالى » . قال سرى : فوالله ما خرج كلامها من قلبي أبداً .
وقال أحمد : سمعتُ رابعة تقول : ما رأيت ثلجاً إلا تذكرت به تطاير
الصحف ، ولا جراداً إلا ذكرت به الحشر ، ولا سمعت أذاناً إلا تذكرت به
منادى يوم القيامة .

قال : ودفعتُ إلى يوماً خمسة دراهم وقالت : تزوج بهذه أو تسرَّ^(١) ، فإني
أستغفر عنك .

قال : وكانت تطبخ الطبخ وتقول : كل اللحم فإنك عهد بنرس
وتحتاج إليه .

وكان لأحمد أربع نسوة .

قال أحمد : وكان لها أحوال في المحبة ، فتارة تقول :

حبيبٌ ليس يعدله حبيبٌ ولا لسواه^(٢) في قلبي نصيب .
حبيبٌ غاب عن بصرى وسمى ولكن عن فؤادي ما يغيب

وتارة يغلب عليها الأنس فتقول :

ولقد جعلتُك في الفؤاد مُحَدَّثِي وأبحتُ سرِّي من أراد جلوسِي
فالجسم مني للجلس موانس وحبيبٌ قلبي في الفؤاد أنيسِي

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول :

وزادى قليل ما^(٣) أراه مُبَلِّغِي الزاد أبكى ؟ أم لطول مسافتي ؟
أَتُحرقني بالنار يا غاية المنى ؟ فأين رجائي فيك ! أين مخافتي ؟ !

توفيت رابعة قبل أحمد في سنة تسع وعشرين ومائتين رحمة الله عليها .

(١) ص : تسرى . (٢) ص : سواه . (٣) ص : لم .

كتاب* « نفحات الأنس من حضرة القدس » لعبد الرحمن الجامى
تعريب تاج الدين زكريا العثماني ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
برقم ١٣٧٠ عربي ، ورقة ٢٣٦ :

رابعة العدوية رضى الله عنها

كانت من البصرة ، ويسأل منها سفيان الثوري مسائل ويذهب عندها
ويرغب إلى موعظتها ودعائها . فيوماً دخل عليها سفيان الثوري وقال : اللهم إني
أسألك السلامة . فبكت رابعة . فسألها سفيان : ما يبكيك . قالت : أنت أبكيتني
قال سفيان : بم ؟ قالت : أما علمت أن السلامة في ترك الدنيا وأنت مشغل بها ؟
قالت رابعة : لكل شيء ثمرة ؛ وثمره المعرفة تولي الوجه إلى الله^(١) تعالى .
وأيضاً عنها قالت : أستغفر الله من قلة صدقي في أستغفر الله .
سألها سفيان (٢٣٦ ب) : أي شيء أفضل أن يتقرب به العبد إلى الله ؟
قالت : ألا تطلب من الدنيا أو الآخرة غيره .
ويوماً قال سفيان عندها : واحزنه ! قالت : لا تقل الكذب ! إن كنت
أنت محزوناً لا تكن مسروراً في الحياة الدنيا .
وأيضاً عنها قالت : لا يكون حزني أن أكون محزونة ، بل حزني أني
ما كنت محزونة .

(٢٣٧ ب) رابعة الشامية رحمها الله تعالى .

هي زوجة أحمد بن أبي الحواري ، قال أحمد بن أبي الحواري : كانت

(١) كلمة « الله » غير واضحة في المخطوط . وهذا الموضع والصفحات التالية عليه آثار سوداء
شوهرته . فلا يقرأ إلا بعناء شديد .

* المخطوط يقع في ٢٤٥ ورقة حجم ٢١٥ X ١٥٥ مسطرتة ٢٥ تاريخ نسخة ١١٠٤ هـ .

مختلفة الأحوال . يغلب عليها العشق والمحبة ، مرةً أنس ، ومرة خوف ، وفي
حال غلبة المحبة تقول (شعراً) :

حبيب ليس يعد له حبيب وما لسواه في قلبي نصيب

حبيب غاب عن بصرى وشخصي ولكن عن فؤادي لا يغيب .

وتقول في حالة الأنس (شعراً) :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحثُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها تقول في حالة الخوف (شعراً) :

وزادى قليل ما أراه مُبَلَّغِي أألازاد أبكي، أم لطول مسافتي ؟!

أتحرقتني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي منك ، أين مخافتي ؟!

وتقول لأحمد بن أبي الحواري : لست أحبك حبَّ الأزواج ، إنما أحبك

حب الإخوان . وكانت لما تطبخ الطعام تقول : كل يا سيدي فما طبخت هذا

الطعام إلا بالتسييح .

قال أحمد بن أبي الحواري يوماً : كانت عندها طشت . قالت : ارفع هذا

الطشت لأنني أرى أن الأمير هارون مات . فبعد تفحص تحقق [أن] مات هارون

الرشيد ذلك النهار .

فهرس الكتب

- (١)
- اتحاف الأخصا في فضائل المسجد
الإقصى : ٩٧ .
- اتحاف السادة المتقين : ١١ ، ٥١ ،
٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٠٢ —
١٨ ، ٩ .
- أحياء علوم الدين : ٧٠ ، ١١٨ .
- أخبار الحلاج : ٢٧ .
- الاستقامة : ١١١ .
- أسرار التوحيد : ١٠٩ .
- الإلحاد في الاسلام : ٨١ ، ٨٥ .
- الهي نامه : ١٥٨ .
- الأنساب : ٩ .
- الأنس الجليل : ٩٧ .
- الانسانية والوجودية في الفكر
العربي : ٧١ .
- (ب)
- بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف
الاسلامي : ٢٨ ، ٣٣ ، ٦٠ ، ٧٠ ،
١٠٤ ، ١٠٣ .
- بلاد الخلافة الشرقية : ٣ .
- البيان والتبيين : ٩ ، ١٠٨ .
- (ب)
- تذكرة الأولياء : ٧ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣١ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٧٦ ،
٧٨ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ،
٩٥ ، ١٠١ ، ١٤٢ ، ١٦٨ .
- التعرف لمذهب أهل التصوف : ٢١ ،
٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٩ .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع :
٦٢ ، ١١١ ، ١٧٠ .
- (ج)
- جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم :
١٩ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ .
- حلية الأولياء : ٦٧ ، ١٠١ ، ١١٠ ،
١٥٧ .
- حياة القلوب : ١٨ ، ١٠٧ .
- الحيوان : ١٠٨ .
- (د)
- دائرة المعارف الاسلامية : ٣ .
- (ر)
- رابعة وزميلاتها المتصوفات في الاسلام :
٤٣ .
- الرد على الحريرية : ٣٩ ، ١١٢ .
- الرسالة القشيرية : ٢١ ، ٢٨ ، ١٢٤ .
- روض الرياحين في مناقب الصالحين :
٤٩ ، ١٦٥ .
- الروض الفائق في المواعظ والرقائق :
٢٣ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٧٤ ،
١٦١ .
- (ز)
- الزمان الوجودي : ٢٨ .
- (س)
- سير السالكات المؤمنات الخيرات :
١٧٤ .

(ق)

قوت القلوب : ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،
١١٣ ، ١١٩ ، ١٢١ .

(ك)

كشف المحجوب : ٨٩ ، ١٠٩ .
الكشكول : ١٦٤ ، ١٦٥ .
كنوز الأولياء ورموز الأصفياء : ١٦٩ .

(ل)

لسان العرب : ٥٩ .
اللمع : ٨٨ ، ١٠٨ .

(م)

مثير الفرام : ٩٧ .
مجموع نصوص غير منشورة خاصة
بالتصوف الاسلامي : ٣٩ ، ٥١ .
مجموعة رسائل وتعليقات وتقييدات :
٩٣ .
مجموعة الرسائل والمسائل : ٨٠ ،
٨٢ ، ١١٢ ، ١٣١ .
مرآة الزمان : ٣٤ ، ١٦٤ ، ١٧٨ .
مصارع العشاق : ٣٠ ، ٧٢ ، ١٢٢ ،
١٣٣ .
معجم البلدان : ٣ ، ٥ ، ٨٩ ، ٩٩ .
مناقب الأبرار وشعار الأخيار : ٤٥ .
مناقب العارفين : ٩ ، ١١٢ .
المنحنى الشخصي لحياة الحلاج : ٣٩ .

(ن)

النجوم الزاهرة : ٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
١٠٢ ، ١٦٤ .
نفحات الأنس من حضرة القدس :
٥٠ ، ١٦٨ ، ١٨١ .

(و)

وفيات الأعيان : ٣٠ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
١٠٣ .

(ش)

شخصيات قلقة في الاسلام : ١٣ ،
٣٦ ، ٣٩ .
شذرات الذهب : ٩٨ ، ١٠٢ ، ١١٢ ،
١٧٠ .
شرح حال الأولياء : ١٧٢ .
شطحات الصوفية : ٩٢ .
شكوى : ٥١ ، ١١١ .

(ص)

صعود الكرمل : ٧٧ .
صفة الصفوة : ٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ .
صورة الأرض : ٣ ، ٥ .

(ط)

طبقات الأولياء : ٥ ، ١١ ، ٤٣ ، ٥١ ،
٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٣٥ .
طبقات الشعرائي : ٥٣ ، ١٠١ ، ١٠٧ .
طبقات الصوفية : ٢١ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٧٩ ، ١٠٢ .
الطبقات الكبرى : ١١ .

(ع)

عذاب الحلاج : ٧٠ .
عقلاء المجانين : ٢٦ ، ٣٢ .
عوارف المعارف : ٣١ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ .
عيون التواريخ : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ،
١٠٢ ، ١٣٢ .

(ف)

فاوست الثاني : ٧٤ .

فهرس الأعلام

(١)

- | | |
|------------------------------------------|---------------------------------------|
| ابن القيسراني : ٩٨ . | ابراهيم بن أحد القرمسيني : ١٢٩ . |
| ابن محمد النامي : ١٢٥ . | ابراهيم بن أدهم : ١٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، |
| ابن المقفع : ٨٥ ، ٨٦ . | ٤١ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ١١٣ ، ١٦٠ ، |
| ابن منظور : ١٢٦ ، ١٧٤ . | ٤٦ ، ٤٥ ، ١٧ . |
| ابن يحيى : ١٢٢ . | ابراهيم بن بشار الرمادي : ١٢٥ . |
| أبو أسماء بن منيب العتكي : ٩ . | ابراهيم بن محمد الزكي : ١٢٤ . |
| أبو بكر البرقاني : ١٢٤ . | ابراهيم بن يوسف : ١٢٩ . |
| أبو بكر الحصني : ١٧٤ . | ابراهيم الخليل (عليه السلام) : ٦٢ ، |
| أبو بكر القرشي : (أنظر القرشي) . | ١٧١ . |
| أبو بكر الكلاباذي : (أنظر الكلاباذي) . | ابراهيم الشرباصي : ١٠١ . |
| أبو بكر محمد الأردستاني : ١٢٩ . | أبان بن أبي عياش : ٥٩ . |
| أبو جعفر الرازي : ١٣١ . | ابن أبي الدنيا : ١٢٢ ، ١٨٢ . |
| أبو جعفر المديني : ١٢٦ . | ابن أبي عيينة : ٥ . |
| أبو الحسين بن عبد الجبار : ١٢٥ . | ابن تفرى بردى : ٣٠ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، |
| أبو الحسين الملقطى : ٦١ ، ٦٢ ، ١١١ ، | ١٦٤ . |
| ١٧٠ . | ابن تيمينة : ٣٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، |
| أبو الحلال : ٩ . | ٨٤ ، ١١٢ ، ١٣١ . |
| أبو حنيفة : ٣١ . | ابن الجوزي : ٦ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، |
| أبو الخير الأقطع : ٨٨ ، ٨٩ . | ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٧ ، |
| أبو السعود بن شبل : ١٣٩ . | ١٠٢ — ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٦٤ ، ٧٨ ، |
| أبو سعيد بن أبي الخير : ١٠٩ . | ابن حبيب البزاز : ١٢٥ . |
| أبو سعيد الخراز : ١٢٢ . | ابن حوقل : ٥ . |
| أبو سليمان النيراني : ٢٨ ، ٣١ ، ٤٥ ، | ابن خلكان : ٩ ، ١١ ، ٣٠ ، ١٠٢ — |
| ٧٦ ، ٤٠ ، ٢٩ ، ١١٣ ، ٥٨ . | ٣٢ ، ٧ ، ٣ . |
| أبو طالب العساري : ١٢٤ . | ابن الراوندي : ٨١ ، ٨٢ . |
| أبو طالب المكي : ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، | ابن شاعر الكتبي : ٦ ، ١١ ، ٢١ ، ٩٧ ، |
| ١٣ ، ١٠ — ١٠٧ ، ٧ . | ١٠٢ — ٣ ، ٣٢ . |
| أبو عبد الله الجهني : ٤٥ . | ابن عربي : ٨٦ ، ١٣٨ . |
| أبو عبد الله النباجي : ٤٥ . | ابن العماد الحنبلي : ١٠٢ — ١٢ ، ٧٠ . |
| أبو عبد الرحمن السلمي : ١٢٨ ، ٤٤ — | |

- الأسود بن كلثوم : ١٠٨ .
- الأفلاكي : ٩١ ، ٩٢ ، ١١٢ .
- ألوسي : ١١٢ .
- أم الخير : ١٦١ .
- أم الدرداء : ١٠٨ .
- أوستيا : ١٤ .
- أوغسطين : ١٤ ، ١٧ ، ٧٦ .
- أيوب السجستاني : ١٠٨ .

(ب)

- باقيه دي كورتى : ٧ ، ١٥٧ .
- بجالة بن عبدة العنبريان : ١٠٨ .
- بشر بن الحارث الحافي : ٥٧ .
- بشر بن السرى : ٤٥ .
- بشر بن منصور : ١٢٨ ، ٧٦ .
- بلال بن رباح : ١٢ ، ١٣ .
- بهاء الدين العاملى : ١٦٤ ، ٦٥ .
- بولس : ١٤ ، ١٧ .

(ت)

- تاج الدين زكريا العثماني : ١٨١ .
- تريتز الابيلاوية : ٦ ، ٧ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٧ .
- التوزي : ١٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .
- التويرجى النقشبندى : ٧٢ .

(ج)

- الجاحظ : ٩ ، ١٠٨ .
- جامى : ٥٠ .
- جبريل (عليه السلام) : ٢٨ .
- جرتش : ٧٤ .
- جعفر بن أحمد السراج : ١٢٦ ، ٣٠ .
- جعفر بن جرفاس : ١٠٨ .
- جعفر بن زيد العبدى : ١٠٨ .
- جعفر بن سليم : ١٢٧ .
- جعفر بن سليمان الضبعى : ٦٥ ، ٧٥ ، ١١٨ ، ٢٦ .

٢٩ ، ٣١ ، ٧٩ .

أبو على القارمذى : ٣٦ ، ٣٨ ، ١٤٣ ، ٤٦ .

أبو على الفقيه : ١١٠ .

أبو الغنائم بن النمرسى : ٤٥ ، ١٢٩ .

أبو القاسم الحريرى : ١٢٤ .

أبو القاسم الحسن بن محمد

النيسابورى : ٢٦ ، ٣٢ ، ١١٣ .

أبو القاسم الحسن بن محمد حبيب :

١١٣ .

أبو القاسم الزيدى : ٨٧ .

أبو الليث العتكى : ٩ .

أبو الليث محرم الزيلى : ١٦٩ .

أبو محمد الحلال : ١٢٩ .

أبو معمر : ١٢٢ ، ١٣٤ .

أبو معمر عبد الله بن عمرو : ١١٠ .

أبو ناصر : ٤٥ ، ١٢٩ .

أبو نصره : ٩ .

أبو نعيم : ٥٣ ، ٦٧ ، ١٠١ ، ١٠ .

١٣ ، ٧٩ .

أبو هريرة : ١٧٢ .

أبو يزيد البسطامى : ٩٢ ، ١٦٠ .

أحمد بن أبى الحوارى : ١١ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

٥٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ٢٦ ، ٢٨ .

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٦٦ ، ٦٧ .

٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

٨٢ .

أحمد بن جعفر بن سلم : ١٢٥ .

أحمد بن عبد الخالق : ١٢٥ .

أحمد بن على التودى : ١٢٦ ، ١٣٠ .

أحمد سامح الخالدى : ٩٧ .

آربرى : ٢١ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٩ .

أزهر بن مروان : ١٢٦ .

أزهر بن هرون : ١٧٥ .

اسحق بن أحمد بن على : ١٢٩ .

جعفر الصادق : ٥٩ .

جيته : ٨٢ .

(ح)

حاتم بن الليث الجوهري : ١٢٤ .

الحارث بن سعيد : ١١٤ .

حبیب بن أبی ثابت : ١٠٨ .

حرب بن جرقاس : ١٠٨ .

الحريفيش : ٢٣ ، ٢٤ ، ٨٤ ، ٥٢ ، ٧٠ .

١٦٠ ، ٧١ .

الحسن البصري : ٥ ، ١٨ ، ٣١ ، ٣٤ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٨ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ٤ ،

٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ .

الحسن بن أحمد الفقيه : ١٢٥ .

الحسن بن عبد الملك بن يوسف :

١٢٩ .

الحسين بن صفوان : ١٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ،

٣٣ ، ٣٤ .

الحلاج : ٢٧ ، ٣٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٩ .

حماد بن زيد : ٦٥ ، ١١٨ .

حماد بن سلمة : ٩ .

حيونة : ٢٦ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(خ)

الخضر (عليه السلام) : ١٤١ .

(د)

دلف : ١٤ .

الداراني : (أنظر أبا سليمان الدرائي) .

(ذ)

الذهبي : ١٦٤ .

ذو النون المصري : ٥٩ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ١٢٢ ، ٦٢ .

ذويجانس : ٩١ .

(ر)

رابعة العدوية : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ...

(ومن هنا يرد ذكر اسمها الى

آخر الكتاب) .

راشد بن علقمة الأهوازي : ١١٥ .

رايعه الشامية : ١١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٦٦ ،

٦٧ ، ٧٦ ، ٨١ .

رزق الله بن عبد الوهاب بن وهب :

١٢٦ ، ٣١ .

رياح بن عمرو القيسي : ٥ ، ١٨ ، ١٩ ،

٣٤ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ،

٣٥ ، ٤١ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ .

ريحانة : ١١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦١ .

(ز)

الزبيدي : ١١ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ،

٧٢ ، ١٠٢ ، ٩ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ .

(س)

السراج القاري : ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٨٨ ، ١٠٨ ، ٢٢ ، ٣٣ .

السري السقطي : ٣٢ ، ٨٨ ، ١٧٠ ،

٧٩ ، ٨٠ .

سعد بن عثمان : ٧٠ ، ١٦٢ .

سعيد بن المسيب : ٣١ .

سفيان بن عيينة : ٤٥ .

سفيان الثوري : ٩ ، ٣١ ، ٦٥ ، ٩٠ ،

١٠٣ ، ٨ ، ٩ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ،

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨١ .

سقراط : ١٤ .

سلام الأسود : ١١٥ ، ١٦ .

سلمان الفارس : ١٢ ، ١٣ .

سلمونة : ١١٧ .

عبد العزيز الراسبي : ٣٤ ، ١٦٤ .
عبد القادر الجيلاني : ٥٧ ، ٥٨ ،
١٣٩ .

عبد الوارث : ١٢٢ ، ٣٤ .
عبد الواحد بن بكر : ١٢٩ .
عبد الواحد بن زيد : ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ١٠٤ ، ٨٠

١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ٥٤ .
عبدة بنت أبي شوال : ١٢٧ .
عبدة بنت أبي كلاب : ١٧٠ ، ٧٥ ،
٧٦ .

عتبة بن غزوان : ٣ .
العتيقي : ١٢٥ .
عتيك بن النضر : ٩ .
عثمان بن أدهم : ١٠٨ .

عثمان بن عمر بن المنشاب : ١٢٥ .
عصام بن عثمان الحلبي : ١٤٣ .
العطار : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣١ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
٥٠ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
١٠١ ، ٣ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٩ .

على بن عمر بن علي النجار : ١٢٩ .
على بن الحسن التنوخي : ٣٢ ، ١٢٧ .
على بن محمد بن الشراق : ١٢٧ .
على بن محمد بن الشران : ١٢٧ .
على بن موفق : ١٢٩ .
على الحريري : ٣٨ ، ١١٢ .
على عمر الخيلي : ١٢٧ .
عمر بن الخطاب : ٣ ، ٥٤ .
عمر بن محمد : ١٢٩ .
عمواس : ١٤ .

عنيس بن مرحوم العطار : ١٢٧ .
عون بن ابراهيم : ١٣١ .
عيسى زاذان : ٨ ، ٣٢ ، ١٤٣ .
عين القضاة الهمداني : ٥١ ، ١١١ .

السندوبي : ١٠٨ .
السهروردي : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٧ .

سهل بن سعد : ١١٧ .
سيف بن سبيعة : ٩ .

(ش)

الشجا الخارجية : ١٠٨ .
الشعراني : ١١ ، ٥٣ ، ١٠٧ .
شعوانه : ١٦١ .
شقيق البلخي : ٨٨ ، ١٥٥ .
شمس الدين السيوطي : ٩٧ .
شيبان بن فروخ : ١٢٦ ، ٢٧ .
شيخو : ١٦٩ .

(ص)

صالح بن عبد الجليل : ١٢٦ ، ٧٥ .
صلة بن أشيم : ١٠٨ .
صهيب الرومي : ١٢ .

(ض)

ضياء الدين الكمشخاني : ١٩ ، ٤١ ،
٦٠ .

(ع)

عامر بن عبد قيس : ١٠٨ .
العباس بن حمزة : ١٣١ .
العباس بن الوليد : ١٢٦ .
عباسه الطوسي : ١٤٢ .
عبد اسحق بن ابراهيم : ١٢٥ .
عبد الله بن ايوب : ١٢٦ .
عبد الله بن عمر : ٩ ، ١٧٢ .
عبد الله بن عيسى : ١٢٤ ، ٣٢ ، ٧٤ .
عبد الله بن المولى بن أبي الحواري : ٤٥ .
عبد الرحمن بن عبد الله القرشي :
١٣٣ .

عبد الرحمن الجامي : ١٦٨ ، ٨١ .

(غ)

الغزالي : ٣٦ ، ٧٠ ، ١١٨ .

(ف)

فرنشسكو الأسيري : ٩٣ ، ٩٤ .
فريد الدين العطار : (أنظر العطار) .
فستند : ٣ ، ٥ ، ٩٩ .
الفضل بن موسى البصري : ١٢٥ .
الفضيل بن عياض : ٣١ .
فيلين : ٢٨ .

(ق)

قتادة : ٩ .
القرشي : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ .
القشيري : ٢٨ ، ٣٦ ، ١٢٢ .

(ك)

كرامرز : ٣ ، ٥ .
كراوس : ٢٧ .
كلاب : ١٢٦ ، ٧٥ .
الكلاباذي : ٢١ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ١٠٩ .
كليب : ١٢٦ ، ١٥٧ .

(ل)

لوسترانج : ٣ .
ليس : ٥٠ ، ١٦٩ .
ليفى لايفدا : ٧٢ .
لوسترانج : ٣ .

(م)

مارجرت اسمث : ٤٣ .
ماسينون : ١٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ،
٣٨ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ١٠٣ ،
٤ ، ١٠ ، ١١ .
مالك بن دينار : ٥٣ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٨٨ ،
١١١ ، ٣٧ .
المحاسبي : ٦٠ ، ٦٧ .

محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١٤ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٨٥ ،
١٢٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧١ ،
٧٢ .

محمد بن أبي حاتم : ١٢٥ .
محمد بن أبي منصور : ١٢٥ ، ٢٦ ،
٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ .
محمد بن أبي نصير الحميدي : ١٢٩ .
محمد بن أحمد بن سعيد : ١٢٥ ،
١٣١ .

محمد بن ادريس : ١٢٦ ، ١٣٠ .
محمد بن اسحق السراج : ١٢٤ ،
١٢٩ .
محمد بن أسلم الطوسي : ١٠١ ، ١٥٧ ،
محمد بن الحسين : ١٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ،
٣٤ .

محمد بن سليمان الهاشمي : ٥٠ ، ٥١ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ١٠٣ ، ١٨ ، ٣٥ .
محمد بن طيفور : ١٢٩ .
محمد بن عبد الله الدقاق : ١٢٦ ،
١٣٠ .

محمد بن عبد الله القطيعي : ١٣٣ ،
١٣٤ .

محمد بن عبد الباقي : ١٢٦ ، ٢٩ ،
٣٠ ، ٣١ .

محمد بن عبده بن حرب القاضي :
١٢٧ .

محمد بن علي الأسنوي : ١٠٧ .
محمد بن علي الكوفي : ١٢٧ .

محمد بن عمرو : ١٢٥ ، ١٣٢ .

محمد بن محمد النجار الرازي : ١٢٩ .

محمد بن هبة الله الطبري : ١٢٧ .

محمد بن واسع : ١٠٨ .

مذعور بن الطفيل : ١٠٨ .

المرتضى الزبيدي : (أنظر الزبيدي)

مروان بن معاوية الفزاري : ٤٥ .

مريم (عليها السلام) : ١٤٢ .

(هـ)

- الهادي : ٨٥ .
- الهجویری : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٩ .
- هرون الرشيد : ١٨٢ ، ١٤٠ .
- هـ . ريتير : ١٥٨ .
- هـ . هورناتير : ٧٧ .

(و)

- وجيه الكيلاني : ٢٦ .
- وهيب بن الورد : ٣١ .

(ی)

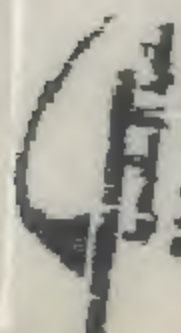
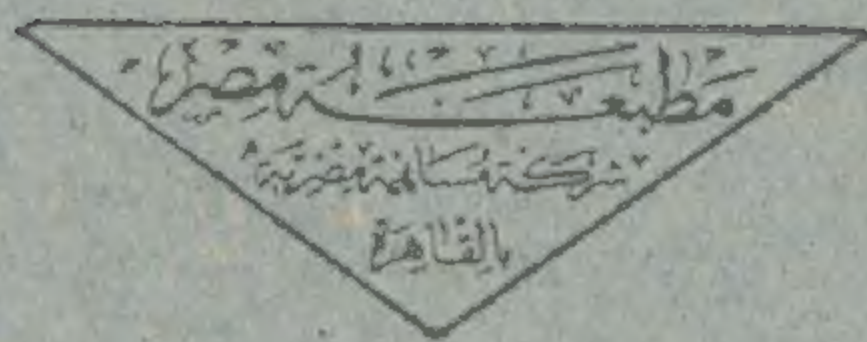
- اليافعي : ٤٩ ، ١٦٥ .
- ياقوت : ٣ ، ٥ .
- يزيد بن المهلب : ٩ .
- يزيد الرقاشي : ٥٩ .
- يعقوب بن يوسف : ١٢٥ .
- يوحنا الصليبي : ٧٦ ، ٧٧ .
- يوسف (عليه السلام) : ٨٨ .
- يوسف بن عبد العتكى : ٩ .
- يوسف (القديس) : ١٦٩ .

- مسمع بن عاصم : ١٢٥ ، ٣٣ ، ٧٤ .
- مضر القاري : ٥٩ ، ٦٧ .
- معاذة العدوية : ١٠٨ .
- معروف الكرخي : ٦٠ .
- المقدسي : ٩٧ ، ١٧٢ .
- المناوي : ٥ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ .
- ١٣٥ .

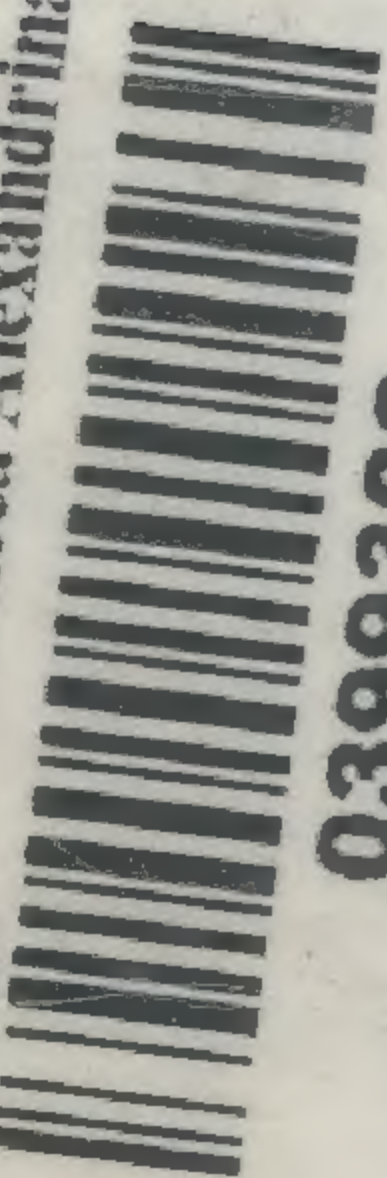
- المهدي : ٨٥ .
- موسى (عليه السلام) : ٣٨ ، ٩٤ .
- ١٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ .
- الولي بن أبي الحواري : ٤٥ .
- ميمونة السوداء : ١١٧ .

(ن)

- نساو : ٥٠ ، ١٦٩ .
- نعمى الطرطوسي : ١٠١ ، ١٥٧ .
- نيكلسون : ٧ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ .
- ١٠١ ، ٨ ، ٩ ، ٤٢ .



Bibliotheca Alexandrina



0399323